ثاني أكسيد الحب

رواية

منى سلامة

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

الكتــــاب : ثاني أكسيد الحب
المــؤلــف :منـــى ســلامة
تصميم الغلاف :أحمــد فـــرج
تـدقيق لغـوي: عبـــدالله أسامـة
تنسيـق داخلي : سمـــر محمـــد
الطبعة الأولى: يـنـايـر 2018
رقــم الإيـداع : 2017/26948
L.S.B.N: 978-977-6541-41-2

المدير العام:محمد شوقي
مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
01150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

عصير الكتب للنشر والتوزيع

إهداء

إلى رجل علَّمني كيف أحب

إلى أبي رحمه الله.

إلى أولئك الذين لا يزالون يحملون في قلوبهم حقائب

الانتظار.. يتمنون فرصة لتغيير أقدارهم..

قطار التصحيح يدخل محطته الآن.

مرفوض!

بكلمة واحدة، وبدون إبداء أسباب أتاني رد مدير دار النشر في رسالة إلكترونية مقتضبة، يجاورها وجه تعبيري سمج، بسمة كالحة أثارت غضبي أكثر مما فعلت «مرفوض».

الدار الأولى والوحيدة التي جرؤت على تقديم روايتي لها بعد تردد كبير عصف بكياني، ليس من السهل أن أجعل أفكاري ومشاعري مشاعًا للرائح والغادي، لكن الكلمات لا يُخلِّدها سوى حبر وأوراق ودفتي كتاب، وإلا سقطت في جُب النسيان.. وهذه الحكاية أريد لها الخلود ما استمرت الحياة.. لذا كان وقع «مرفوض» كصفعة قاسية، فكرتُ في عدة أسباب محتملة لرفضه، لم أقف سوى على سبب وحيد يضرب فيه المنطق سهمًا، أن نهاية الرواية لم تُكتب بعد.

غالبتُ كبرياءً جريحًا، وظلمًا صريحًا، وتوجهتُ إلى مكتبه بالسؤال عن أسبابه التي حجبها، لم يدم اللقاء سوى دقيقة واحدة، صدقت فيها ظنوني بأنه لم يقرأ الرواية قط؛ إذ اضطرب حين حاولت مناقشته فيها.. أسكتني بأن وعدني بالرد في رسالة مفصلة، لكن بريدي ظلَّ فارغًا كقارعة طريق مهجور.

بعثتُ له برسائل إلكترونية، وهاتفية، وبريدية.. خمس وعشرون رسالة بغير جواب! فقررتُ أن يكون السؤال السادس والعشرون أكثر ابتكارًا،إلى الحد الذي لا يترك له فرصة عدم الرد، لكن هذه المرة لن أكتفي بإجابة السؤال فحسب،

بل سأدفعه إلى تغيير «مرفوض» إلى «مقبول».. حتى لو استخدمتُ في ذلك أكثر الطرق جنونًا!

لأشهر طويلة أبقيتُ على غضب الأنثى ثائرًا، بجمرات أوقدها خيال الكاتبة، لكن لم يكن ذاك الوقود كافيًا لإشعال عقلي بفكرة مناسبة.. أما اليوم فهو مختلف، اليوم أنا عائدة من رحلة استغرقت أسبوعًا، مررت خلالها بكل موضع ذكرته في الرواية، أثار رؤية المكان بداخلي عواصف الحنين والشجن، صار التنفس مؤلمًا، والرؤية ضبابية، تعترضها سحب كثيفة رمادية.. هذه الحكاية لا يجب أبدًا أن تموت.

جمعتُ غضب الأنثى مع خيال الكاتبة، وأضفت إليهما حمم الألم، فامتلأ رحم العقل بفكرة متطرفة، سيبدأ مخاضها هذه الليلة بالذات.

الهدف:

رجل ثلاثيني، متوسط القامة، خمري البشرة، مجعد الشعر، يستطيع أن يكتب «مرفوض» بسهولة دون أن يرف له جفن.

المكان:

كفر الشيخ، شارع إبراهيم المغازي، عمارة رقم اثنان وستون، مصعد البناية.

الزمان:

ليلة الجمعة، الثانية عشرة صباحًا، بعد عام من فقدان الكون لأحد أضلعه!

يوم الخميس يتأخر آخر العاملين بدار النشر في الانصراف حتى الثانية عشرة صباح الجمعة، يبقى المدير عادة بعد موعد الانصراف بنصف ساعة أو يزيد، أحيانًا يستقبل بعض الزوار، أصدقاء يبقون قليلًا عنده في المكتب، ثم يرحل معهم.. أرجو ألا يأتيه زوار هذه الليلة، وإلا فسدت خطتي بالكامل.

الحدث:

أقف أمام باب المصعد في الطابق الخامس، مباشرة أسفل الطابق الذي يحوي مكتب الدار، أنتظر اللحظة التي سيقوم فيها باستدعاء المصعد.

في تمام الثانية عشرة والنصف والخمس دقائق زمجر المصعد قبل أن يعاند قانون الجاذبية ساخرًا منه.. القادم يجب أن يتم بدقة شديدة، ضغطتُ زر استدعاء المصعد، وباليد الأخرى أجريتُ اتصالًا بالهاتف الخلوي، توقف المصعد عندي، فتحت الباب، وتأكدت أن الهدف وحده بالداخل.

- الآن!

نطقت بها قبل أن أغلق باب المصعد وأقطع الاتصال في الوقت نفسه.

تحرك المصعد قليلاً إلى الأسفل، قبل أن ينحشر بين الطابقين الثاني والثالث، ويتوقف تمامًا عن العمل!

غرق وجهي في سحب خانقة، يدخن الرجل بشراهة مدخنة، دون أن يعبأ بوصلة طويلة من سعالي المتقطع، يظن أنه بهذه الطريقة سيجبرني على إعادة تشغيل المصعد.. لم يجد بحوزته سيجارًا ثالثًا؛ فثارت ثائرته:

- إذا لم تدعيني أخرج من هنا في الحال سأقدم بلاغًا ضدك، لا تريد شابة لطيفة مثلك أن تدخل السجن.. ها.

بالطبع «لطيفة» تجر وراءها جيوشًا من السخرية، فشكلي ووصفي في هذه اللحظات بعيد كل البعد عن «لطيفة» وأخواتها..

لاحت مني التفاتة صوب المرآة المثبتة في ظهر المصعد، فطالعني وجه مُحمل بالتعب، جبين مُغضَّن، وعينان تبارزان السهاد، حمراوان كليلتان بلون الغسق في اللحظات الأخيرة من احتضار الشمس في قبر الأفق، ذابلتان كزهرتان تفارقان الأغصان، مغبرتان مبعثرتان في الطرقات، تطوقهما حلقتان بلون الليل.

- سأنسى كل ذلك، أعدكِ، فقط دعي المصعد يعود إلى العمل.

- لن يعمل قبل السادسة صباحًا.

قتلت أمله في الخروج، أمسك هاتفه الخلوي وعبث فيه للحظات، رغم أنه يعلم مثلي أن الشبكات تتقطع أوصالها في مصعد البناية، فشلت كل محاولاته لالتقاط الشبكة؛ فتجهم وجهه أكثر.

- لماذا رفضتها؟

لم يكن ذلك هو السؤال السادس والعشرين، بل الثاني والثلاثون، سبع مرات منذ أن دخلنا المصعد ولم أتلق الجواب بعد.

إن كان يراهن على نفاد صبري فلم يعرفني بعد، الصبر والعناء صفات أثيرة متأصلة في جيناتي أتيت بهما إلى هذه الحياة.

نطق أخيرًا بالجواب:

- لم أقرأها.

قلت ألومه بغضب:

- لكنك رفضتها!

أخرجت رسالته الإلكترونية المحفوظة على هاتفي، ولوحت في وجهه بكلمة «مرفوض».. رفع راية الاستسلام أخيرًا، قال:

- رفضتها نعم، لكنني لم أقرأها.. لأنني لا أنشر الروايات الرومانسية.

هكذا ببساطة قالها، سألته:

- لماذا؟

هز كتفيه، ببساطة أشد، أجاب:

- لأنها تافهة!

لم يكتف بذلك، بل أردف بتغطرس:

- الحب وهم ميتافيزيقي صنعته قلوب النساء لتقييد عقول الرجال، الحب أسطورة خرقاء، كذبة فاجرة، وحقيقة هلامية، وأنا رجل واقعي لا أؤمن بالأساطير والخرافات.

أغضبتني كلماته كما لم يفعل شيء يومًا، هذا الرجل يحتاج إلى درس قاسٍ في التربية.

أخرجتُ من حقيبتي ملفًا ورديًا متكدسة أوراقه، يتوسط غلافه رسم كبير لرأس تمساح.. ألقيت به بين يديه، قلتُ بنبرات حاسمة:

- مخطوطة الرواية، ستقرأها الآن.

اتسعت عيناه دهشة، قال:

- هنا، الآن!

كررتُ مؤكدة:

- هنا، الآن.

ثم أردفتُ:

- لديك ساعات طويلة من اللاشيء قبل أن يعود المصعد إلى العمل.. برأيي القراءة هي أفضل وسيلة لتزجية الوقت كي تحمي عقلك من جنون الانتظار.

ألقى بالملف أرضًا بعنف، قال بغضب:

- لن أقرأ، لن تجبرني قوة على أن أفعل.

يبدو أنه لم يأخذني على محمل الجد بما يكفي، فتحت حقيبتي بهدوء مدروس، أخرجت منها سلاحًا ناريًا أشهرت به في وجهه الذي هجره الغضب، وزاره الخوف، قلتُ بصوت حمل الثقة والتهديد في آن واحد:

- ستقرأ.

- أنتِ معتوهة يجدر بها أن تكون نزيلة السرايا الصفراء، هل أخبركِ أحد بذلك من قبل؟

- أنت الأول.

أجبتُ سؤاله المستفز باستفزاز أشد؛ فقال بصوت كشف اضطرابه:

- إذا استمريتِ على هذا النحو فلن أكون الأخير.

أشرت برأسي إلى الملف الذي لا يزال فوق الأرض، قلتُ:

- اقرأ.

التقطه بصعوبة بالغة، لا يغالب غضبه فحسب، بل غروره كذلك، فها أنا أخرج من جعبتي القوة التي ستجبره على القراءة.. طوى غلاف الملف ونظر إلى الصفحة الأولى التي لا تحوي سوى اسم الرواية، وفي الأسفل ملحوظة توقفت عيناه عندها لبرهة؛ فقلتُ له بحزن غلبني:

- النهاية لم تُكتب بعد.

تجاهل كلماتي، من لا يهتم للبدايات لن يتلهف حتمًا للنهايات، لن يكترث إن لم تأت قط.

ألقى نحو المسدس نظرة ثعلب حذِر يتحين اللحظة المناسبة ليمكر بفريسته، هل يظنني مجنونة لأمسك بسلاح حقيقي! وكأن هيئتي تبدو كمجرمة عتيدة تعرف كيف تتحصَّل على واحد! ألصقتُ ظهري بمرآة المصعد، سألني كمن يبحث عن حُجج تفسد عليه القراءة:

- كم استغرقتِ من الوقت في كتابتها؟

أعادني لذكرى عام مضى، وعلى غير إرادة مني خدَّرني الحنين، قلتُ:

- أمسكتُ بقلمي في اليوم الذي فقد فيه الكون أحد أضلعه.

تبدَّى التهكم جليًا فوق قسماته، ورغم ذلك استطردتُ:

- جرت أحداث الرواية في هذا المصعد.

لم يفهم عبارتي، أو لم يكترث لها، بلا مبالاة سألني:

- لماذا أنا، لديك عشرات دور النشر الأخرى؟

فكرت في تجاهل الرد، لكنني أردتُ أن أمنحه ولو سببًا بسيطًا يدفعه للاهتمام

بالقراءة، قلتُ وأنا أفحص وجهه أترقب وقع كلماتي عليه:

- لأنك أحد شخوص الرواية.. أنت نقطة التحول التي بدأ عندها كل شيء.

لم تتأثر قسماته قط، لم يصدقني إذن، ولم أصر عليه ليصدق.. دفن عينيه في الملف الوردي ذي الأوراق المتكدسة، وبدأ في القراءة..

أو تظاهر بالقراءة!

رواية رومانسية

ثاني أكسيد الحب

ملحوظة: النهاية قيد الكتابة!

فصل الربيع

{1}

كان عددهم أربعة، الزوجة وأمها، الزوج وجده، عائدون من سهرة جمعتهم للاحتفال بمرور العام الأول على زواج الشابين، انضمت الأم إلى الجد في المصعد، برفقة بعض سكان البناية التي يملكها الجد، وبقى الزوجان في الأسفل، في انتظار عودة المصعد بعد إفراغ حمولته.

ترمقهما زوجة البواب في حسرة لم تخفِها، تتأمل قربهما وتلامس كتفيهما، وكأن بينهما مغناطيسًا خفيًا يدفع كلًا منهما نحو صاحبه، ينتظران الشيء ذاته، وينظران في الاتجاه نفسه، ودَّت لو اقتربت من الزوجين وسرقَت المغناطيس ليوم واحد فحسب، تُبدد به تنافرًا استحل المسافة بينها وزوجها بواب البناية، الجالس على أريكة خشبية أمام البوابة برفقة نرجيلته الأثيرة، يتقاسم معها الأيام والأنفاس، يحادثها، يلاطفها، يحنو عليها أكثر مما يفعل مع امرأته.. أتبعَت الأمنية المستحيلة بتنهيدة حارة، نفثت فيها حسرة الأيام ومرارتها.

وصل المصعد.. دخل الزوجان الشابان.. ضغط الزوج الزر رقم عشرة.

هل فكرت يومًا لماذا يعيد التاريخ نفسه؟ لأن الزمن يمضي إلى الأعلى، ثم يعود ليحمل أناسًا آخرين ويصعد بهم إلى المكان ذاته، الحياة كالمصعد، نمضي فيها إلى الأعلى أو الأسفل، لا إلى الأمام والخلف كما يزعمون.. لذلك نكرر الأخطاء نفسها التي وقع فيها السابقون من قبل. توقف المصعد لبعض الوقت عند الطابق السادس، قبل أن يكمل طريقه إلى وجهته.

محطات الانتظار فارقة، تحمل لنا أحيانًا دفعة للاستمرار في الطريق، وفي أحايين أخرى تقذف بقلوبنا أمنية العودة إلى حيث البدايات، لا نكتشف خطأ الطريق أثناء السير مطلقًا، بل في محطات الانتظار!

وصل المصعد إلى الطابق العاشر، ينتظر الأم والجد أمام بابه المفتوح، كِلا الزوجين ينظر إلى صاحبه دون كلمة، نظرات تقول كل شيء، لا يفهم فحواها سواهما، حثهما جد الزوج على الخروج من المصعد، وأمسكت أم الزوجة الباب الذي كاد ينغلق قبل خروجهما، لم يتحركا، وكأنهما انعزلا عن الدنيا بأسرها، وأركان المصعد بُعد آخر لا يعيش فيه سواهما، اهتزت شفتا الزوجة قليلًا، ثم زمَّتهما طويلًا، توشك على أن تطلق سراح كلمة ضاقت بمحبسها.

ارتجفت قسمات الزوج مرتين، قبل أن يحرر الكلمة بنفسه:

- أنتِ طالق!

{٢}

انتقَت فستانًا قصيرًا بلون أحمر، لا تحب اللون الأحمر، اختارته لأنه لون الجرأة، امرأة تقوم بإعداد حفل لطلاقها تستحق أن تتقلَّد وسام الجراءة.

وضعت فوق شعرها الأسود تاجًا مرصعًا بأحجار لامعة براقة، أحجار لقيطة لا تنتمي لأي عائلة كريمة، لكنها لا تهتم، يكفي أنها تؤدي واجبها في عالم الزينة.

لم تعتد وضع مساحيق التجميل، ولا تجيد ما تفعله الفتيات للعناية بأجسادهن، تجهل كيف ترعى أرض أنوثتها الجدباء، وكيف تهدي ثمارها إن أينعَت! دائمًا تشعر أنها مختلفة عمن تلاقيهن من الفتيات، وكأن بداخلها رجلًا لا امرأة، رجل لا يمنحها من صفاته سوى الغلظة والخشونة، حاولت مرارًا استدعاء الأنثى بداخلها، لكنها لم تستجب لها يومًا؛ فالأموات لا يستجيبون لنداء الأحياء.

أمسكت بشعرة بيضاء أطلَّت من بين جاراتها السوداء في محاولة خبيثة لشن غارة على مزاجها الرائق، شعرة لئيمة قادرة على تبديد راحتها يومًا كاملًا، لكن ليس اليوم، لن تسمح لها. التفَّت الأنامل بقوة حول الشعرة التي تحمل توقيع الزمن؛ ونزعتها من جذورها في حركة سريعة قاسية، ألقتها أرضًا، ثم خطت بقدميها فوق كل شيء يسلبها سعادتها هذه الليلة.

تذكرت يوم أن كانت طفلة في الثامنة تعتقد أن أفلام الأبيض والأسود ترصد زمنًا يعيش فيه الناس حقيقة في عالم خالٍ من الألوان، لم تكن تنظر للأبيض كرمز للخير والأسود رمز للشر، بل الأبيض هو السعادة، والأسود هو الحزن، في أنقى

صورهما، يومها تمنت لو عاشت في هذا العالم الصريح الذي لم يتبق من آثاره سوى ذكرى في التلفاز، عندئذ لم تكن لتشعر بالتيه والغربة وسط كل هذه الألوان المتناقضة.. كبرت وعرفت أن العالم ليس حزنًا وفرحًا فحسب، هناك حزن تشوبه بقايا ضحكة محتضرة، وضحكة تنعكس فوق الثغر والقلب مهموم، هناك سعادة مُجهضة متشحة بالسواد، وفرحة خدج لم يُكتب لها أن تكتمل في رحم السعادة قط.

خرجت صاحبة التاج من غرفتها لتستقبل في حجرة الصالون ثماني مدعوات من صديقاتها، جميعهن من النساء المتقاربات في العمر، لا تقل صغيرتهن عن الثالثة والعشرين، ولا تزيد كبيرتهن عن الخامسة والثلاثين، أما هي فتقف على الصراط بين الرابعة والعشرين، والخامسة والعشرين.

- خمسة.. أربعة.. ثلاثة.. اثنان.. واحد.

أخرجت صاحبة التاج سلسلة زفير متواترة كافية لإطفاء ثلاثمائة وخمس وستين شمعة! لم تكفِ الكعكة لدس هذا العدد الكبير من الشموع فألصقت صديقاتها الشمعات بالطاولة الخشبية الكبيرة.. ثم ألقت بجسدها فوق أحد المقاعد تاركة لهن مهمة تعبئة أطباقهن بما قلت قيمته الغذائية وزادت سعراته الحرارية.

جذبتها إحداهن من ذراعيها، ورفعت أخرى أصوات موسيقى شعبية اهتزت من ذبذباتها الجدران، وقفت، ورقصت، وضحكت، وأكلت، ثم جلست.. جذبتها أخرى فوقفت، ورقصت، وضحكت، وأكلت، ثم انفتح الباب!

دخلت البيت امرأة خمسينية ترتدي السواد كأنها في حداد، تطل الدهشة من عينيها القويتين لكنهما تحملان أثرًا للبكاء. أشارت فيما حولها وهي تجيل بأنظارها في وجوه الفتيات تارة، وفي وجه صاحبة التاج تارة أخرى وتتساءل:

- ما هذا؟!

تقدَّمَت صاحبة التاج لتواجه المرأة صاحبة الحداد، وفي يدها طبق امتلأ بالحلوى للمرة الثالثة ضاربة بنظامها الغذائي الصارم عرض الحائط، وقالت ببساطة شديدة وهي تمرر ببطء طعامًا بين شفتيها:

- حفل طلاقي يا أمي.

راحت المرأة تتطلع إلى وجه ابنتها كمن يراقب مجنونًا فقد عقله، وتجعد جبينها منذرًا بعاصفة عاتية من الغضب، ثم صاحت:

- هل تريدين فضحنا أمام الناس، ألا يكفينا كارثة طلاقك؟

- طلاقي ليس بكارثة، والناس عندي مقامهم مثل هذا.

رفعت طرف فستانها الناري بلون الجرأة؛ تكشف عن ساق خمرية تنتهي بحذاء ذي كعب عالٍ تكرهه كما تكره اللون الأحمر.

بدأت الهمهمات تتصاعد من أفواه المدعوات وكل منهن تميل على رأس الأخرى، تعلق على الحدث مباشرة، ثم تحولت الهمهمات إلى شهقات إذ نزل كف المرأة صاحبة الحداد على وجه ابنتها بقوة تركت آثارًا فورية فوق الوجنة الوردية.

أتت العاصفة من جهة صاحبة التاج:

- اضربيني ثانية!

وقفت بثبات ترفع للتحدي راية، وتتخذ من العزيمة سلاحًا، وقفت تواجه بجرأة. سكتت الأم إلا من أعين نطقت بدمعات غلبتها، وكف مرتعش تحرك لتغطي به فمًا أكثر ارتعاشًا، لا يدري الرائي هل تُقبِّل الكف الذي صفع ابنتها أمام صديقاتها أم تواريه خجلًا.

لم تتوقف العاصفة عند هذا الحد، أخذت الرياح تزمجر من جديد:

- اضربيني لكن أبدًا لن تجبريني على العودة إليه، لقد تحررت أخيرًا، صرت اليوم حرة يا أمي من زواج كان كالقيد، لن أعود إليه، هل سمعتِ؟ لن أعود إليه، وإن أردتِ أن تتبرأي مني كما هددتِني صباحًا.. حسنًا افعلي الآن.

نُكِّست الرؤوس، وانعقدت الألسن، تقدمت من الأم إحدى صديقات ابنتها وأحاطتها بذراعها، تخرجها من البيت لتحميها من تبعات عاصفة لن تهدأ، أحاطت الصديقات بصاحبة التاج، تقطف إحداهن دمعاتها، وتسكب أخرى كلمات برَّاقات في أذنها:

- كل شيء سيكون أفضل في الغد.. لقد اتخذت القرار الصحيح.. «حواء» كوني قوية.

***

قال أحد الحكماء إن القرارات لا تُختبر صحتها إلا بعد أربع وعشرين ساعة، استيقظت «حواء» بذهن صافٍ وبال رائق مضى في أثرهما بسمة هادئة؛ فتأكدت أنها قبضت على زمام قرار صحيح. لا يزال الفراش الكبير يحمل آثار رجل اعتاد النوم فوقه حتى أول أمس، أزعجها ذلك، أرادت صباحًا خاليًا من الماضي؛ بارزت رائحة عطره بسلاح التجاهل.

لم تبد السماء هي نفسها، ولا الشمس ولا السحاب، حتى رائحة الهواء بدت مختلفة، وكأن الربيع كسا الكون فجأة.. لكن عيون الناس أيضًا كانت مختلفة، وكأنها تستكثر عليها هذا الربيع، تلاقت نظراتها بنظرات شفقة في عيني جارتها، أو لعلها سهام الشماتة، لا تعرف ولا تهتم بأن تعرف؛ أعرضت عنها تولي وجهها شطر السماء المزدانة بلون الشروق، الشمس تموت مساء، ثم تولد في اليوم التالي لتمنحنا آمالاً صغيرة، نولد معها من جديد. تركت الشرفة ثم غرفتها، حال البيت

على ما هو من فوضى؛ نتجت عن الساعات المجنونة التي قضتها برفقة صديقاتها ليلة أمس.

– «حفل طلاق»!

نطقت بها ثم ضحكت وهي ترسل شعرها من قيده، وتتوجه إلى الحمام لتترك للماء مهمة إنعاشها.

لا تحب اللون الأحمر، لكنها خرجت من الحمام وقد صبغت شعرها بالكامل بلون ناري، بدا كشعر كائن أسطوري أسكَره الماء فأخذ غفوة، تركت للمجفف الكهربائي مهمة إيقاظه.

قطعة كيك، وحلوى شرقية ملأت طبقًا متوسط الحجم، وزجاجة مياه غازية، كان هذا هو فطورها، أجهزت عليه لتبدل ثياب النوم بأخرى تصلح لمعركة اليوم، جيب واسعة سوداء يعلوها قميص أبيض، وحجاب هو مزيج من اللونين، قطعة شطرنج يلعب فريقان فوق أرضها، الفرح، والحزن.. ستحدد بنفسها اليوم الغالب والمغلوب. نظرت إلى نفسها في المرآة كمحارب يتمم على زيه وسلاحه قبل ملاقاة العدو.

قبل أن تخطو خطوة واحدة خارج البيت نزعت من بنصرها الأيسر قيدًا ذهبيًا يطوقه منذ ثلاثمائة وخمسة وستين يومًا، دسته في حقيبة يدها.. وخرجت للحرب.

تقول الأسطورة إن المرأة التي لا تحتاج إلى رجل، فَرض عليها أن تتحول إلى رجل، تصبح مُحصنة ضد الهجمات العاطفية، تنبذ من قاموسها المفردات الأنثوية، وتستعيض عنه بقانون النِدِّية!

بعد زواجها، لم يكن حصولها على عضوية جمعية «شوارب المرأة العربية» ليتم بسهولة لولا إيمان راسخ بالمساواة، جرى على قلبها ولسانها وهي تجيب على أسئلة استمارة التقديم للجمعية.

كان السؤال الأخير هو الأصعب، وغالبًا تُرفض مئات الطلبات بسبب إجاباته المنقوصة، أو المشوهة.

«ما رأيك في دعوتنا لأن تطلق المرأة شواربها، أو ترتدي واحدًا مستعارًا؟!»

الإجابات المضحكة، والساخرة، والساذجة، والسطحية.. تُستبعد، وحدها تُقبل الإجابات الاستثنائية، وكان جوابها كذلك.

تخلَّفت للمرة الأولى عن أحد اجتماعات الجمعية، وركبت سيارة أجرة إلى أرض المعركة، وصلت بيت والدتها الذي تقيم فيه بمفردها، احتفالها بالطلاق الذي تعده أمها «كارثة» بالتأكيد أيقظ بداخلها وحشًا عليها الآن مواجهته.

كانت حربًا ضروسًا، شنتها الأم ببراعة فائقة تثير الحسد، ثالوثها المقدس هو كلام الناس، والعيب، والطلاق أبغض الحلال.. لم ينجح أي ضلع في الثالوث في أن ينتقص من عزيمة «حواء»، كلام الناس لا يساوي ثمن نعالها، والعيب لا يخرج سوى من أهل العيب وهي ليست من أهله، أما الطلاق فمشروع حتى إن كرهه جميع أهل الأرض، أين المشكلة إذن؟

- ستقل فرصك في الزواج الثاني، ستضطرين إلى القبول بأي رجل يطرق بابك!

عن أي زواج ثانٍ تتحدث أمها! شبح الوحدة لا يثير مخاوف امرأة تحررت من قيدها للتو، وتنعم بأولى نسمات الحرية.

حتى هذا السلاح لم ينجح في هزيمتها، ظلت تبارز في صبر جندي يسكن الإيمان قلبه، ويلهج بالدعاء لسانه؛ فكيف يُهزم من اعتصم من الناس برب الناس؟

- لن أتزوج ثانية.

هُزم العدو وولى الدُبر، سكتت أمها مُرهَقة ومُرهِقة، غاضبة على ابنتها التي أفسدت حياتها بنفسها، سألتها أمها كمن يبحث عن ضوء في جوف الظلام ليهتدي به:

- ماذا حدث في المصعد؟

سكتت «حواء» عن الجواب، لأنه أبدًا لن يروق لأمها.. أبدًا.

أرض المعركة الثانية بدَت أكثر هدوءًا، لكنه هدوء يحمل الصواعق في أدباره، عليها تقديم استقالتها من عملها في مصنع جد طليقها، لا يصح أن تظل في عملها بعد الطلاق، حتى إن كان المصنع تعود أصوله إلى جد طليقها وليس إلى طليقها نفسه.

تخيفها مواجهة الجد «سُلطان» أكثر مما فعلت مواجهتها بأمها، للجد «سُلطان» مكانة خاصة في قلبها لم يصل إليها رجل قط، ترى فيه تجسيدًا لكل معاني الأبوة التي حُرمَت منها!

رجل قوي لا يخشى في الحق لومة لائم، يحمل في قلبه حنانًا يسبغه على كل العاملين بمصنع حفظ وتمليح الأسماك الذي يمتلكه، حنان مشروط لا يهديه إلا لمن استحقه، لذلك يحمل له الجميع في صدورهم مزيجًا عجيبًا من الحب والرهبة.

ما أصعب أن تقوم بكل هذه المواجهات في اليوم التالي للطلاق، لكنها أرادت أن تقطع كل صلة تربطها بحياتها السابقة، حياة انتهت بالأمس، واليوم تقف على أعتاب حياة جديدة خالية من القيود.

فكَّرت «حواء» أن انفصالها عن العمل لن يسبب أي مشكلة في سريان العمل داخل المصنع، بإمكان الجد «سُلطان» أن يحصل خلال ساعات قليلة على مدير لمكتبه بديل عنها، يحمل نفس مؤهلها، بكالوريوس خدمة اجتماعية، بل بإمكانه أن يحصل على الأفضل.

بالضبط كما أن خروجها من حياة «يونس» لن يُشكل أي مشكلة في سريان حياته، كان ينظر إليها كعقبة في طريقه، هو أسعد الناس الآن بإزاحتها عن حياته.

أرجأت مواجهة الجد، لم تملك القوة الكافية لتفعل، متعطشة إلى الدعم النفسي توجهت من فورها إلى نادي جمعية «شوارب المرأة العربية»، ما بين مندهشات لقدومها بعد حفل الطلاق بالأمس وما آل إليه، وقلقات عليها، استقبلنها صديقاتها بالترحاب.

- «حواء» ماذا فعلتِ مع أمكِ؟ كان حال المرأة مزريًا بالأمس.

- «حواء» إياكِ أن يكون إلحاحها بالعودة إليه قد أضعفكِ، كل الأمهات يفعلن ذلك لكن يصيبهن اليأس بعد حين.

- اتركنها لتأخذ أنفاسها.. «حواء» عليكِ أن تكوني قوية، سيحاول الجميع الضغط عليكِ بأساليب قذرة، وأولهم طليقكِ.

كانت هذه هي البذرة التي أنبتت في صدر «حواء» سخرية مريرة:

- «يونس»! لا أظن ذلك، هو سعيد بالتخلص من قيد زواجنا مثلما أنا سعيدة بالخلاص منه.

كان هذا كافيًا لتنفعل إحدى صديقاتها محتدة:

- دعيه، وليبتليه الله بامرأة تحيل حياته جحيمًا لا يبرد.

كان لقلب «حواء» رأي آخر، إذ انتفض لما لتلك الكلمات عليه من وقع لم تحبه.

لعلها كرهت «يونس» حينًا من الدهر، وغضبت منه أحايين أكثر، لكنها لم تتمن يومًا هلاكه، ثم لماذا تفكر فيه الآن! لقد أصبح رجلًا لا يملك شبرًا واحدًا في أرضها، لا فرق بينه وبين عابري سبيل يمرون بجوارها في الطرقات، أو يجلسون بجوارها في الحافلة، ومزَّقت هي كل صك ملكية كان يخصها في أرضه، لم يبق ما يجمعهما سوى الحدود الفاصلة بين الأرضين، وبعض الذكريات، وما أسهل تبخُّر الذكريات، بيدها ستحمل كل صورة، وكل كلمة وتخفيها في قلب الغمام، ولن تسمح أبدًا بسقوط المطر.

سينساها «يونس»، سيطويها كصفحة قديمة في كتاب، وسيسمح لأخرى بأن تُحبِّر صفحاته الناقصة، ستحتل الأخرى من قلبه ما لم تستطع جيوش قلبها احتلاله، لن يُخطئ في اسمها أبدًا، لن يزل قلبه ويدعوها «حواء»، لن تنتبه حواسه إذا تشمم عطرها يلتصق بأخرى، بل لربما سأله أحدهم عنها فيجيب: لا أتذكرها.

بدا انفعالها جليًا وهي ترتشف قهوتها الساخنة بحرارة أفكارها، الصديقات ما زلن يطوقن طاولتها، كل واحدة تدلي بدلوها، وما إن يفرغ حتى يذهبن إلى المكان الذي تتفجر فيه ينابيع الكلمات بغير حساب؛ لتعبئته ثانية.

- هل ستتركين البيت؟

انتبهت «حواء» من شرودها على هذا السؤال، فأجابت باقتضاب:

- بالطبع، البيت له.

كل تفصيلة في هذا البيت كان لذوقها دور فيه، حلمت أنه سيكون عشها الدافئ إلى الأبد، ما أسخف الأحلام، العِش سيظل دافئًا عندما يجد «يونس» وليفة أخرى، لكن هي لن تشعر بالدفء بعد الآن.

- وأين ستقيمين، هل تعودين للعيش مع أمكِ؟

سألت صديقة، وتطوعت أخرى بالإجابة وكأنها أدرى بـ «حواء» من نفسها:

- «حواء» لن ترتاح في العيش مع أمها، بعد الزواج اعتادت على أن تكون سيدة أمرها.

- لكن أمها تعيش بمفردها، فهي الأخرى مطلقة كما تعلمون، و....

رفعت «حواء» كفيها تقاطعهن، وقالت مُتعبة:

- كل شيء حدث بسرعة، وما زلتُ أحتاج وقتًا للتفكير، وحتى أصل إلى قرار يجب أن أترك بيتي اليوم وأقيم مع أمي.

هرب لفظ «بيتي» دون رقابة من شفتيها، فبدا غريبًا على أذنيها، أو لعلها أجبرتهما ليستشعرا غرابته.

في طلاق المرأة.. كسرها، وفي طلاق ابنتها انهيار الحياة بأسرها! هكذا فكَّرت أم «حواء».. أبلة «عفت» مُعلمة الأجيال، مديرة المدرسة التي تعد نفسها قدوة للجميع، فشلت في حماية زواجها، بل وزواج ابنتها كذلك، أي فضيحة تلك! ستصبح مضغة في الأفواه، إذا تقاربت الرؤوس في حضورها ستعرف أنهم يشمتون فيها، وإذا حادثتها إحداهن ستكون على ثقة من أنها تلمزها وابنتها بما تكره، سيصبح طلاق ابنتها وجبة دسمة فوق مائدة المُعلمات والطالبات في الممرات وزوايا الفصول، وجبة شهية يسيل لها لعاب كل مُغتاب.. وأبلة «عفت» قررت ألا تسمح بهذا أبدًا مهما كلفها ذلك!

الثمن لم يكن باهظًا، فقط خمسة آلاف جنيه، سحبتها من حسابها بالبنك ودستها في حقيبة يدها، ضمتها إلى صدرها بشدة وهي تقترب من بناية قديمة في

أحد الأحياء الشعبية، ثم تلج بابًا تعلوه لوحه مهترئة كُتب فوقها «نقرب البعيد».. استقبلها رجل بنظرات زائغة، وشعر أشعث، وجلباب متسخ، طلب منها عشرين جنيهًا؛ ففعلت بغير سؤال، ثم حثها على مرافقته في ممر طويل بين صفين من القطط السوداء والرمادية، بعضها فقد عينه، وبعضها تساقط عن جسدها الشعر في مواضع متفرقات.. رائحة كريهة لازمتها منذ أن دخلت البناية وحتى وصلت إلى الطابق الثاني منها.. لكنها ليست أسوأ من رائحة الشماتة وهي تفوح من أفواه من حولها. ما إن ولجت ردهة ضيقة حتى قابلها خمسة أبواب مغلقة يجلس أمام كل منها رجل شبيه بذاك الذي يرافقها، إلا أنهم أكثر حيطة واتزانًا.. دنت من أوسط الأبواب، تعلوه لوحة مكتوبة بخط يد رديء «رَد المُطلقة».. ثم طافت بعينها فوق باب يجاوره من اليمين كُتب فوقه «رَد الغائب»، ومن اليسار «تزويج العانس»؛ فمر بخاطرها حكاية فرَّاشة المدرسة والتي سبق لها المجيء إلى هذا المكان، فعاد زوجها المغترب إلى البيت خلال أسبوع واحد فحسب بعد أن فارقها لخمس سنوات، ثمَّ زوَّجت ابنتها التي تجاوزت الأربعين في أقل من شهرين، لولا أنها شهدت على الواقعة بنفسها ما جرؤت على مهاتفتها لتأخذ منها العنوان.

أنقدت حارس باب «رَد المطلقة» مائة جنيه كما طلب، ففتح في وجهها الباب.. ثم أغلقه بسرعة قبل أن يتسلل دخان المبخرة نفاذ الرائحة من الغرفة ويفر هاربًا!

ساعة إلا ثلثها وانفتح الباب مرة أخرى لتخرج من الغرفة مسرعة، نزلت الدرج ومنه إلى البوابة ثم الشارع.. وهناك علت شفتيها بسمة مطمئنة، خفَّت حمولة قلبها بمقدار النصف، وخفَّ وزن حقيبتها بمقدار خمسة آلاف ومائة وعشرين جنيهًا، لكنها فازت بالمقابل بوعد لا يزال صداه يتردد في أذنيها:

- عودي إلى بيتكِ وكوني مطمئنة، سأجمعهما خلال أيام قليلة، ولن تجسر أي قوة في الكون على التفريق بينهما مرة أخرى، لقد جئتِ إلى المكان الصحيح.

بقايا من ضمير يقظ ناشدها ألا تلقي بابنتها إلى التهلكة، لكن الجزء الذي يغط في سبات عميق تحرَّك ليسكته بقوله «اخرس أنت، إنما تفعل ذلك لصالحها، بضعة أيام وسيكون كل شيء على ما يرام، نَم الآن، وسأوقظك إذا ساء الحال!».

أجَّلت «حواء» الجولة الثانية بما يكفي، وعليها الآن خوض غمار المعركة.. إيماء سكرتيرة الجد «سُلطان» برأسها دون كلمة، جلسته خلف مكتبه دون نظرة، الحركة الرتيبة ليده وهي تطرق بعصاه التي يتوكأ عليها؛ فتصدر فوق الأرض أصوات نقرات تَتْرا؛ كل ذلك دلَّ على أنه كان في انتظارها. يعلم أنها تكِن له ما يكفي من الاحترام والتقدير لتودعه قبل مغادرة المصنع، ولشرح أسباب طلاقهما، رغم ثقتها أن حفيده «يونس» قد قام بهذه المهمة على وجهها الأكمل، وهل يرضى «يونس» بوجه غير الكمال؟!

جلست في المقعد أمام مكتبه، تشتهي معه وصلًا لا ينقطع بطلاقها، لم تملك طاقة كافية لتتحدث، وكأنها طفلة تتعلم الكلام للمرة الأولى، تستطيع أن تواجه الجميع وتملأ الدنيا صراخًا وهي تدق بقدميها أرضًا، لكنها لا تقوى على ذلك أمام الجد «سُلطان»، لا يربط بينهما قرابة دم، لكنه استطاع خلال عام كزوجة لحفيده، وعامين قبله كموظفة في مصنعه، أن يحتل جزءًا بارزًا من أرضها، ويرفع فوقه رايته، برغبتها ورغبته، وجدت فيه الأب الذي فقدته، ووجد فيها الابنة التي لم يحظ بها، فجمعهما الفقد.

استجمعت شتات شجاعتها لتقول:

- جدي، أعلم أنك غاضب، لكن هذا هو الأفضل لي وله، زواجنا كان خطأً فادحًا آن أوان إصلاحه.

لا يزال الجد يلتزم الصمت، لا يحرك عيناه سوى لينظر إلى ساعة الحائط، فتساءلت في نفسها ماذا ينتظر ليتكلم، بعد ثلاث دقائق من دخولها مكتبه عرفت بنفسها جواب سؤالها.

طرقات على الباب تحفظ وقعها؛ أنبأتها بهوية الطارق، تقهقرت شجاعتها، وتقدمت جيوش القلق.

فتح الطارق الباب وألقى السلام، رد الجد جهرًا، وأضمرت هي السلام سرًا، احتل «يونس» المقعد المواجه لها، يفصلهما في عُرف المسافات متران، لكن صوت أنفاسه خرق قانون المسافات، فبدا قريبًا منها، وتقدمت جيوش القلق أكثر.

دقَّ الجد بعصاه مرتين فوق الأرض، يفعل هذا غالبًا عندما يتصف ما سيقوله بالجدية، تفهم «حواء» الجد أكثر مما تفعل مع الرجل الجالس أمامها، والذي يفوح منه العطر نفسه الذي بارزته في فراشها هذا الصباح. تحدَّث الجد «سُلطان» وعندما يتحدَّث الجد يسكت الجميع:

- رُدَّها.

أشار الجد إلى حفيده، ثم إلى «حواء»، تطلع إليه كلاهما والصدمة تحتل مكانًا بارزًا من وجهيهما، كانا يتوقعان حديثًا ونقاشًا، بحدة أو بدونها، لكنهما لم يتوقعا منه أمرًا نافذًا كـ «رُدَّها».

الحرب تأتي دائمًا بأسوأ سيناريو، أيقنت «حواء» أنها لن تستطيع الصمود وحدها، تحتاج إلى حليف في الحرب، ومن المضحكات المبكيات أن الشخص الوحيد الذي يصلح لهذا الدور هو «يونس» نفسه! بكلمة منه ستعود إليه زوجة، بدون رغبتها، هكذا نَصَّ الدين والشرع ما دامت فترة عدتها لم تنقض؛ فالوَصل كلمة مرهونة برغبة الرجل. اغتاظت كثيرًا، وبحركات لا إرادية طعن كعب حذائها الأرض بعصبية.

الخوف قوّاد، لذا حاولت تبديده سريعًا؛ بأن رفعت وجهًا إلى «يونس» تستطلع خبره، ورفع هو إليها وجهًا يكتب قدره، قالت عيناها «إياك أن تفعل»، وقالت عيناه «إياكِ أن تظني أنني سأفعل»؛ فتراجع قلقها خطوة إلى الوراء.

هل يبدو مُتعبًا أم خُيِّل إليها؟! أين أمضى ليلته؟ وكأن الأرق كان رفيقه هذه الليلة، هل أحزنه فراقها؟ طردت هذه الأوهام من عقلها، فالسعادة كالحزن، كلاهما توأم ملتصق بالأرق!

قال «يونس»:

- اعذرني يا جدي، لا أحب مخالفة أوامرك، لكنني لا أريدها.

سحقًا له، وكأنه يراها تنحر الشوق على أعتابه، وتدعوه لقبول أضحيتها، يستطيع «يونس» أن يعذب إنسانًا ويشعر في الوقت نفسه بالرضا التام. بدَّدت «حواء» زهوه بنفسه صائحة:

- وأنا أيضًا لا أريدك.

لكن وجه «يونس» ظل على جموده، لم تؤثر فيه كلماتها التي قيلت بانفعال صارخ، طرق الجد بعصاه الأرض مرتين، واحتشد الغضب في صوته:

- أخبراني ما هي مشكلتكما الكبيرة التي تستوجب الطلاق؟

تولَّى «يونس» مهمة الرد بحزم يضع حدًا للنقاش:

- نحن لا نتفق يا جدي، لا يناسب أحدنا الآخر.

- لعب أطفال، أنتما لم تنضجا بعد!

كان هذا رأي الجد، ورغم أنهما في قرارة نفسيهما لا يوافقانه في الرأي، فإن أيًا منهما لم يصرح بذلك، فأضحى صمتهما علامة قبول «نعم، نحن أطفال، نتخذ من الزواج لُعبة حرب».

تجعَّد جبين الجد وألقى بالسؤال الذي يشغل عقل الجميع:

- ماذا حدث في المصعد؟

فتوارت عيونهما عن الجد هربًا!

حملها لمتعلقاتها من مكتبها بالشركة استعدادًا لمغادرته إلى الأبد، كان قاسيًا، أما لملمة أغراضها الشخصية من البيت فكان كفتح صندوق باندورا. تفجَّرت منه كل الطاقات السلبية، وظلَّ الأمل مقيدًا بالأصفاد.

رفضت أمها أن تعاونها، لربما ظنَّت أنها بهذا الرفض ستمارس عليها ضغطًا سيدفعها للعدول عن قرارها!

لم تطلب «حواء» المساعدة من زميلاتها بجمعية «شوارب المرأة العربية» رغم علمها أنهن لن يتأخرن عن تلبية حاجتها؛ أرادت أن تنفرد بنفسها داخل صندوق باندورا، للمرة الأخيرة.

مرَّت ذاكرتها فوق كل جُرح، وكل كلمة قاسية، فوق كل غضبة، وكل نظرة جافية. تمسَّكت بكل ذكرى وقيَّدتها بعقلها، تخشى أن تفلت منها وتنسل هاربة.

ثَمَّة دافع خفي يجعلها تُعذِّب نفسها باجترار هذه الذكريات المريرة، وكأنها تعاني من مازوخية من نوع خاص، تدفعها لإعادة شريط ذكرياتها السيئة بداخل عقلها مرة تلو الأخرى، وتتخيل في كل مرة أنها تعيشها للمرة الأولى. ليس هذا بطبع جديد، بل عادة قديمة لازمتها منذ فقدت أباها في عمر الثامنة، تعثر في جَلد روحها على لذة فريدة!

سمعت «حواء» عن نوع من الضفادع يُدعى «ضفدع الرعب» يقوم بكسر عظامه بنفسه حتى يستخدمها كأسلحة يدافع بها عن نفسه أوقات الخطر، دومًا ترى

نفسها كضفدع الرعب، تكسر من روحها، وطاقتها، وأحلامها، لتستخدمهم في مواجهة غريمها؛ لذلك لم يكن مستغربًا أن تقرر في اللحظة الأخيرة أن تترك كل شيء وراءها، تحررت من كل غرض يلتصق بذكرى تجمعها بـ «يونس»، لم تحمل معها وهي تفتح الباب وتغادر البيت للمرة الأخيرة سوى الألم فحسب، وهل تستطيع العيش بدونه؟!

قبل رحيلها أتت بكل شيء اشتراه لها، تعلم أنه ما اشتراه إلا بأمر من جده، أو بتحريض من أمها، كسَّرت ومزَّقت وهشَّمت، صنعت منهم تل ذكريات في منتصف الردهة، كانت انفعالاته مكبوتة عندما التقته في مكتب الجد «سُلطان»، تُرى هل سيظل محافظًا على اتزانه عندما يرى هدية الوداع الأخيرة؟ لقد آلمها اليوم بكلماته اللاذعة، فلماذا لا ترد له الصاع صاعين؟

«ما رأيك في دعوتنا لأن تطلق المرأة شواربها، أو ترتدي واحدًا مستعارًا؟»..
عثرت بين أغراضها على استمارة التقدم للجمعية تذيله إجابتها:

«الشوارب حِكر على الرجال! لا بد أن واضع هذا القانون رجل، وهذا سبب كافٍ للثورة ضده.. يطلق الرجل شاربه دون مساءلة جمالية أو أخلاقية، فلماذا لا يكون للمرأة نفس الأحقية، حتى إن استخدمت في ذلك شاربًا مستعارًا؟!»

{٣}

دسَّ «يونس» المفتاح في باب بيته الفارغ إلا من ظلام يربض متربصًا به، أغلق الباب من خلفه دون أن يهتم بإضاءة المصباح، بُحكم العادة، وعلى ضوء القمر المتسلل من نافذة لم تهتم «حواء» بإغلاقها؛ كان يعرف طريقه إلى مقعد وثير يستدبر به وجه القمر.

اصطدم بكومة من الأغراض في منتصف الردهة، توقف عندها يغالب غضبًا متصاعدًا، لم ينحن ليلتقط أشلاء هداياه، قذفها بقدمه اليمنى مرتين بكل قوته، فتناثرت لتصطدم بالأرض والسقف والجدران..

أراح جسده فوق المقعد الوثير، غالب خوفه من الظلام بأن تسلى بلعبة عقلية، ألقى بسنارة وهمية في قلب الظلام، وانتظر بصبر صياد ماهر، ساعة إلا بعض منها حتى علق الصيد في الخُطَّاف، نظر إلى نهاية الخيط فإذ به قد اصطاد «الخوف»، خوف من الوحدة لطالما انقض على روحه يسحقها، أتى بخوفه وشقَّه بسيف الغضب نصفين، ثم شق كل نصف إلى نصفين، وظلَّ يجهز بسيفه فوق كل قطعة من «الخوف» حتى تفتَّت وصار كالعجين، رسم فوق وجهه ابتسامة الظافر، إذ تاهت معالم صيده، وأصبح قلب الظلام فارغًا.

دنا من حوض مائي في أحد الأركان يحتضن سمكاته الاثنتى عشرة، بعدد أشهر زواجه المنحور، أضاء مصباحًا صغيرًا بقرب الحوض المائي، فقط ليكتشف أن سمكاته نقصت اثنتين، وليس أي اثنتين، محبوبتاه «شَغَف» و«شَجاعة»، تطفوان

ساكنتين عند السطح، تضعان البطن حيث يجب أن يكون الظهر؛ قفز تساؤل إلى رأسه، هل اختلف وضعهما في الحوض بسبب الموت، أم أن الموت كان عقابهما لأنهما غيرتا من وضعهما؟

هل ينتظره مصير مماثل لأنه غيَّر من وضعه؟!

حمل «شَغَف» و«شَجاعة» في باطن كفه، ملَّس فوق قشورهما بأصابعه، أخذهما إلى الحديقة الخلفية للبناية، حفر لهما مكانًا بجوار شجرة ضخمة اعتادت على أن تكون شاهدًا لقبور سمكاته، ثم تركهما هناك وحال التراب بينه وبينهما، عاد إلى بيته في الطابق العاشر بعدد سمكاته المتبقيات في الحوض.

اقترب من سمكاته ثانية، فتوهجت كشعلة نار تسبح في الحوض الزجاجي، «سمك النار»، وهل يرضى «يونس» بسواه سمكًا للزينة؟

تذكَّر شجاره مع «حواء» التي لم تكن تحب سمكاته، وهل أحبته لتحب سمكاته؟ تساءل في نفسه ساخرًا وهو خير من يعلم الجواب. لم تكن تحب الاعتناء بأسماكه، ولم تكن تحب أسماءها التي اختارها بنفسه، كانت تترك له مهمة إطعامها وتنظيف فضلاتها، حتى عاد من عمله ذات مساء بارد ليجدها جميعًا وقد نفقت داخل الحوض، متخذات نفس وضعية «شَغَف» و«شَجاعة»؛ فاغتاظ وتشاجر مع «حواء» يتهمها بقتل سمكاته؛ فثارت ثائرتها تتهمه بأنه يهتم بأسماكه أكثر منها، وفي اليوم التالي أحضر سمكات نار جديدة، لماذا هذا النوع بالذات؟ ربما لأن «حواء» أخبرته عشرات المرات أنها لا تحبه، يخيفها التوهج الناري لجسده.

احتشدت الذكريات من كل الأركان وانهالت عليه بثقلها، ضاق بها «يونس» وتقطَّعت أنفاسه؛ فخرج إلى الشرفة وطاف بها بغير هُدى، ودَّ لو ترك كل شيء خلفه وغادر «كفر الشيخ» إلى «بلطيم» حيث بحيرة «البُرُلُّس»، إلى المكان الوحيد الذي لا تتوحش فيه الوحدة، ولا تستأسِد عليه في الظلام.

هناك في بحيرة «البُرُلُّس» حيث مرت به كل ذكرى سعيدة أمضاها برفقة أبيه

شيخ الصيادين «صابر»، الرجل الذي كانت تمتلئ شباكه بالصيد الوفير حتى يتعجب الناس ويضربون كفًا بكف من أين يأتيه هذا الخير، تمامًا كما كان نبي الله زكريا يتعجب كلما دخل على العذراء محرابها؛ فيجد عندها من الخير ما لا يجده عند غيرها.

كان وحده يعلم سر الصيد الوفير، ما انقطع والده أثناء الصيد عن الاستغفار قط، لأعوام واظب على التصدق بربع صيده؛ ففُتحت له أبواب الرزق، تذللت بين يديه الصعاب.. صان «يونس» السر بقلبه كما يفعل المحَّار مع لآلئه، تلحَّف عباءته، وحمل شباكه ساريًا في دربه، كان له من حظ الصيد ما كان لأبيه؛ حتى ظن الناس أن لعائلة «أبو الرجال» كرامات اختصهم الله بها دون غيرهم من العالمين.

لا تبعث طفولته إليه سوى ذكريات جميلة، حتى السيئ منها بدا رمالًا تنسل كلما حاول الإمساك بها، على رأسها معايرة زملاء الدراسة له في سن الثانية عشرة، بوصف جسده بـ «بوصة الصيد»، لا لنحافته الشديدة فحسب، بل لطوله الفارع كذلك، كان يسير حاملًا سنارته فيرميه زملاؤه بالضحكات قائلين:

- هل هذا توأمك يا «يونس»؟

يترأسهم فتى يُقال له «حِنشان»، ابن أحد الصيادين في «بلطيم»، لم يجب يومًا عن السؤال السمج؛ وهم لم يكفوا ألسنتهم عنه، كانت الضحكات في البداية تحمل قدرًا من البهجة، ولما تكرر السؤال قرابة ألف مرة جعلت العادة من ضحكاتهم شيئًا لزجًا كمخاط الأخطبوط، ومع ذلك لم يتوقفوا عن توجيه السؤال له، ولم يمنحهم هو غير الصمت جوابًا، عملًا بنصيحة أبيه الشيخ «صابر»: «لا ترد السيئة بمثلها، دعهم وما يقولون، سينسونك يومًا ما»؛ فحاول كظم غيظه، ووأد غضبه.

حتى جاء الجد «سُلطان» في إحدى زياراته النادرة إلى ابنه وحفيده بمنزلهما قُرب البحيرة، وشهد هذا الموقف المذل، راقب بعين السخط ردة فعل «يونس»، ثم أوقفه بحزم في عرض الطريق هادرًا في وجهه كما البحر حين يفور:

- التجاهل ليس حلًا صائبًا مع أبناء الـ.....

«يونس» الذي غادر طفولته للتو ويتلمس أولى خطواته على عتبات البلوغ أحب كلمات جده حين استطرد:

- اضرب كبيرهم، يخشاك الجميع.

بتردد كبير قال «يونس»:

- لكن يا جدي «حِنشان» أقوى مني كثيرًا، سيقتلني ضربًا.

دفعه جده في كتفه بقوة رجت جسده الهزيل هاتفًا:

- كن رجلًا قاسيًا حين تدفعك الحياة صوب اختبارات القوة، ورجلًا لينًا حين تدفعك صوب اختبارات المروءة.. أن تُضرب وتسيل دماؤك في الطرقات خير لك من رأس منكس ذليل يتجرأ عليه كلاب الطرقات!

ليلتان متتاليتان ظل «يونس» يُقلب كلمات جده في رأسه، تارة يميل إلى نصيحة أبيه الأزلية بالحُلم وقت الغضب، وتارة تسبب مشاعر المذلة فوران الدماء في عروقه وهو يرسم في رأسه مشهدًا تفصيليًا لصراعه مع قائد الفتيان.

في اليوم التالي ارتوى التراب بدفقات من دماء «يونس»، وعاد بعشر كدمات، لكن الفخر تربع عرش عينيه وهو يتبادل مع جده سرًا نظرات مفهومة، بينما جنَّ والده وهو لا يكاد يصدق ما فعله «يونس»، في اليوم التالي وامتثالًا لنصيحة الجد بادر «يونس» الفتى بالضرب، وتعرض أيضًا هو للضرب، وفي اليوم الثالث تكرر بدء «يونس» للعراك. استمر الأمر لأسبوع كامل، كلما مر «حِنشان» قفز «يونس» نحوه كالفهد، وغرس بلحمه أسنانه كسمكة قرش، حتى بات الفتى المتباهي بقوته يشعر بانزعاج بالغ، أمسى «يونس» كالعلقة لا يعرف الفتى أي موضع من جسده ستبتدئ الهجوم وتلتصق به، وفي أي وقت ستفعل، وكم ستمتص من دمائه حتى يتمكن من نزعها عن جسده.

أصبح الفتى يتجنب الطرقات التي يسير فيها «يونس»، وإذا رآه تخفَّى وسلك مسلكًا آخر، انزعج أصدقاء الفتى وقد خاف كل واحد منهم أن تترك العلقة جسد قائدهم لتتشبَّث بأجسادهم؛ فباتوا هم أيضًا يتجنبون ملاقاة «يونس» في الطرقات.

عندها فقط شعر «يونس» أنه بلغ مبلغ الرجال، صدق جده، التجاهل في حالته لم يكن حلًا مطروحًا للنقاش.

حين انكشف المستور ألقى أبوه باللوم على الجد، فتلقى لومه بعاصفة غضب قائلًا:

- تُخطئ في تربية هذا الولد.

- أربيه على تجاهل الأذى وكتمان الألم، أن يكون مسالمًا، أربيه على الابتعاد عن الأوغاد وليس مصارعتهم في الطرقات.

فرد الجد ساخرًا:

- إذن تُربي أنثى لا ذكرًا!

احتد النقاش أكثر، حتى غادر الجد بيت ابنه مقسمًا بأغلظ الأيمان ألا يأتي إلى هذا المكان أبدًا.. وظلت القطيعة بينهما لسنوات حتى مات شيخ الصيادين «صابر»، عندما كان «يونس» في الثامنة عشرة.

لم يعد «يونس» قادرًا على احتمال الظلام، أضاء مصابيح الشقة كلها، لم يخش الظلام في ليالٍ غاب قمرها وهو يبحر بقارب صغير وسط بحيرة بُرُلُّس، لكنه يهابه إذا سكن جدرانًا أربعة. ثماني سنوات منذ مات أبوه ابتعد فيها عن مياه البحيرة، لم يستطع قط الاقتراب منها.

شعر خلالها وكأن حوت نبي الله يونس قد ابتلعه في جوفه، حيث الظلام ولا شيء سواه، كان يخاف كثيرًا في السنة الأولى، يخاف من كل شيء جديد لم يعتده، حياته الجديدة في العمل في مصنع جده «سُلطان» بعد إلحاح كثير من الرجل العجوز، أصابه الزمن بحزمة من الأمراض انهالت عليه في وقت واحد كهدية في يوم ميلاده الثمانين.

تغيير نظامه، مأكله، ملبسه، موضع نومه، كان كل ذلك مبعثًا لمخاوف «يونس» من معقلها، رجل يحب النظام ويكره التغيير كان يرى في الانتقال من بُرُلُّس إلى قلب المحافظة ضربًا من ضروب التعذيب، لولا إصرار الجد واحتياجه له، لما فعلها قط.

هجْر البحيرة وبيته البسيط قليل الأثاث والأغراض كان يعذبه، لكن مبعث أمانه هو أنه بات قريبًا من جده الذي يحبه، بفيض حنانه الذي يشبه ماء البحيرة في سخائه، وقوته التي تشبه الموج في إصراره، قد لا يستطيع أن يؤثر في صخرة في الحال، إلا أن ضرباته المتتابعة تُحدث فيها ما يُريده من أثر. المثابرة وسياسة النفس الطويل هي أكثر ما يثير إعجابه في جده «سُلطان»، ربما لذلك يتفقان كثيرًا، إذ يتحلى الجد بصفات الصياد حتى إن لم يصطد في حياته سمكة واحدة بيديه. سرق الموتُ أمه منه بعد ولادته مباشرة، ثم أباه منذ ثماني سنوات، ولم يبق له على ظهر الأرض سوى الجد «سُلطان».

ورغم أن الجد الذي كان يعيش طوال حياته في «كفر الشيخ» لم يستطع أن يحل في قلبه محل أبيه الشيخ «صابر»، ولم يستطع أن يردم بداخله بئر الحنين إلى بحيرة بُرُلُّس؛ فلم يترك له «يونس» دفة قيادة حياته، ولم يمنحه صفة الربَّان، فإن ما بينهما من حب واحترام كان كافيًا ليتشاركا العمل، بعدما خسر الجد وشريكه جُل رأس المال عندما تعرضا للنصب على يد محامي المصنع، إذ جعلهما يوقعان عقدًا فاسدًا استنزف رأس مالهما من حيث لا يحتسبان، غادر الشريك «كفر الشيخ» إلى غير رجعة عائدًا إلى مسقط رأسه، وبدأ الجد المثابر مرة أخرى من

الصفر بمصنع صغير، لم يؤسسه بالمال بل بسمعته الطيبة في السوق، واستدعى «يونس» بعد موت أبيه ليشاركه بجهده وعلاقات طيبة جمعته بالصيادين في بُرُلُّس، فاستحال المصنع الصغير إلى آخر أكبر، بلغ صيته إلى العاصمة نفسها، فأضحت عملية النصب التي تعرض لها بابًا لرزق لا قبل له به.

❦❦❦

«يونس» ككائن الإسفنج، يمتص من البحيرة خيراتها، إلا أن الأرض الصلبة التي أتى إليها لم تروِ للإسفنجة ظمأ، ولم تمنحها ما تستطيع أن تهبه للآخرين؛ فتعطلت وظائف «يونس» عن العمل، اعتاد على هذا العطل، ولم يسع قط إلى إصلاحه. نشأ حاجز بينه وبين الآخرين يمنعه من أن يهبهم أي شيء، وكأنه دفن جزءًا جوهريًا من إنسانيته في أعمق بقعة من بحيرة بُرُلُّس.

أجبرته الحياة على أن يتقن صيدًا من نوع آخر، من أسماك البحيرة إلى صيد الصفقات، والعقود، والأعمال التي تزيد من نجاحات المصنع، وأخيرًا اصطاد عروسًا يبني معها بيتًا ويعمره، في الحقيقة سهَّل الجد مهمة الصيد، إذ إنه اختارها له بنفسه من بين كل موظفات مصنعه، ولم يكن على «يونس» سوى أن يتوجه نحوها ويرمي بالطُعم، وعد بمستقبل مشرق يجمعهما كان طُعمًا كافيًا لاصطياد آلاف الفتيات.. تزوج «يونس» لأن الزواج محطة على طريق قطار الحياة، يجب أن يمر بها.

برَّ «يونس» بنصف وعده وبنى مع عروسه مستقبلًا، وحنث بالنصف الآخر إذ لم يكن مشرقًا كما تأمَّل؛ اكتشف أن ما اصطاده لم يكن سوى سمكة سامة تحمل له سمًا زُعافًا في جسدها.

شكر المصعد، فلولاه لظلَّ حتى الآن عبدًا لسُلطان هذا السم.

❦❦❦

تلك لم تكن المرة الأولى التي يعود فيها إلى بيته ليجد رسالة مدسوسة أسفل بابه تحوي تهديدًا شديد اللهجة، بل المرة السابعة، لليوم السابع على التوالي!

وليجمع «يونس» شتات أفكاره أعدَّ فنجانًا من القهوة، وتوجه إلى المذياع القديم بعمر يفوق عمره، والقابع في أحد أركان غرفة المعيشة، صحبه إلى الشرفة، فتنزلت آي القرآن بصوت «الحُصَري» على قلبه بَردًا وسلامًا.

قهوته الخالية من السكر مخدرات حلال تنتشي بها حواسه، وصوت «الحُصَري» يموج بوجدانه، تمامًا كما كان يفعل في وسط بحيرة بُرُلُّس، ينسل صوته ماءً زلالًا من مذياع أبيه القديم الذي ورثه أبًا عن جَد، مع فارق استبدال القهوة بشاي كان يعده أبوه شيخ الصيادين «صابر» في البيت، فيحمله معه، وتدور الأكواب بينهما حتى نفاد آخر قطرة منه. منذ أن مات أبوه وضع الشاي في قائمة المحرمات، عافته نفسه، واستبدله بمشروب أكثر مرارة.

صوت «الحُصَري» حاضر لكن حنان أبيه غائب، جده حاضر لكن رائحة بُرُلُّس غائبة، سمكاته حاضرة لكن أنفاس أمه غائبة، لا تمنحه الدنيا أبدًا سعادة كاملة، اعتاد منها الخذلان؛ فقبل أن تهبه شيئًا تنتزع آخر من بين يديه، قبل أن يذوق قربًا تُطعمه بُعدًا، وحدها «حواء» غيابها كحضورها، كلاهما يستنزف صبره، ويخرب نظامه.

لم يسكنه الشوق إليها، لكن الفراغ الذي تركته برحيلها قاتل، تجويف كبير في منتصف عالمه يقلق نهاره ويؤرق ليله. اعتاد على وجودها في البيت والمصنع، حديثها، ضحكتها، شجارها، عنادها.. اعتاد على أشياء ركبت قطارًا يسير في اتجاه واحد فحسب، وتركت له فراغًا كبيرًا كهدية وداع سخيفة. عليه أن يبني نظام حياته من جديد، بدون «حواء»، مثلما فعلها بعد موت أبيه، «حواء» لم تمت، لكنه منحها حُكم الأموات.

ثلاثة أيام تمر على طلاقها اختنقت فيهم بين جدران أربعة، فتشاجرت مع أمها من أجل الخروج لساعتين لحضور ندوة بالجمعية، ما إن غادرت «حواء» بيت أمها شاردة الذهن، حتى أوقفها شاب تراه للمرة الأولى، ظنَّت أنه تائه يحتاج لمن يرشده إلى الطريق، فالتفتت إليه في تململ ظاهر، إلا أن الشاب فاجأها بقوله:

– سيدة «حواء» أتسمحين لي بالتحدث معكِ قليلًا؟

لم تخفِ دهشتها، دار بخلدها «يونس» وضيقه من تحدثها الودي إلى الرجال، خاصة إن كان لا يعرفهم، وكان يكره عملها بالمصنع، رغم أنه في الوقت ذاته مكان عمله؛ فراودتها أمنية خبيثة، أن تنشق الأرض الآن عن «يونس»؛ فيراها تحادث هذا الشاب، لتصيب من ضيقه بعضًا.

– سيدة «حواء» سأتحدث إليكِ بصراحة، أعلم بطلاقك من «يونس أبو الرجال» حفيد «سُلطان أبو الرجال».. فإن أردتِ الانتقام من طليقك أو من جده أو من كليهما معًا فاسمحي لي أن أعرض عليكِ هذا العرض الذي لا يُرَد.

تناست «حواء» أمنيتها الساذجة بالكامل، والتفتت بكل جوارحها تترقب كلمات الرجل في دهشة لا تخلو من الغضب، استطرد قائلًا بمكر:

– ملف صغير في مكتب «سُلطان أبو الرجال» بالمصنع، أظن أنه مُخوَّل لكِ سلطة الاطلاع عليه، نحتاج هذا الملف بشدة، وقبل أن تسألي من نحن فيكفي أن أقول لكِ أننا أحد منافسي مصنع «سُلطان أبو الرجال»، وقد تضررنا كثيرًا بسبب احتكاره لسوق حفظ وتمليح الأسماك.

شعرت بجمرات الغضب تشتعل بداخلها، كيف يجرؤ هذا الوقح على أن يطلب منها خيانة الأمانة، وما كادت تفتح فمها للحديث حتى أسكتها بإشارة من يده، ويقول سريعًا ليتفادى رفضها:

- لم تسمعي عرضي كاملًا. مائة ألف جنيه نقدًا مقابل إحضارك الملف الصغير، وبهذا تكونين قد ضربت عدة عصافير بحجر واحد لا يكلفك شيئًا.

أنهى كلماته بابتسامة ثقة، مزّقتها «حواء» فوق شفتيه وهي تصرخ في الرجل حتى تفرّج عليهما المارة. الإهانة التي تضمنها عرضه البغيض كانت كافية لتشعل فتيل غضبها بجنون.. غادرها الشاب بعدما دفعه بعض المارة بعيدًا عنها.. وقبل أن يبتعد كثيرًا التفت ينظر إليها، وقال كلمة واحدة نفث فيها سمه، وجعلت قلبها يرتجف خوفًا:

- ستندمين.

لم تغضبها كلمته فحسب، بل استبد الخوف بقلبها عندما استطرد الرجل قبل أن يتوارى عن ناظريها:

- ستثبت لكِ الأيام القادمة أن هذا العرض غير قابل للرفض!

لأسباب مجهولة لها ظلت هذه العبارة تتردد كثيرًا بداخل رأسها، وكأنه ملف صوتي سخّرت عقلها لإعادة تشغيله، حتى إنها لم تنتبه لسؤال سائق السيارة الأجرة عن وجهتها إلا بعد أن كرره مرتين.

أثناء ترجلها من السيارة دست يدها في حقيبتها نصف المفتوحة لتخرج المال، اصطدم كفها ببطاقة تعريف شخصية، لم تضعها بنفسها في الحقيبة، اشتعل غضبها يزاحم الخوف في صدرها، دسّ الرجل البطاقة بحقيبتها دون علمها.. يا له من وقح!

لكن الغضب تقهقر للوراء، وتقدم الخوف ليعلن انتصاره الساحق، فالبطاقة لم تحوِ على ما يُدون فوق البطاقات عادة من اسم شخص أو شركة، مزيلة برقم وعنوان.. بل اقتصرت على شيء واحد فحسب، شيء عجيب.. رسم كاريكاتيري لرأس تمساح!

أمسك «يونس» بالخطابات السبعة، وقرأ كل واحد منهم بتمهُّل عله يصل في القراءة الثانية لما فشل في أن يصل إليه في الأولى. لكن لا شيء أكثر من تهديدات وعقوبات إن لم يتعاون مع صاحب الرسالة ويتراجع عن توقيع عقد هام مع شركة أوروبية سيدفع بمصنع جده لأن يكون الأول في سوق تصدير الأسماك المملحة بكفر الشيخ.

لم تكن المرة الأولى التي يتلقى فيها «يونس» تهديدًا من أحد المنافسين، لكنها المرة الأولى التي يتم فيها ذلك بكلمات مباشرة، وعن طريق خطابات مدسوسة أسفل باب بيته، ويجهل تمامًا هوية الفاعل.

ما جعل القلق بداخله يبلغ مبلغًا خطيرًا أنه عاد في تلك الليلة ليجد جدار غرفة المعيشة ملطخًا بلون أحمر، كلمات لم يستطع قراءتها جيدًا، حروف عربية لكنها بلا معنى، لم يستطع تفسيرها!

لا يحمل نسخة من مفتاح شقته سوى «حواء» فحسب، لا أحد سواها يستطيع الدخول إلى البيت بدون كسر بابه، الباب سليم، والنوافذ موصدة.. إذن وحدها «حواء» هي المدانة.. لسبعة أيام متتابعة منذ أن طلقها وهو يتلقى هذه الرسائل، والآن هذه الكتابة الجدارية الدامية.. إن كانت «حواء»، فما هو غرضها؟!

وقف طويلًا يتأمل الكلمات غير المفهومة.

«بر إي لق»!

{٤}

قد نجد الجواب عن أسئلتنا بطرق لا نتوقعها، فحينما سألت «حواء» نفسها بعد مرور أسبوع على طلاقها «ما هي خطوتكِ التالية؟»، لم تتوقع أن تحصل في مساء اليوم نفسه على رد عجيب لم يطرق عقلها يومًا.

سهرت «حواء» لياليها السبع ترافقها كلمات «ألف ليلة وليلة»، كتابها الوحيد الذي تداعت صفحاته من كثرة الاحتكاك بها، على ضخامته يروق لها حمله كاملًا بين ذراعيها، متجاهلة إمكانية اقتناء نسخة مقسمة إلى أربعة كُتب يسهل حملها، كان هذا الكتاب ملكًا لأبيها، لم يهتم بأخذه معه وقت الرحيل، لم تحتفظ به حبًا في أبيها، بل بُغضًا له! لم يترك لها ذكرى واحدة طيبة تجترها في الليالي القاسيات؛ فاقتنصت منه رغمًا عنه شيئًا واحدًا تحبه وتتعلق به، تحمله معها كزاد الطريق.

غلبها النعاس بينما الكتاب يستكين فوق صدرها، استيقظت في الصباح لتمر بيوم عصيب، أمها التي لا تكف عن وصفها بـ «المطلقة»، كسُبة أحيانًا، وأحايين أخرى كنعت لازم لا يجوز أن ينفصل عن المنعوت به. أصبح باب البيت محرمًا عليها، فالمطلقة تستحيل منذ اللحظة الأولى غنمة شاردة يسهل وقوعها فريسة في فم ذئب هائج يجول الطرقات، وكأنها تتحول إلى أنثى فقط بعد طلاقها، أما قبل ذلك فهي كائن هلامي لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء!

وإن لم تقع فريسة في فم أحدهم، فإن ألسن المجتمع تطالها في جوف بيتها، حتى ولو أغلقت على نفسها ألف باب، هذا رأي أمها أبلة «عِفَّت»، ومن هي لتناطح

آراء أبلة «عِفَّت»؛ مديرة المدرسة الثانوية للبنات في «كفر الشيخ»، تخشاها المعلمات قبل الطالبات، أبلة «عفت» التي لا يصمد في وجهها أي اعتراض، والتي أخذت على عاتقها منذ طلاقها مهمة حماية ابنتها من الذئاب والكلاب والضباع وكل الحيوانات التي تعيش من حولهما.

تعلمت «حواء» خلال عيشها في كنف أمها متى يكون الصمت حلًا سِلميًا ناجعًا للحصول على هدنة، وسط معركة طاحنة لا تقوى فيها على الصمود في وجه العدو. كان على «ضفدع الرعب» أن يمزق قطعة أخرى من جسده ليحارب بها المجتمع والناس.

***

هبَّت رياح المساء حاملة فوق بساطها الجد «سُلطان»، كانت «حواء» لتفرح بنفحات الليل لولا أن الجد لم يأتِ وحده، ضمَّت غرفة الصالون «يونس» كذلك. فتساءلت «هل هذه هي الصواعق التي تأخرت؟».. وكانت محقة.

جلست أمها في المقعد المواجه لـ«يونس» وكل منهما لا ينظر إلى الآخر وكأنه هواء. «يونس» لم يكن بالنسبة لها مجرد هواء، حاولت أن تحسبه كذلك لكنها مدفوعة بفضولها نظرت إلى وجهه تستطلع منه الأخبار، لم ينظر «يونس» نحوها لكن الضيق لازمه، تعرف تجعد جبينه وزم شفتيه عندما يصير أمر لا يعجبه، فبدا لها ذلك نذيرًا بالخطر.

وأخيرًا تحدَّث الجد «سُلطان» ليروي فضولها وفضول أبلة «عِفَّت»، دخل في صلب الموضوع مباشرة، وألقى سهمًا أصاب هدفًا:

- بما أن الطلاق لا رجعة فيه، إذن فلن أقبل إلا بطلاق صحيح يُرضي أبناء الأصول.

قال مقاله ثم سكت، فسكت معه كل شيء، إلا ضربات قلب «حواء» المتلهفة لمعرفة مقصده، وقول أبلة «عِفَّت» في حيرة:

– ما معنى ذلك؟

طرق بعصاه مرتين متتابعتين ثم أخذ نفسًا عميقًا حتى ظنت «حواء» أن رئتيه انتفختا بالهواء لأقصى درجة، ثم قال:

– ستمضي «حواء» فترة العدة في بيت الزوجية، ولن أرضى بغير ذلك بديلًا.

هنيئًا لكِ يا «حواء»، حصلتِ على جواب سؤالك الصباحي «ما هي الخطوة التالية؟».. لكن للأسف كانت هذه الإجابة هي آخر ما رغبتِ في سماعه.

ارتحلت نظرات «حواء» المتعجبة من وجه الجد إلى وجه حفيده، ومن وجه حفيده إلى وجه أمها، لا بد أنه خاض مع حفيده هذا النقاش قبل القدوم إلى منزل أمها، قرأت ما نطق به وجه «يونس» من امتعاض للفكرة التي سببت له ضيقًا في التنفس، كما هو الحال معها. أما أبلة «عِفَّت» فلم يبدُ عليها أي ردة فعل.

سألت «حواء» الجد بانفعال:

– كيف يا جدي تريدني أن أعيش مع «يونس» بمفردي بعد طلاقنا؟!

– هذا هو شرع الله يا ابنتي.

كان رده أبويًا، يسع كل ما تعنيه الأبوة من دفء وحزم، حنان وشدة، كل منهم في موضعه الصحيح. اعترضت «حواء» كمحارب عنيد لا يهاب سوى الهزيمة:

– الناس لا تفعل ذلك يا جدي.

– ليس معنى اجتماع الناس على شيء أنه صحيح، وليس معنى عزوفهم عنه أنه خطأ. الفيصل بيني وبينهم هو الحق ولا شيء سواه، أدور معه أينما دار، المطلقة الرجعية تلزم بيت الزوجية حتى انتهاء عدتها، لا تخرج منه

إلا إذا أتت فاحشة مبينة.. يقول الله عز وجل في بداية سورة الطلاق ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾[1].

قاطعته «حواء» وهي التي لم تجرؤ على فعلها يومًا:

- وماذا إن كان يضربني أو يؤذيني أو...

قاطعها الجد كذلك، إذ تحوَّل السجال بينهما إلى لعبة شطرنج، ينتظر المتفرجون بلهفة معرفة لمن ستكون الغَلَبة اليوم:

- وهل يضربكِ «يونس»؟ هل يؤذيكِ؟ إن كان يفعل أخبريني وأنا أسلط عليه عصاي الآن أمام الجميع، دون أي اعتبار لسنه ومكانته.

تصديقًا على كلماته الحازمة أمسك عصاه من منتصفها، حلَّ التوتر ضيفًا غير مرحب به، يتوسط المجلس ويثب متشبثًا بأطراف الحديث، ألقت «حواء» نظرة على وجه «يونس» الذي ينضح بانفعال مكتوم، وأمها التي ظلت تراقب ما يحدث في صمت، وإن انتبهت «حواء» إلى نظرة استمتاع لا تخفى عليها، استمتاع خبيث تتلذذ به أبلة «عِفَّت» عندما تسير الحياة في الاتجاه الذي تريد. أنكرت «حواء» بصدق:

- كلا، لم يفعل يا جدي.

- إذن انتهى الأمر، جهزي أغراضك.

كرهت «حواء» أن تنهزم بسهولة، أذعن الجميع وكانت الوحيدة التي تناطح الصخر برأسها، تنفعل ويعلو صوتها للمرة الأولى فوق صوت الجد، اعترضت على الحُكم الشرعي، ثم هذيت بكلام كثير لم تستطع تذكره وهي تعيد المشهد في رأسها بينما ترتدي ملابسها، وترتب أغراضها الجديدة في حقيبة صغيرة، لم يتفتت

(١) سورة الطلاق آية (١).

الصخر أمام غضبها، ولم يكن الجد هو الفائز الوحيد، شاركته أمها في نصب راية النصر.

ما زال «يونس» يحكم قيوده حولها، حتى الشرع يدير لها ظهره ويقف في صفه، لماذا عليها أن تكون دومًا في هذه المكانة الدونية؟

لم تنتبه «حواء» إلى بريق نبت في عيني أبلة «عفت»، سقته الأحداث المتسارعة حتى كبر وتوهَّج، وما إن غادر الجميع وبقيت وحدها بالبيت حتى أمسكت هاتفها تبحث عن رقم فرَّاشة المدرسة، أتاها صوتها فبادرتها تقول بلهفة:

- كنتِ محقة، هذا الرجل داهية!

ضحكت الفرَّاشة على الطرف الآخر تقول:

- ألم أقل لكِ يا سِت المديرة.. انتظري، لم تري كل مواهبه بعد.. ابنتكِ فرس جامح لن يروِّضه إلا السِحر!

لم تظن قط أن البيت الذي ودَّعته منذ أسبوع ستخطه قدماها مرة أخرى جنبًا إلى جنب عدوها، ستعيش معه بمفردها حتى انتهاء عدتها، ثلاث حيضات متتابعات تمر بهن وهي تعيش وجهًا لوجه مع رجل لا تريده ولا يريدها، كيف ستتحمل ذلك؟

كيف تحافظ على الحدود الفاصلة بين أرضها وأرضه حتى انتهاء العدة؟

انغلق باب البيت خلفهما يسد أمامها سُبُل الهرب، رجل لا يؤمن بالحب، وامرأة لا تؤمن بالزواج. كرهت «حواء» وجوده كما يكره أي مالِك تعدي الآخرين على أرضه، وكره «يونس» وجودها كما تكره الأسماك تكدير مائها، تمنى كل منهما لو يختفي الآخر من البيت الآن وللأبد. تكلم «يونس» بعد مباراة صامتة تباريا خلالها بالنظرات:

- كما هو واضح للعيان، لا شيء في أيدينا لنفعله، نحن أمام أمر واقع لذلك فلنضع بعض الشروط والقوانين.

لم تستطع «حواء» أن تمنع بسمة ساخرة قفزت سريعًا إلى ثغرها، وهل يعرف «يونس» سوى الشروط والقوانين، خرجت من رحم أبلة «عِفَّت» وقوانينها الصارمة، لتسقط بين يدي «يونس» وقوانينه الوجودية، وكأن خرق أي قانون في دستوره يسلبه قطعة من روحه. عليه هذه المرة أن يعي أنها لم تعد مضطرة لأن تلعب دور شعب كسيح يُلبِّي أوامر طاغية، عبَّأت رئتيها بالهواء، ووقفت منتصبة القامة تبادره:

- بل يجب عليك أنت أن تسمع شروطي وقوانيني، في الواقع هو قانون واحد يلخص كل ما أريد قوله..

دنت منه خطوة، ورفعت رأسها لتعالج المسافة بين عيونهما، ألقمت عينيه نظرة قاسية وهي تستطرد ببطء استفزه:

- أنا.. لستُ.. زوجتك.

قالتها متلذذة، وكأنها مررت كلماتها عبر جهاز تقطيع للصوت، فتمكنت أذنا «يونس» من تحليل كل حرف بشكل دقيق. دارت على أعقابها لتغادره، وبسمة ثقة تعلو ثغرها، بددها «يونس» على الفور إذ أمسك برسغها، وأدارها ثانية لتواجهه، المعركة لا تنتهي إلا حينما يفرغ الفريقان ما بجعبتهما من حيل دفاعية، ألقم عينيها نفس النظرة القاسية، وأضاف إليها بردًا بدد أشلاء دفء كان لا يزال ينازع سكراته الأخيرة، ثم قال:

- ولن تكوني أبدًا.

بهذه الكلمات القليلة عرَّف كل منهما الآخر الخط الأحمر الذي لا يجب أن يتجاوزه، تجهَّزت «حواء» للنوم في غرفة كانا قد أعداها لطفل زار حلمهما يومًا، وتجهَّز «يونس» للنوم في غرفة لم يزرها الحب يومًا.

أحس بجفاف حلقه وكأنه هام على وجهه في الصحراء لألف يوم، فأصابه منها الحرارة والتوهان، توجَّه إلى المطبخ ليبدد الحرارة، إلا أن التوهان استقر بقلبه قبل رأسه.

اندست «حواء» في الفراش، يصاحبها كتاب «ألف ليلة وليلة».. تركت «شهرزاد» تنقلها من غرب البلاد إلى شرقها، ومن الشمال إلى أقصى جنوبها.. حتى أفزعتها رعدة أصابت النافذة؛ فانغلقت بقوة عاتية.. قفز قلب «حواء» يناشدها أن تلجأ لرجل البيت، لكنها قذفته بحجر أخرسه.. دَنَت من النافذة تحكم إغلاقها وتسدل أمامها الستائر الداكنة.. على ضوء المصباح المجاور لفراشها رأت انعكاسًا لرأس تمساح فوق الجدار، تجمدت الدماء في أطرافها، أوشكت على إطلاق صرخة ما جرؤ كائن بدائي على إطلاقها.. لولا أن التفتت إلى موضع الظل لتجد أن الستائر المنسدلة قطعت طريق الضوء لتحيك فوق الجدار رأسًا وهميًا؛ فعاد قلبها إلى ضخ الدماء بانتظام في أطرافها.

سمعت خطوات «يونس» تتجه صوب المطبخ، فوقفت أمام المرآة تنظر بخبث إلى شعرها الناري، ثم تفتح باب الغرفة وتسير فوق خطواته، تقف على أعتاب المطبخ، تتمنى أن تصيب منه مواضع غضبه. تجمَّد «يونس»، استقرت نظراته فوق شعر غجري ثائر اصطبغ بأكثر الألوان بغضًا له.. «يونس» لا يحب اللون الأحمر.

فصل الشتاء

{1}

استيقظت «حواء» تظن أنها نامت طوال الليل فوق فراش طفل لن يأتي أبدًا، استيقظت والصدمة تحتل كل خلية من جسدها وتهدد عقلها بالجنون، استيقظت لتجد نفسها نائمة فوق الصخر، في مكان بدا لها مثل كهف بدائي!

ظنته في البداية حلمًا؛ لأنه الوسيلة الوحيدة القادرة على اختراق حواجز الزمان والمكان، بل كابوسًا بشعًا ستصحو منه بعد قليل، كل الكوابيس العاقلة تنتهي في لحظة ما، ولا بد لهذا الكابوس أن ينتهي أيضًا، فما عملها في كهف مهجور لا يحوي سوى بصيص من نور؟!

الكابوس لم ينتهِ، وعيها يقظ وكأنها في الحياة الواقعية، لا داخل حلم نسجه عقلها الباطن في غفلة منها. لا تنتهي الكوابيس عندما يرغب في ذلك أصحابها، بل عندما تصل بهم إلى نقطة يبلغ فيها الخوف ذروته، وقلبها الذي يدق بعنف طبول الحرب يشي بأنها بلغت الذروة منذ دقيقة ويزيد؛ فلماذا لا ينتهي هذا الكابوس العنيد؟!

الوضع يزداد سوءًا؛ فقدمها اليُمنى مُكبَّلة بالأصفاد! تتبَّعت نهاية السلسلة الحديدية لتجدها ملتفة عدة مرات حول صخرة كبيرة في منتصف الكهف، تستند إليها بظهرها. السلسلة الحديدية تشنق الصخرة، والأصفاد تشنق قدمها، والهواجس السوداوية تصنع لعقلها مشنقة باتساع تلافيفه.

صرخت تستغيث بآخر شخص رأته قبل نومها:

- «يونس».. «يونس»!

عضَّها الندم على فعلها السخيف، فـ «يونس» نائم في الغرفة المجاورة، وبالطبع لن يجثم فوق أنفاسها فيصاحبها في الواقع وفي الحلم كذلك، حتى الكوابيس لا تكون أبدًا بهذه البشاعة، أقنعت نفسها أنها تمر بكابوس عادي، أكثر وعيًا من أي كابوس مرت به، لكنه كغيره، سينتهي بعد حين.

الكوابيس لا ترحم، تأتي بكل ما نكره، رأت «يونس» واقفًا أمامها، وقد برز من خلف الصخرة الوحيدة التي تتوسط الكهف، الصدمة تشتت عقلها؛ فلم تنتبه لقدمه اليُسرى المُكبَّلة بالأصفاد كيُمناها، ولم تعرف أنه قد استيقظ منذ دقائق على الجانب الآخر من الصخرة، يظن مثلها أنه يعيش في عالم الكوابيس، لكن الواقع يكون أحيانًا أكثر بشاعة.

هل من الممكن أن يشترك شخصان في الحلم نفسه؟

- «يونس» هل جُننت؟! كيف تحضرني إلى هذا المكان؟! أين أنا؟! أنت مجنون، جدي كان ينتظر أن يصيبني الأذى منك وها هو قد أصابني، لن أبقى معك دقيقة واحدة بعد الآن.

الظلام يحجب عنا صفاء الرؤية، والغضب كذلك، وقفت بحركة سريعة، مضت في اتجاه الضوء المنبعث من الفتحة الوحيدة للكهف، استطالت السلسلة حتى آخرها قبل أن تبلغ الفتحة؛ فجذبتها أصفاد قدمها لتسقط أرضًا، تلتصق الرمال بجبينها المُتفصِّد عرقًا.

سبَّت الحياة مرة، ولعنتها مرتين، تحسست قدمًا جرحتها الأصفاد حتى

أدمتها، لم يدنُ «يونس» ليقدم لمساعدتها يدًا، ولا لصُحبتها وِدًا؛ سبته مرتين، ولعنته مرة.

عادت حيث الصخرة واتكأت عليها، ألم حارق يستبد بجرح قدمها، حاولت نزع الأصفاد، حاولت البحث عن آدمي على امتداد البصر، حاولت البحث عن السبب الذي جعل «يونس» يُكبل أقدامهما بنفسه إلى صخرة في منتصف كهف تجهل موضعه الجغرافي، هل تحوي «كفر الشيخ» كهوفًا صخرية؟ لكن كل محاولاتها كانت عبثًا.

كان قد دار حول الصخرة فتوارى عن أنظارها، تحاملت على نفسها وتوجهت نحوه، رأته يعبث بالسلسلة الملتفة حول الصخرة والمعقودة في منتصفها بعقدة كبيرة، صرخت به:

- «يونس» ألن تجيبني، هل أحضرتني إلى هنا لتعاقبني؟

أدرك «يونس» أنها ألقت نحوه بسؤال مشحون، من النوع المركب المفضل لديها، تكنيكها الخاص الذي يعمد إلى دس فرضية مسبقة غير صحيحة وبناء السؤال عليها، ومهما كان جوابه «نعم» أم «لا»؛ فهو بمثابة اعتراف ضمني بالفرضية المسبقة، أي بأنه أحضرها إلى هذا المكان ابتداءً!

صوَّب نحوها نظرته لحشرة يضايقه أزيزها وقربها، ولم يمنحها مرادها، منذ أن استيقظ كان للفزع قبضة محكمة حول روحه فشل في التحرر منها، شلت عقله عن التفكير، وبشرته بوضع خطير. عثرت «حواء» بداخلها بعد بحث لم يدم سوى لحظات على جرأة كافية؛ لتسدد إلى كتفه لكمة قوية، جهورية الصوت تحددها عوامل مثل طول الصوت وعلوه، إلا «حواء»، فمعها تُقاس جهورية صوتها من الشرر المتطاير بحدقتيها، حتى لا يبقى للعوامل الأخرى أهمية كبيرة، صاحت بصوت أقلق العصافير النائمة في أعشاشها فوق الشجر، لو كان خارج الكهف واحدة:

- ماذا تريد مني؟

ترك «يونس» حلَّ العقدة وتوجه إلى عقدة أكبر تحتاج إلى معالجة أسرع. أطبق على شفتيه بعنف كاد يدميهما، ثم قال محتدًا:

- ولماذا سآتي بكِ إلى هنا؟ هل جُننتُ لأصطحبكِ معي إلى أي مكان؟ لقد استيقظتُ منذ قليل لأجد نفسي فوق الأرض في هذا المكان الغريب..

ثم استطرد كمن يطلق سبة:

- معكِ.

الشك الذي حلَّ بعينها كان أبلغ من أي كلمات، هل من المنطقي أن يجهل «يونس» كيف وصل بهما الحال من بيتهما في «كفر الشيخ» إلى هذا المكان المقفر؟! إن لم يكن «يونس» هو الفاعل؛ فمن يكون إذن؟!

لا يزال الشك يساورها، حتمًا لديه هدف خفي يسعى من أجله، ماذا يكون يا تُرى؟!

حبال الشك كانت طويلة بقدر كافٍ لكي تلتف أيضًا حول تلافيف عقل «يونس»، لعل «حواء» تتظاهر بالغباء من أجل رغبة خفية في نفسها، لعلها تحاول الانتقام منه بهذه الطريقة، ألا تُحمِّله مسؤولية فشل زواجهما؟ لرُبما اختارت هذه الطريقة القاسية لتنزل عليه عقابها، تتركه مقيدًا بالأصفاد في مكان مجهول. لو كانت أي امرأة أخرى لشك في قدرتها على أن تنفذ مثل هذه الخطة الرهيبة، لكن «حواء» ليست كأي امرأة قابلها، بل ليست كأي امرأة فوق ظهر الأرض أو في باطنها!

فشل أي حوار يبدأ بانعدام الثقة، أشار ترمومتر الثقة إلى الدرجة صفر، وذلك عندما اكتشفا أن الحل الوحيد للتخلص من السلسلة الحديدية والأصفاد التي تكبل أقدامهما، هو أن يتسلق أحدهما برميلًا بجوار الصخرة بمساعدة الآخر،

ليحضر المفتاح الذي تبدَّى طرفه بوضوح من تجويف صغير بأعلى الصخرة؛ انعكست فوق معدنه أشعة الشمس المتسربة من فتحة الكهف. أراد «يونس» أن يكون صاحب السبق إلى المفتاح، إذ إنه رأى أن هذا هو دوره الرجولي الحتمي في مثل هذا الموقف، ولم يكن لديه أدنى رغبة في التخلي عن مسؤولياته، صراع القوة الذي تقحمه فيه الحياة من وقت لآخر تكليف نزل على الرجل وحده، صاحب السبق، صاحب الفوز، صاحب الكأس يجب أن يكون رجلًا لا امرأة، هذا هو قانون الحياة في أبسط صوره.

رغبت «حواء» في أن تكون أول المتحررين؛ إذ إنها لم تكن على ثقة كافية في أن «يونس» سيحررها بعدما يحرر نفسه من القيد الحديدي ابتداءً، ومن رفقتها انتهاءً. ألا يُحمِّلها مسؤولية فشل زواجهما؟ ألا يبغضها لهذا السبب؟ لماذا تصدق إذن أنه سيسعى لإنقاذها ما إن يتحرر منها؟

قديمًا كان يُنصب في حلبة السباق قصبة، فمن اقتلعها وأخذها يُقال عنه: «أحرز قصَب السَبْق»، الآن كل منهما يسعى ليحوز مفتاح السَبْق.

رفض مساعدتها، وأبَت مساعدته، فأضاعا ما يقرب من ساعتين في معاقرة عناد لم تستفق منه «حواء» إلا على وقع خطوات كائن يتحرك في الجزء المظلم من الكهف، انتفضت تصيح:

- «يونس»، ما هذا؟

كان الكهف فارغًا كبطن شحَّاذ، رأى «يونس» أن الظلام المخيم على الكهف، والأوهام التي تُعشش في عقول النساء، اتحدا ليصنعا حركة وهمية في عقل «حواء»، تلذذ «يونس» بكل حرف وهو يقول بلؤم:

- لا داعي للخوف، لعله مجرد فأر كبير بعض الشيء.

أطلق ضحكة عالية، إذ حاولت عبثًا تسلق البرميل وهي فزعة دون مساعدة؛ فتدحرج فوق أرض الكهف غير المستوية، وسقطت أرضًا لتضيف إلى جراح قدمها، جرحًا آخر أصاب كبرياءها. صاح به:

- أنت رجل لا يُطاق.

أنزلت كلمة «فأر» على رأسها عقوبات قاسية؛ فرفعت راية الاستسلام، وافقت على تثبيت البرميل بيديها ليتولى هو مهمة تسلقه. فعل «يونس» وهو يشعر بالغبطة، فما أسعده حين يُحطم عنادها على صخرة عناده.

عندما تلقَّف القفل مفتاحه كان بانتظارهما مفاجأة جديدة، فجَّرت إحباطًا متصاعدًا في نفسيهما، القفل المفتوح لم يطلق سراح كل عُقد السلسلة الملتفة حول الصخرة، بل حلَّ بعضها فحسب، وظلت البقية حبيسة قفل آخر، بغير مفتاح!

لكن الخبر الجيد أن السلسلة ازدادت طولًا؛ فسمحت لهما بالحركة بحرية أكثر، أول ما فعلاه هو أن توجها إلى فتحة الكهف، يتطلعان بلهفة إلى الخارج.

ظنا على أسوأ تقدير أنهما في مكان ما مجهول في «كفر الشيخ»، على بُعد بعض الكيلو مترات من بيتهما، لكن الرمال الصفراء النائمة على امتداد البصر، والجبال والصخور المتناثرة حولهما أصابت عقليهما بزلزال عنيف.

ماذا يفعلان في صحراء شاسعة لا زرع فيها ولا ماء؟!

***

كاد أن ينشق قلباهما هلعًا، ماتت الكلمات التقليدية، وفشلا في خلق كلمات جديدة تمكنهما من تفسير ما يحدث لهما. عرَّت الشمس ما وارته ظلمة الكهف، تطلع «يونس» إليها والدهشة تعلو وجهه، أزعجتها نظراته المتفحصة، مسحت وجهها وقد ظنت أن وسخًا ما عالقًا به، حدة نظراته وجبينه المجعَّد أنبآها بأن الأمر أكثر خطورة؛ فسألت بضيق:

- ماذا هناك، لماذا تنظر لي على هذا النحو؟

قبل أن يفتح «يونس» فمه ليبوح بسبب تعجبه، أصابها من الدهشة سهم، ونظرت إليه بنفس النظرة التلسكوبية التي ينظر بها إليها، وتحديدًا إلى مُفترق شعره، دقَّ قلبها بعنف، تجهل خوفًا أم حيرة، ولعله مزيج من الأمرين. متى نبتت تلك الشعيرات البيضاء في رأس «يونس» ابن السادسة والعشرين؟ يتردد بداخله السؤال ذاته بشأنها، متعجبًا من الشعيرات الهاربة من مقدمة حجابها، لم تكن سوداء بلون شعرها الطبيعي، ولا مصبوغة بذاك اللون الجنوني، بل كانت بيضاء تمامًا، كشعر امرأة مسنة بلغت أرذل العمر!

كم مضى عليهما نائمين في الكهف؟

أقلق هذا السؤال راحتيهما، لم تعد الإجابة تحتمل الدقائق والساعات، بل اعترف عقلاهما في فزع أنها تتخطى ما هو أبعد من ذلك، كالفترة الكافية ليستحيل الشعر الأسود ثلجًا.. هل امتد نومهما سنين عددًا كما حدث في غابر الأزمان مع فتية الكهف وكلبهم؟!

نزعت «حواء» حجابها بلهفة، مسحت فوق شعرها بقوة، ونفضته مرارًا حتى صار أشعث أغبر، لا مرآة في جيوبها الخاوية على عروشها، لا شيء ترى فيه انعكاس نفسها سوى عيني «يونس»، عينه التي عمت عن رؤيتها لعام كامل كرهت أن تحتاجها الآن، لكنها كانت مضطرة:

- أخبرني، هل زال اللون الأبيض؟

أدرك فزعها، أجابها حائرًا:

- كلا، لكنه ليس أبيض بالكامل، فقط عدة خصلات كثيفة في مقدمة رأسك.

الصحراء من حولها تصيبها بخوف لا قِبل لها به، يمتص من عقلها صفاء التفكير، الوهن يسري في جسدها كفيروس خبيث، هل بسبب سنين عمرها المتقدمة، أم أنه أثر الصدمة؟ لا تعرف، وجهلها بذلك أضاف لجسدها وهنًا على وهن.

احتشدت العبرات في مقلتيها، صرخت فيه بجنون:

- ماذا فعلت بي، كيف.. كيف أوصلتني إلى هذا الحال؟

لم تعرف الرأفة سبيلًا إلى عينيه، لم ترسُ بمرافئه سوى سُفُن الغضب، قال مُهددًا:

- إذا لم تتوقفي عن اتهامي...

لم تدع له فرصة ليتم كلماته، صرخت في تحدٍ:

- ماذا ستفعل؟ ها.

أشارت بيديها صوب جمهور من الرمال والصخور والجبال يتابعهما بشغف:

- ماذا ستفعل أكثر من ذلك؟ ها.

التقط حجرًا صغيرًا، يبثه كل غضبه وضيقه وحيرته، ثم قذفه بجل قوته بعيدًا نحو الأفق. رجل عاشق للماء وجد نفسه فجأة وسط الصحراء، ولا يدري كيف جاء، ومتى جاء؟ والأكثر صعوبة أنه لا يعرف إلى أين يذهب، وبقربه المرأة الوحيدة التي لا يرغب في وصالها، وفوق ذلك لا تتوقف لحظة عن استفزازه، أمسك بحجر آخر وألقاه ليتبع أخاه، خشي في لحظة اندفاع أن يلقي حجرًا ثالثًا ليستقر في منتصف جبهة «حواء» التي لا تزال تصرخ في وجهه وتتهمه بكل شيء، حتى ظن أن الاتهام التالي أنهما لا يزالا في بيتهما بـ «كفر الشيخ» وهو من حمل الجبال والرمال والتلال فوق ظهره، وأحضرهم في منتصف غرفة المعيشة، وهدم الجدران وأزال البنيان حتى اختفت المدينة وراء الأفق!

- أتعرفين «تيتانيك»، أنا من أغرقها، وأنف «أبو الهول» انقضضت عليه بأسناني في لحظة غضب، وما زلتُ أحتفظ بالأنف المكسور في خزينة سحرية صنعتها بنفسي في جدار البيت!

قالها ثم سكت سكتة طويلة لم ينجح أي شيء في قطع أوصالها.. ذهبت «حواء» بالكلمات إلى حافة الجنون، ودخل «يونس» كهف التجاهل يسكن إليه، التجاهل هو سلاحه الخاص.

كاد أن يستدير عائدًا إلى داخل الكهف، أوقفته بنظراتها المتفحصة، تتبعها فوجدها تستقر عند أصابع يده اليسرى التي يحك بها ذقنه، علت الدهشة وجهه بدوره وهو يتحسس حلقة فضية تطوق خنصره!

دقَّ قلبها بعنف، تجهل خوفًا أم غيظًا، ولعله مزيج من الأمرين، سألته باندفاع:

- لماذا ترتدي خاتم زواج؟

«يونس» لا يحب ارتداء الخواتم، ولم يسبق له أن ارتدى واحدًا، رغم إصرارها عليه أن يفعل، فالخاتم في ظنها رسالة صارخة في وجه أي امرأة «هذا الرجل مِلك لأخرى».. لكن يبدو أن «يونس» لم يحب يومًا أن يكون من ممتلكاتها.

أخذ السؤال ذاته يتردد بداخله، لمن هذا الخاتم، وماذا يفعل في أصبعه؟

أخبره أبوه ذات رحلة صيد أن النساء كالأسماك، يسرن مع التيار، لا يجرؤن على النظر إلى السماء، وإذا خرجن من الماء قُتِلن!

فنما بداخله قناعة راسخة أن النساء طيبات كالأصفار، لا يُغيِّرن من معادلات الحياة شيئًا.. ظن «حواء» مثل أمه، صفرًا وديعًا، محايدًا مطيعًا، ولم يسامحها كونها جرؤت على أن تكون رقمًا موجبًا!

يا ليت أباه بقي على قيد الحياة ليخبره أن هناك نوعًا من النساء يشذ عن القاعدة التي ظنها قاعدة، إنهن كـ«فرس البحر»، لا يشبه الأسماك إلا في عيشها في الماء، ولا يشبه الحصان إلا في رأسه.. مزيج من عدة متناقضات في آن واحد!

بعد قليل عضها التعب، وفرمتها نواجذه؛ اعتصمت بالكهف الذي هجره «يونس»، وجلس هو عند مقدمة الكهف يوليها ظهره، كما اعتاد أن يفعل معها وهما يعيشان تحت سقف واحد، يتعامل معها كعقبة ستختفي من حياته إن تجاهل النظر إليها، لكن لا فارق لديها، فـ«يونس» هو آخر شخص ترغب في قُربه الآن.

فشلت «حواء» دومًا في العثور على بوصلتها الخاصة التي تمكنها من ضبط خريطتها النفسية المهلهلة، «حواء» لم تعثر على البوصلة يومًا، ليس لأنها لم تبحث بجد، بل لأنها اكتشفت بعد سنوات مضنية من البحث أن بوصلتها لم تكن ضائعة بل مسروقة، سرقها أبوها في اليوم الذي هجرها وأمها دون أن ينظر خلفه، يوم فقدت من كل شيء فيها النصف، نصف روحها، نصف عقلها، نصف ذاتها.

فكان عليها أن تكتفي بالنصف، أو أن تسعى لتكملة الجزء الضائع، ظنت في أول زواجها أنها ستكمل مع «يونس» هذا النصف، فإذ به يبذل طاقته ليحاول أن يسلبها نصفها الآخر، كما فعل أبوها من قبل.

نفضت الذكريات المريرة عن عقلها، وحاولت إيجاد بوصلة الخروج من هذا المأزق. دعاها هاجس الاهتمام بالتفاصيل إلى أن تتفحص الكهف شبرًا شبرًا، بحذر تفقدت «حواء» أركان الكهف، لم يكن كهفًا عميقًا، قدَّرت مساحته بستين مترًا لا أكثر، يلتحف نصفه بالظلام ليتوارى عن ضوء الشمس، كاد قلبها يتوقف فزعًا عندما اصطدمت قدماها بشيء صلب، ابتعدت خطوة ودققت النظر في ظلام مُرقَّع بخيوط من نور؛ فتبدَّى لها حقيبة ظهر، قربتها بلهفة من فتحة الكهف كي تقوم أشعة الشمس الذابلة بمهمة كشف محتويات الحقيبة، ماء، طعام مُعلَّب،

مصباح يعمل بالحجارة، سكين صغير، حبال، ضمادة، مطهر جروح، ومعطف ثقيل، هذا كل ما احتوته حقيبة كبيرة الحجم تصلح للرحلات..

ظلام كهف لا يعتنق ضوءًا، وبرد ليل بالدفء كافر، وقمر شاهد ضنَّ بالعطاء فاستحال محاقًا، ورجل وامرأة هما للوِد خصيمان.

هكذا مرت الساعات الأولى من الليلة الأولى، كل منشغل بما أهمه، حتى تكبد الإرهاق مشقة مُنازلة الأرق، وانتصر عليه في معركته الأخيرة عند نهاية السَحَر.

تيمما بالتراب، استقبل «يونس» وجه الجبل، واستدبرته هي! أديا فريضة الصبح، كل منهما بمعزل عن الآخر، وكأنهما لا يتعبَّدان للإله نفسه، ثم أسلم كل منهما جسده لموتةٍ صُغرى.

تنفس الصباح هاتكًا ستر كوابيس جثمت فوق أنفاس «حواء» حتى اختلط عليها الحلم بالواقع، وحدها الشمس تشير بشجاعة إلى الحقيقة، وتنتزعها من براثن ألف حُلم.

ظنت أنها ستفيق فوق فراش طفل لن تضمه إلى صدرها أبدًا، ببيت لم يعد سكنها أمدًا، لكن قبل أن تفتح عيناها رَوَت لها آلام ظهرها -إثر نتوءات الأرض الصخرية- حكاية عن «كفر الشيخ» التي صارت حلمًا، وعن واقع مداره كهف وصحراء على مد البصر.

أجهدت عقلها في العثور على زمن غير معلوم سقط من ذاكرتها، لم تعثر على شيء، آخر ذكرى تخزنها برأسها نومها في الغرفة الصغيرة ببيتهما بكفر الشيخ.. هل يمكن سرقة الزمن؟

زاحم الضيق صدرها وصورة لخاتم الزواج تتجسد أمامها في ظلام الكهف.. هل يمكن أن يكون «يونس» قد تزوج في تلك الفترة الساقطة من حسابات الزمن؟ تزوج أو لم يتزوج، ما شأنها.

أنبأتها نظرتها الاستكشافية الأولى أن «يونس» لم يكن بالكهف، تتبعت بعينيها السلسلة التي تبتدئ بالصخرة وتنتهي حول قدم لا تراها، فتحت الحقيبة التي اتخذت منها طول الليل وسادة رأس، وأخرجت منها الضمادة ومطهر الجروح، وعمدت إلى معالجة جُرح قدم لم تتحرر بعد من أصفادها.

تحملت مشقة الوقوف على قدميها رغم الآلام التي استبدت بها، خرجت من الكهف، لم يكن «يونس» باديًا أمامها، تتبَّعت السلسلة التي التفت حول الكهف من جهته اليسرى، لاحظت أن الكهف من جهته اليمنى متصل بجبل يمتد عرضًا لمسافة طويلة. رأت «يونس» مفترشًا للرمال بجوار حقيبة أخت توأم لتلك التي عثرت عليها بالأمس، اندفعت تسأله دون أن تعبأ بإلقاء تحية صباحية:

- أين وجدتَ الحقيبة الثانية؟

ولم يعبأ هو بإجابة سؤالها، كاد أن يُبدي رأيًا حول ضمادة ملتفة بغير إحكام حول قدمها خلف الأصفاد، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة، اتهام الرجل المهتم بعدم الاهتمام يورث الغضب، لكن اتهام رجل غير مهتم بأنه مهتم يورث الحرج؛ فصمتَ إذ أراد أن ينأى بنفسه عن تهمة الاهتمام!

مضى على استيقاظه ساعتان، تجوَّل خلالهما في المكان بما تسمح به طول السلسلة الحديدية، فعثر على الحقيبة ملقاة بمحاذاة الكهف، وجد فيها ماءً، وطعامًا معلبًا، ومادة لاصقة، وأداة حادة، ومعطفًا يماثل مقاسه.

دأب على محاولة فتح الأصفاد، بسحقها تحت الحجارة تارة، وتارة أخرى باستخدام تلك الأداة الحادة، لكن الأصفاد استمسكت بعنادها، تمامًا كالمرأة التي تقف على بُعد خطوات منه.

كاد عقله أن يُسحق تحت صخرة اليأس، وجدت الأرقام داخل رأسه الفرصة سانحة لتسلبه ما تبقى من سَكينته، تقافزت هنا وهناك داخل رأسه، ولم يجد من سبيل لتهدئتها سوى أن يقوم بالعد، ابتدأ بالصخور ثم الجبال ثم الحجارة الصغيرة السابحة وسط الرمال، ثم ولَّى وجهه للأعلى فلم يجد ما يصلح للعد، حاصرته أرقامه في الزاوية تريد المزيد، فجمع حفنة صغيرة من الرمال في كفه، ودأب على عد ما بها من رمال، ذرة تلو ذرة! حتى وجد «حواء» واقفة أمامه تسأله كيف عثر على الحقيبة.

وسواس قهري بدأ معه منذ اليوم الذي مات فيه أبوه وفارق بحيرة «البُرلُّس».. ما إن يتملك من رأسه حتى يجبره على عد أي شيء تقع عليه عيناه.

أرهقت الأرقام ذهنه، وشتت التغيير أركانه، مكان جديد، وأغراض جديدة، وساعات عصيبة افتقد فيها كل ما اعتاد عليه.. ومما بعث بالتهكم في نفسه أن «حواء» هي الشيء الوحيد المألوف إليه الآن، ليتها ذهبت، وبقيت سمكاته.

- «يونس».. لماذا لا تجيبني؟

ثقل غريب يجثم فوق صدره، لا يكاد يقوى على النطق بشيء، أو النظر لشيء، أو الشعور بشيء، لا يطيق فشله في العثور على حل للمأزق الذي يحيق به، تخنقه يد الفشل، تخنقه حتى ليكاد يفقد أنفاسه الأخيرة.. تركته ذاكرته ورحلت حتى صارت حفنة من شعرِه بيضاء اللون، ثم عادت إليه من جديد، تحمل في جعبتها خاتم زواج فضي.. لا يمكنه أن يدخل امرأة ثانية إلى حياته وهو بعد لم يتخلص من تبعات الأولى.. ثم لماذا رحلت ذاكرته؟ ولماذا رجعت؟

- «يونس» أنا أتحدث إليك.

رمال غزيرة تحاصره، أكثر مما يستطيع عدها لو أفنى عمره كله بين الأرقام، جبال مثبتة بالأرض كالأوتاد تشهد على خيبته، وصخور قاسية، كل شيء بعد

«البُرُلُّس» قاسٍ، كل شيء بعد «البُرُلُّس» خاوٍ، لكن القسوة والخواء اللذين يتكالبان عليه الآن أقوى من قدرته على الاحتمال.

- أنت رجل بشع لا يطاق.

ماذا كان جده «سُلطان» يقول في زيارته الأخيرة لبيت أبيه، تحت قيظ الظهيرة وهو ينثر الردَّة على السمك النائم فوق المطرحة استعدادًا لشوائه في الفرن الطيني؟ نعم تذكر، كان يقول الرجل الحقيقي يجد لكل مشكلة حلًا، الرجل الحقيقي لا يقف شيء في وجهه، متى أراد فعل، ولا يُفعَل به إلا إذا سمح.

ماذا سيقول جده لو رآه الآن هائمًا على وجهه في الصحراء، مقيد إلى صخرة بائسة، ولا يملك سوى قوت يكفيه بضعة أيام، الرجل الحقيقي يجد لكل مشكلة حلًا، لكن عقله لا يسعفه، توقف بعناد محركه، المحرك لا يدور، والحل لا يزال مُخبَّأً في رحم الغيب، وحده رجل حقيقي ينجح في الوصول إليه، رجل حقيقي، عليه أن يكون رجلًا حقيقيًا، ترددت العبارة الأخيرة برأسه خمس مرات متتابعات.

- «يونس» ألا تسمعني؟

لم يدخل الكهف منذ الأمس؛ كهفه الذهني يفي بالغرض، هناك بإمكانه أن يهرب من كل شيء، ويسرق فسحة من الزمن، لا يؤنسه فيها سوى أفكاره وأرقامه.

- أنا الآن أثق أكثر من أي وقت مضى أن قراري في الطلاق منك كان أصوب قرار اتخذته طوال حياتي.

أخرجته كلماتها من كهفه الذهني، بل انتزعته منه كما تقتلع الأعاصير جذور أشجار راسخات، انتفض واقفًا، وصاح معنفًا:

- لم يكن قرارك، كان قراري!

قالت بعناد:

- بل قراري أنا، أنا رغبت في الطلاق منك، وأنت استجبت لرغبتي.

ضم أصابعه بقوة، يغالب دفعها بعيدًا عنه، إلى أبعد مسافة ممكنة، صاح بقسوة آملًا أن ينجح في إسكاتها:

- أتعلمين، أنتِ مجرد خطيئة لم أندم على شيء كندمي على اقترافها.

نجح في إسكاتها للحظات فحسب، وقفت مشدوهة، تتصاعد الدماء إلى عروق وجهها وتتزاحم بداخله، توهج وجهها بالغضب وهي تصيح باهتياج لا سلطان عليه:

- أنت أحقر رجل قابلته في حياتي، لقد استحققت كل شيء فعلته بك، اليوم الذي ضبطت فيه منبهك لتستيقظ في موعد اجتماعك الهام، ثم فوجئت بعد ضياع صفقتك أن عقاربه لم تكن منضبطة، أنا التي عبثت بها.. واليوم الذي وجدت فيه بعض أوراقك مفقودة وكدت تفقد عقلك بسببها، أنا التي أخفيتها.. واليوم الذي وقفت تضرب كفًا بكف وكل إطارات سيارتك مثقوبة، أنا التي مزقتها.. واليوم الذي عدت فيه من عملك لتجد جميع سمكاتك نافقات، أنا التي قتلتها.

أطلق صيحة غضب ثم انهال على الجبل يسدد نحوه لكمة عنيفة، فجرت الدماء من خدوش أصابعه، توقف بعدها كل شيء، توقفت الأرقام عن القفز، هدأت وسكنت واتخذت من إحدى زوايا عقله مستقرًا لها، توقفت يد الفشل عن سحق صدره، وتحررت أنفاسه، حتى ليظن أن الأرض نفسها هجرت مداراتها وتوقفت عن الدوران، والأهم.. توقفت «حواء» عن الكلام.

اعتصمت «حواء» بالكهف الصخري لتخفي عن عينيه سقوط أمطار الألم فوق أرض لا تزال رطبة به، يظن نفسه الوحيد الذي وئدت أحلامه في مهدها، هي أيضًا كان لها أحلام دافئة، بيت صغير، وثلاثة أطفال، ورجل يمسك بيدها عندما تستلقي فوق فراش الموت، يعكس لون الثلج في رأسيهما آلاف الذكريات السعيدة، تأخذها معها إلى القبر.. رجل يكون جدًا لأحفادها، لديه الصبر الكافي

ليبحث معها عن نظارتها حين تفقدها بين وسادات الأريكة.. ويحفظ اسم دواء الروماتيزم ومواعيد جرعاته.. ينزع طقم الأسنان من فمها لينظفه حين يحبسها فراش المرض، يمنحها عكازه في منتصف الطريق إلى البيت ويتوكأ هو على كتفها، يبكي بين ذراعيها ولا يخجل من كونه رجلًا يبكي.. حين تجوع يطعمها الرحمة فترى الحياة قاسية خارج أرضه، يلقنها الشهادتين وهو يحتضن كفيها فتكون آخر كلمات تسمعها من الدنيا، دعاء بجنة خلد تجمعهما.

لكن الأيام التي كانت أرضًا خصبة لأحلامها تسللت من بين أناملها هربًا، وكأن الزمن أدانها بجرم مشهود ولم يقبل منها صرفًا ولا عدلًا.

انسلت إلى تضاريس خريطتها النفسية ومضت تحطم وتهشم وتمزق، لم تكتفِ بالدمار والأشلاء والدماء، أحيَت في عقلها صورة أبيها، ورفعت في وجهه سيوف الغضب، فعلت به كما يفعل جندي شجاع بعدو مغتصب، نكَّلت به، ثم مثَّلت بصورته، مرة لأنه هجرها وهي بعد لم تكمل الثامنة، وألف مرة لأنه أول رجل أطعمها مُر الخذلان.

ذكريات اهتاجت تطعنها بألف طعنة نافذة، لجسدها ذاكرة لا تنسى، تشعر بذلك كل خلية ودت كف «يونس» لو سحقتها، تعلم أن الصفعة كانت موجهة إلى وجهها لا إلى الصخرة، لكن يده غيرت وجهتها في اللحظة الأخيرة.. عادت بها الذكرى إلى أبيها، يوم أن هجرها، احتدت وغضبت وصرخت «أنت لست أبي بعد الآن»، صفعها، ثم حمل حقيبة أسفاره ورحل، فلم تعرف يومها أيهما أقسى، صفعة نزلت على وجهها، أم هجر سحق قلبها، منذ ذلك اليوم صار أبوها والعدم سواء، لم تنزله من نفسها منزلة الأموات، فالأموات لهم قبور وشواهد تُقِر أن فلانًا مر من هنا، أما العدم لا يترك من خلفه أثرًا.

كتمت صوت نحيبها بكفيها، مخافة أن يصل إلى مسامع «يونس»، تضحي بأي شيء ولا تمنحه متعة إذلالها، والانتصار عليها.. كإعصار هائج لا يفرق بين عدو وحبيب حاولت ضرب الأصفاد حول قدمها بقسوة، فسالت الدماء تختم أرض

الكهف بوسم القهر، علا دبيب الرعد بداخلها عندما شعرت أن ضفدع الرعب على استعداد لأن يقطع قدمه؛ ليتحرر من أسره، فقط لو كان يملك الأداة المناسبة!

ذات رحلة صيد سأل والده:

– لماذا أسميتني «يونس»؟

فأجابه:

– يوم ولادتك كنت في صلاة الجمعة بالمسجد، أستمع إلى الخطبة، أسهب الشيخ في الحديث عن قصة نبي اللّٰه يونس عليه السلام، عقلي كان عند حواف فراش أمك وهي تتقلب في ألم المخاض، لم أسمع كلمة واحدة من خطبة الشيخ، شعرت بالخجل الشديد وأنا في بيت من بيوت اللّٰه وشارد عن حكمته التي أنزلها علينا في قصة نبيه يونس، طال مخاض أمك حتى هجم علينا الليل، جلست عند حافة البحيرة، يختلط بين أصابعي الماء بالتراب، أبكي وأتضرع إلى اللّٰه أن يحفظك وإياها..

فكان أول ما قلته عندما عدت إلى البيت وحملت جسدك الصغير بين ذراعي: «سأسميه يونس».

وعندما أسلمت أمك روحها إلى بارئها ظننتُ أن قدر صاحب الحوت يلحق بك يا بني، غابت الألوان واتشحت حياتك بالسواد منذ اللحظة الأولى من عمرك، كنت تبكي كثيرًا حتى ظننتُ أنك تعي فقدانك لأمك، كان صاحب الحوت حبيس ظلمات ثلاث، ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت.. وأتيت أنت للدنيا في ظلمة الليل، وكنت رفيق أيامي في ظلمة البحيرة.. وخشيت دومًا من الظلمة الثالثة أن تلحق بك، خشيت أن يبتلعك الحوت يا «يونس»، وأصبحت حمايتك هي غايتي.

آمن «يونس» أن اللعنة التي حاول والده حمايته منها قد لحقت به، منذ فارق بحيرة البرُلُّس شعر وكأن حوت يونس ابتلعه في بطنه، يضيق عليه، يسحق عظامه، كقبر يعذب ساكنه.

ثماني سنوات وظلمة الحوت لم تلفظه بعد!

مرر أصابعه بين خصلاته البيضاء حديثة الولادة، متذكرًا قصة حقيقية حدثت في إحدى المدن التركية، دونها الباحث التركي «أشرف أونن»، عن «حكمت» العامل المجتهد في مخبز البلدية، آخر من يغادر المخبز دومًا..

في إحدى المرات ذهب لينظف الفرن الرئيسي، لم يره زميله «راغب» فأغلق عليه باب الفرن وأطفأ الأنوار، كان هناك فاصل خمس ساعات على مجيء العمال وإيقاد الموقد..

أخذ «حكمت» يتذكر هول الألم عندما مست يده طرف حديد محمر كالجمر، وأخذ يتخيل ما سيحدث له عندما تزداد حرارة الفرن حول جسده، ويتلظى بين النيران.. عندئذ تذكر أنه لم يُصلِّ لله ركعة واحدة، وكان يتجاهل كل يوم خمسة نداءات لمؤذن المسجد القريب، فما كان منه إلا أن بكى أسفًا وندمًا، وتيمَّم برماد الفرن، ثم صلى لله لأول مرة، ودعا ربه بالفرج..

في الوقت نفسه راود «راغب» رؤية في المنام، عن صديقه «حكمت» وهو يحترق في فرن المخبز، فهبَّ مستيقظًا قُرب الفجر، ذهب إلى المخبز وأنقذ صديقه من مصير بائس.. لكن «راغب» وقف ذاهلًا أمام صديقه ولم يتعرفه.. فقد هبطت الشيخوخة على رأس «حكمت» في ليلة واحدة[1]!

(١) قصة واقعية بتصرُّف من كتاب «إلى جبل قاف».

فراود «يونس» أمنية، أتبعها بدعوة، أن يكون الشعر الأبيض قد نبت برأسه بسبب هول استيقاظه في أرض غريبة متسلسلًا بالأصفاد.

جبال تنهار، وبراكين تتفجَّر، ورمل يبتلعها في أحشائه.. رجل يقصف أرضها، وآخر يقطع الطريق على كل من يمد لها يد المساعدة، بضعة كوابيس امتزجت وصنعت مرآة لحياتها، تعكس كل ما تكره، حتى اختلط عليها الحقيقة بالخيال، وعندما استيقظت وصافح وجهها صخر ورمال، عرفت أنها انتقلت من كابوس ينتهي إلى آخر لا ينتهي.

عليها أن تجد سبيلًا للنجاة، يجب أن تتحرر من الأسر، ومن الرجل الموجود بالخارج، لم تخرج من الكهف، ولم يدخل «يونس» إليه، حركة السلسلة كشفت لها أنه لا يزال أسيرًا مثلها. فتحت الحقيبة لتحضر ضمادة أخرى، فوجئت بضمادة جديدة ملتفة حول قدمها، ومحكمة بشكل جيد، أحكم الغضب قبضته عليها، توجهت إلى حيث «يونس»، يجلس فوق إحدى الصخور وقد ضمَّد يده، يفترش فوق الأرض محتويات الحقيبة التي عثر عليها، يمسك بيده الخاتم يديره بين أصابعه، يبدو لها كما لو أنه يناجي امرأة تحمل بدورها خاتمه في أصبعها.. يشتاق إليها حتى إن كان لا يتذكرها.. ضاق صدرها، صاحت بغضب:

- لماذا غيَّرت ضمادة قدمي، ما شأنك بي؟

لم يرد، ولم يلتفت، كما لو كانت زمجرة ريح مرَّت بجوار أذنيه، فقالت بحزم:

- إياك أن تلمسني ثانية.

وعندما همَّت بالمغادرة تبدَّى لها بوضوح غرضًا أخرجه من الحقيبة وافترش به الأرض أسفل قدميه.. مفتاح، أو تحديدًا نصف مفتاح!

ما إن عادت إلى الكهف حتى انقضَّت على الحقيبة تخرج كل ما بها بالقرب من فتحة الكهف، تستأنس بضوء الشمس، فتشت ما بها بدقة شديدة، كانت تأمل في العثور على النصف الآخر من المفتاح الذي عثر عليه «يونس»، ثم لاحت على وجهها بسمة ساخرة، الآن علمت لماذا اهتم «يونس» بتضميد جرحها، تفتيشه في حقيبتها عن نصف المفتاح هو الذي دفعه ليضمد جرحها حتى إذا ما لاحظت أن الحقيبة تم العبث في محتوياتها يكون تبريره لذلك جاهزًا.. ما أخبثه!

يخفي عنها نصف المفتاح الذي عثر عليه لسبب وحيد واضح كشمس الظهيرة، «يونس» أراد التحرر من قيده، وتركها وحدها في الصحراء.

«يونس» أرادها أن تموت!

طير ما يغرد بالخارج، يحق له أن يفعل طالما يتمتع بحرية سُلبت منها، فشلت في أن تكون حُرة مثل هذا الطير.. تعرف أن الأصفاد ليست القيد الوحيد الذي يكبل قدمها، حتى إن تحررت منها فستظل رهينة الأسر، فعَل هذا الطائر ما لم تجرؤ يومًا على فعله، فرد جناحيه في وجه السماء وصاح قائلًا «أنا لست نجمًا ولا قمرًا، لا شمسًا ولا سحابًا، أنا مجرد طائر صغير لكن يحق لي أن أسكنكِ أيتها السماء مثلهم». القيد الوحيد الذي يكبل روحها هو أنها لا تستطيع أن تكون «حواء»؛ لأنها تخشى ألا يحبها أحد.

كان عليها أن تجيد تقمص شخصية رسمها أبوها، لا تعارضه، لا ترد له طلبًا، لا تشرح له دواخلها طالما تتعارض مع أوامره ونواهيه، ورغم ذلك هجرها، ثم كان عليها أن تتقمص شخصية جديدة ترضي بها الأم المطعونة في كرامتها، كان عليها أن تصبح كيس رمل تفرغ فيه أمها كل إحباطاتها ويأسها وغضبها، تحت ستار حمايتها من الشامتين والحاقدين والمتربصين بها وبابنتها الضياع، ورغم ذلك لم تجد منها يدًا حانية قط.

ثم كان عليها أن تتقمص شخصية عروس تقف على أهبة الاستعداد من تكوين

بيت وأسرة مثل سائر البنات، وأن تخفي كل التشوهات التي تعاني منها روحها، خوفًا من شبح العنوسة، ورغم ذلك كرهها «يونس».

لو أتاها أحدهم الآن متسائلًا «من تكونين؟».. فستجيب «أنا «حواء» التي لم يرها أحد، ولا يريد أن يراها أحد».

قتل أبوها عمدًا جزءًا من نفسها عندما علمها معنى الهجر في عُمر مُبكر.. ثم قتلت منها أمها جزءًا آخر عندما صنعت من «كلام الناس» صنمًا وأرغمتها على أن تتعبد له، وتدين له بالولاء والبراء.. ثم قتل منها «يونس» جزءًا آخر عندما أرغمها على أن تتخلى عن ذاتها لتتلبس قالبًا صنعته رغباته.

تضع التعدي على النفس في مكانة لا تقل قبحًا عن التعدي على الجسد، لذلك لا تستبعد إن رغب «يونس» في هلاكها، كما دمَّر أشياء كثيرة بداخلها.

عثَرت أخيرًا على النصف الآخر للمفتاح، في جيب صغير مدسوس بإحدى زوايا الحقيبة، كان ذلك مساءً مستعينة بضوء الكشاف، بعدما أدَّت فريضة العشاء. منذ الظهيرة لم تتبادل حرفًا واحدًا مع «يونس»، خاصَم الكهف لمجرد أنه المكان الذي يأويها، يكرهها إذن إلى الحد الذي تعاف أنفاسه من أن تجتمع بأنفاسها في مكان واحد.

ماذا تفعل بنصف مفتاح؟

لن يجدي النصف نفعًا بغير النصف المنقوص، لماذا لا يمكن للأنصاف أن تعيش وحدها، لماذا تضطر إلى أن تعثر على آخر لتكتمل؟ القمر يستطيع العيش نصفًا فحسب، لكن ليس إلى وقت طويل، وتعجز الشمس أن تفعل مثل شقيقها، لماذا يكون الكمال في التمام وليس في النصف؟

لم يكن «يونس» عند الصخرة التي أصبحت محرابه الخاص، تسلق من الجبل الملاصق للكهف ما سمح به طول السلسلة الحديدية، لا تعرف ماذا يفعل، ولا ترغب في أن تعرف.

تسلقت المسافة القليلة بدورها، وعندما شعر بحركة من خلفه التفت يلقي عليها نظرة، ثم يستدير إلى سيرته الأولى، مستطلعًا للمكان من حوله.

لم تنطق بكلمة، لوَّحت بغنيمتها أمام وجهه، برقت عيناه شغفًا، قال:

- أين وجدته؟ بحثت كثيرًا في الكهف وفي الحقيبتين ولم أعثر عليه.

همَّ بأخذه منها، فأبعدت يدها بسرعة وأخفتها خلف ظهرها، قالت بصوت أكثر برودة من الأجواء المحيطة بهما:

- لماذا عليَّ أن أعطيك النصف الذي معي، لماذا لا تعطيني أنت النصف الذي معك؟

قال بجدية بالغة وهو يبسط كفه أمامها:

- هذا ليس الوقت المناسب لألعاب الأطفال، أعطيني نصف المفتاح.

كان يتحدث بثقة وتحدٍ، وأكثر ما تكرهه «حواء» أن يكون واثقًا بنفسه، ومتحديًا لها:

- لن أعطيك شيئًا، استمر في عنادك إذ يبدو أن حياة الأسر قد أعجبتك، عندما تشتاق إلى حُريتك فأنت تعرف مكاني.

قالتها ثم اعتصمت بالكهف، وتركته بالخارج أسير القيد والبرد والغضب.

***

أخبره أبوه أن المرأة كالرياح، رقيقة، ناعمة، بالطِيب تفوح، وبالهمس تبوح، وفي همسها ألف حكاية، علَّمه أن الرياح تسوق السفن، وتنثر البذور، وتدفع الطواحين، ومطالبتها بأكثر من ذلك جنون؛ فالرياح لا تحرك الجبال، ولا تدك الحصون، ولا تغزو الأراضين.. لكن المرأة الوحيدة التي فتح لها النوافذ والأبواب كانت إعصارًا يصفع، ولا تحمل في جعبتها سوى الهلاك.

لم يعرف من النساء سوى أمه، رأى رسمها في عيني أبيه، ووصْفها فوق أجنحة كلماته، ظن أن كل النساء هن أمه، فاشتهى وصلهن، والدنو من مجالسهن، لكنه لم يجرؤ على أن يكون صاحب الخطوة الأولى، وعندما دخل في كنف جده أصر عليه أن يدخل الجامعة، كلية التجارة، كرهها «يونس» كما لم يكره شيئًا من قبل، كانت دراسته وقودًا لوساوسه التي بدأت مع الأرقام.

رأى النساء كحديقة غنَّاء بامتداد البصر، أمامه آلاف الاحتمالات، ويجب أن يقف على اختيار وحيد، تلبسته الحيرة، أي الزهور يقطف، لم تنتهِ أفكاره الساذجة أن النساء ظل لأمه إلا بعد أن عاونه جده على اختيار قطفته الأولى.

وقف أمامها، بينما تجلس على أرض الكهف وتتخذ من الكشاف مصباحًا معلقًا فوق نتوء بارز بالصخرة الكبيرة، تهدمت قوانين المكان والزمان، فكلاهما مجهول، غير منطقي، قررا معاندة الطبيعة والسير في طريقهما بشكل عشوائي..

وعندما يتشتت المكان والزمان، تصبح المشاعر هي الشيء الوحيد الذي يمكن اتخاذه كدليل.

قال لها «يونس»:

- أنتِ هكذا دائمًا، الحياة بالنسبة لكِ لعبة حرب، يجب أن تخرجي منها حاملة راية النصر مهما خلَّفت وراءك من ضحايا، وهذا بالتحديد سبب فشل زواجنا.

انتفضت واقفة تصيح:

- من الضحايا؟ أنت؟ إن كنت أتخذ من الحياة لعبة حرب كما تقول فكيف تراها أنت؟ أنت كالمسافر الذي أجبره التدافع على أن يصعد القطار الخطأ في الوقت الخطأ، أنا وأنت لم نعش قط في نفس المكان والزمان، ولا نفعل الآن، ولن نفعل أبدًا.

سمع «يونس» ذات مرة من أحد الصيادين أن المجرمين في الماضي كانوا يستخدمون حيلة إلقاء سمكة رنجة حمراء في طريق الكلاب التي تطاردهم، حتى تُشتت رائحة الرنجة غريزة الكلاب عن مهمتهم في المطاردة، يحلو لـ«حواء» دائمًا أن تستخدم هذه الحيلة كسلاح أنثوي أصيل؛ فتتحايل وتُداهن وتتلاعب بإلقاء موضوع جديد في خضم ساحات الجدال؛ لتُشتت الرؤوس عن المسألة الرئيسية.

بلغ غضبه ذروته وهو يصيح بها مشيرًا نحوها بسبابته:

- لم نعش في نفس المكان والزمان لأنكِ لم تسمحي بذلك، كنتِ تلعبين معي لعبة الغميضة، أبحث عنكِ فلا أجدك، وإذا وجدتكِ تعاملينني كعدو.. لم تكوني معي كامرأة، بل كرجل ينازلني في حلبة مصارعة.. اعترفي بذلك، اعترفي بأخطائك ولو مرة واحدة فحسب.

وما ذنبها إن تربت على أن تخبئ أنوثتها كالخطيئة في قلبها؟ منعتها أبلة «عفت» من أن تتبع فطرتها، وأن تُنشَّأ في الحلية، حرصت على أن تقص لها الشعر كالأولاد، وتلفها بالخشن والقاتم من الثياب.. خافت أن تضيف ابنتها إلى فضيحة طلاقها عارًا جديدًا، تتغذى عليه الأفواه في مجالس النميمة؛ فوضعت لها قواعد صارمة للعِفَّة.

ما زالت تذكر يوم أن امتلكها الفضول لتزين وجهها بالألوان بين جدران غرفتها الأربعة، أسوة بزميلاتها في المدرسة اللائي يعشن في عالم مخملي لم تعرفه، لم تجد عصا سحرية تبعث في وجهها الألوان؛ فسرقت من أقلامها أحبارها، وتخيَّلت أنها تماثل ألوان زميلاتها في عالمهن المخملي..

شفاهها المخضبة بالحبر الأحمر ازدادت قتامة عندما انهالت أمها فوق وجهها ضربًا.. وفي الصباح عندما نظرت إلى المرآة قبل الذهاب إلى المدرسة كان وجهها يحمل الألوان التي أرادتها.. لكنها كانت مؤلمة، مؤلمة كثيرًا.

نفضت عن عقلها تلك الذكرى، وصاحت بحدة تلقي بكرة النار في منتصف أرضه:

- وماذا عن أخطائك، أم أنك منزه عنها، أنت لم تحاول أن تكون معي، لم تسع لذلك، ولم ترغب في ذلك، قلت بنفسك أنني الخطيئة الوحيدة التي ندمت على اقترافها.

ثم استطردت بصوت مرتعش:

- لا شيء في هذه الحياة يمكنه محو هذه الكلمات.

فضح ضوء الكشاف دمعة تترقرق، وألم يتفرَّق، يرتحل من القلب ليجد في كل جارحة مأوى، أردفت بكلمات أهالت التراب فوق بكاء موءود:

- إن كنتُ خطيئتكَ، فأنت عقابي!

{٢}

الفضول لم يقتل القط، بل العناد، إصراره على السير في طريق يورده المهالك هو سبب ما حلَّ برأسه من بلاء، الفضول شيطان مريد، يغوي فحسب، ثم يترك العمل كله على عاتق أتباعه من أبالسة العناد.

هو يتمسك بالنصف الذي يمثل له قوامة ورجولة لا يجب أن تتقهقر أمام امرأة، وهي تتمسك بالنصف الذي يمثل لها ذاتها وكرامتها التي لا يجب أن تنهزم في حضرة رجل.. كل منهما يتمسَّك بنصف حرية، ونصف أسر!

قوتان كل منهما تجذب حبل النجاة في جهة مضادة، وإن لم يتوقف أحدهما عن الجذب؛ سيتمزق الحبل!

ليلة أخرى كان للأرق فيها اليد العليا، غزلت السماء خيوط النور الأولى بخيوط الظلام الأخيرة، ثم ألقت على الكون برداء الصباح، فوجئت به يدخل الكهف، اعتدلت في نومتها، ثم شعرت بضيق كافٍ جعلها تعتدل جالسة، إن كان سيصر عليها لتعطيه نصف المفتاح؛ فسيجدها جدارًا صلبًا لا يصلح إلا ليضرب به رأسه.

مال «يونس» نحو الصخرة واتخذ منها متكأ ليده، كان حازمًا حين قال:

- لن ينجح الأمر بهذه الطريقة، يجب أن نصل سويًا إلى اتفاق.

أراحت «حواء» كفيها فوق خصرها، غير مستعدة لتقديم أي تنازل، استطرد:

- فلنعقد هدنة.

رمقته «حواء» بدهشة لم تخل من سخرية التقطتها عيناه، وترجمها عقله؛ فأردف لسانه:

- فلنتصور أننا اثنان لا يعرف أحدنا الآخر، جمع بينهما القدر في مكان مجهول، عليهما أن يتعاونا معًا من أجل النجاة بحياتهما.

أعجبها مقاله، لكنها كرهت أن تشعره بذلك، فأضافت إليه:

- اثنان لهما نفس الحقوق وعليهما نفس الواجبات، أي أنك لست قائدًا لتأمر، وأنا لست تابعًا لأنفذ.. اتفقنا؟

قالتها ومدَّت له كفها الأيمن لا تدع له فرصة للاعتراض، فعاجلها بيمناه مصافحًا، دون أن يخفى عليها ما تبدَّى فوق وجهه من أمارات ضيق، وقال مصدقًا:

- اتفقنا.

مدَّ يده بنصف المفتاح، دون أن ينطق بشيء، لم تفهم ما الذي عكف سواد الليل على تغييره في عقل «يونس».. لكنه تغيير للأفضل.

أتت بنصف المفتاح الذي تملكه، وباستخدام المادة اللاصقة التي وجدها «يونس» في الحقيبة أصبح النصفان واحدًا صحيحًا، احتاج الأمر لبعض الوقت حتى تجف المادة اللاصقة تمامًا، إذا انكسر المفتاح في القفل فستنكسر معه كل آمالهما في النجاة.

أصابعها ترتعش مخافة أن تخطئ في دفعه فينكسر، في الأحوال العادية ما كانت لتطلب من «يونس» المساعدة، ولا أن تسمح له بذلك، لكن مبادرته في منحها نصف المفتاح دفعتها لأن توافق على الفور عندما قال:

- أعطيني إياه، سأفتحه.

تعلَّقت عيناها بأصابع كفه، المفتاح يسكن بيته في القفل، وببطء لا يخلو من الحزم يدور في موضعه، ثم صوت «تكة» شعرت أنها أجمل من تغريد البلابل وزقزقة العصافير.. أخيرًا انفتح باب القفص، وفرد العصفور جناحيه ليحلق في السماء، أعادها «يونس» إلى الأرض إذ قال:

- ليس الآن، سنتحرك بعد الشروق، حتى تكون الرؤية واضحة.

بدا لها تفكيره صائبًا، أومأت برأسها ثم جلست تستند إلى الصخرة بظهرها.

رأته يهم بالخروج من الكهف، فقالت:

- إن أردت.. يمكنك البقاء هنا.

لم يرُد، ولم يلتفت، ولم يبق.

حدث ذلك في عقلها فحسب، مشهد مستقبلي قتلته في مهده، ولم تجرؤ على أن تجره إلى أرض الواقع.

هدنة إذن! إن كانت تعرف شيئًا واحدًا عن «يونس»، فهو عِشقه للسير في حذاء قبطان السفينة، لن تدع له بابًا مفتوحًا لذلك أبدًا، فالصحراء لا تحتاج إلى ربَّان.

لا تحتاج الصحراء إلى ربَّان لكنها تحتاج إلى دليل!

هذا ما فطنت إليه «حواء» وهي تسير برفقة «يونس» لساعات طويلة، لا يصحبهما فيها سوى الجوع والعطش، وشمس تودعهما عند أبعد نقطة يختلط فيها الأزرق بالأصفر، يحملان الحقيبتين فوق ظهريهما.

تكاسلت عيناها عند تفاصيل صبارة يافعة، بجوار أخرى تكبرها حجمًا، الصبارة الصغيرة على حداثة عمرها إلا أنها تملك أشواكًا كأي صبارة ناضجة،

تذكرت يوم أن قال لها «يونس» متممًا أحد شجاراتهما -إذ إنه مغرم بأن يكون له دائمًا الكلمة الأخيرة-:

- إن كان العالم حديقة أزهار شديدة التنوع، فأنتِ فيه مثل صبَّارة.

وقتها تملكها الغضب، واستقبحت إهانته، لكنها الآن ترى الأمر بعيون جديدة لم تملكها من قبل، رغم أن «يونس» أراد بكلماته ذمًا لا مدحًا، فإن الصبار يخزن الماء في عروقه الثخينة، ويملك أشواكًا بدل الأوراق التي تستهلك الماء، أي أن امتلاكه للأشواك ليس رفاهية، ولا قبحًا، بل تلبية لحاجات الطبيعة، تمامًا كوسائلها الدفاعية التي تحمي بها نفسها من طبيعة الحياة القاسية.

هذا ما دفع أمها لتزرع في جسدها الأشواك، أرادتها أن تكون صبارة في مواجهة تقلبات الطبيعة، أرادتها أن تصمد في وجه الصعاب.. آلمتها الأشواك نعم، قتلت أنوثتها نعم، لكنها عززت من قدرتها على الصمود في مواجهة الحياة.. لذلك لم تستطع أن تحقد على أمها مثلما حقدت على أبيها.

صدق «يونس»؛ فما أشبهها بالصبارة.

أسقطها التعب أرضًا، تذمرت:

- هل سنسير إلى الأبد؟

- توقفي إذن.

قالها «يونس» ببساطة، أكمل المسير دون أن ينظر خلفه، صاحت به مبهوتة:

- أتتركني هنا وحدي؟

التفت يمنحها نظرة من فوق كتفه، قائلًا بمكر:

- ألم تقولي أنكِ لستِ بحاجة إلى قائد؟ لماذا عليَّ أن أعتني بكِ؟

وقفت بصعوبة، رفعت رأسًا شامخًا وقالت:

- صدقتَ، أنا لست في حاجة إليك، ولن أكون أبدًا.

استيقظ بداخله وسواس العَد، كان من الصعوبة أن يمارس حاجته القسرية مع الرمال، لذلك بدأ في عد الكثبان الرملية، والجبال ، والحجارة، عند الرقم خمسة وستين صاح «حواء» بصوتٍ جهوري أفزع أرقامه فهربت من رأسه؛ سألها بغيظ:

- ماذا هناك؟

أشارت إلى إحدى الصخور وقالت:

- رأيتُ رجلًا يتحرك خلف هذا التل الرملي.

ما كان باعثًا على فزعها حرَّك في نفس «يونس» الأمل في الخروج من هذه الصحراء، لعل الرجل يساعدهما على إيجاد طريق يركبان منه سيارة إلى أقرب مكان مأهول بالأحياء. اقترب بحذر من التل الرملي الذي أشارت إليه؛ فرأى الفراغ ينتظره هناك ضاحكًا، عاد إلى «حواء» وأشار إليها ليستكملا سيرهما مرة أخرى. أصرَّت لتبدد حرجًا شعرت به:

- لقد رأيتُ رجلًا بالفعل، لم يكن سرابًا أو توهمًا.

لم ينطق «يونس» بشيء، وماذا يقول لامرأة اعتادت أن توقظه ليلًا لأنها ظنت رؤية فأر يمرح بداخل بيتهما، وبعد بحث وتفتيش يستغرق ما يقرب من ساعة لا يجد سوى فراغ يسخر منه، تمامًا كما سخر منذ قليل.

كادت «حواء» تجزم أنه يفكر الآن في اليوم الذي أيقظته وقد توهمت رؤية فأر، تكاد تقسم أنه يضحك منها سرًا، ويتهمها بخفة العقل، كما فعل يومها.

جفَّ حلقها، وقرص الجوع معدتها، تحملها ساقاها بشق الأنفس، لكنها تُفضل الموت على أن تطلب منه فسحة من الراحة.

سراب! لماذا لم تفكر في ذلك من قبل؟ لا تملك معلومات علمية كثيرة حول السراب وطبيعته، هل هو مجرد صورة وهمية تتبدى للإنسان، أم قد تتجاوز

الصورة حاسة النظر إلى باقي الحواس الأخرى؟ هل من الممكن أن ما تعيشه الآن هو مجرد سراب أوهمها به عقلها؟!

من بعيد، لاح لهما رجل يقود سيارة عفية تصلح لهذه الأجواء، مُقبِلًا نحوهما بتمهل؛ يجهلان هل يحمل في جعبته وعدًا بالفرَج، أم وعِيدًا بالخطر!

{٣}

«يونس» تسحره الأشياء القديمة، صنع بيديه صندوقًا خشبيًا كبيرًا منذ سنواتٍ عَشر، من ركام مركب قديم وجده عند شاطئ بحيرة «البُرُلُّس»، يجمع فيه «الأشياء»، شرط واحد يجب أن يتحلى به هذا «الشيء» ليصير «شيئًا» في دستوره، أن يجود به قاع بحيرة «البُرُلُّس».

منذ أن فارق البحيرة، زهد معها هوايته الأثيرة، وكأن الموجودات تفقد أهميتها إن لم تتطهر أولًا بمياه بحيرته المقدسة.. تساءل في نفسه: هل كان عليه أن يغمس «حواء» في ماء البحيرة لينبض بحبها قلبه؟ لماذا لم يفكر في ذلك من قبل!

لا يزال يشرب قهوته في كوب تقليدي زجاجي، كان يخص أباه في الماضي، يرى أن الكأس هي نصف الشراب، لذلك يولي كوب أبيه من اعتزازه وعنايته الكثير. لكنه الآن مضطر لأن يقبل بهذا الكوب المتسخ بأشياء الله وحده أعلم بها، فقط لأن مشروبًا دافئًا يتصاعد من فوهته ليبدد برد ليلته، وينعش أنفاسه. شربت «حواء» ماءً حتى ارتوت، لكنها ردَّت يد الغريب بتهذيب، رافضة أن تشرب من السائل المجهول، حتى إن كانت رائحته غير منفرة كما يبدو مظهره.

على مسامع الغريب الذي استضافهما في خيمته الكبيرة المنصوبة في العراء كان أول سؤال ألقاه «يونس» يخص المكان:

- أين نحن؟

أما «حواء» فاهتمامها كان منصبًا على الزمان:

- ما هو تاريخ اليوم؟

قدَّر «يونس» سنوات عمر الغريب بنحو الستين، وقدَّرتها «حواء» بخمس وستين، وكانت الفائزة بلعبة التخمين.. أسمر البشرة، له مظهر غير مألوف، يتحدث بلكنة غريبة على مسامعهما، تشبَّه لهما في بادئ الأمر بالبدو الذين يعيشون في صحراء «سيناء»، فكان هذا أول ما وقع في نفسيهما، هما في «سيناء» إذن!

أي ريح عجيبة حملتهما من بيتهما في «كفر الشيخ» وألقت بهما في صحراء «سيناء»؟!

لم يجبهما الغريب في الحال، بدا لهما أنه لا يهتم بسؤاليهما، أو لعله لا يصدق أنهما يجهلان حقًا المكان والزمان، هل يذهب المرء إلى مكان يجهله، خاصة إن كان هذا المكان صحراء كبيرة بامتداد البصر؟

لم يكن بداخلهما طاقة كافية للحديث، كل ما أراداه هو طعام مستساغ، وشراب دافئ، ومكان يسقطان فوقه جسديهما ليُسلما روحيهما طواعية لسُلطان النوم.

جاد عليهما الغريب بالمُراد، وزاد عليه بغطاءين يقيانهما صقعة ليل الصحراء، التحف كل واحد منهما بغطائه، ووضعا رأسيهما في أقرب موضع يصلح لنوم يتخلله كوابيس مزعجة، عن صحراء واسعة كعرض البحر، ووحوش تطاردهما من أجل وجبة عشاء.

الليلة، الليلة، الليلة يا سمرا يا سمارة، الليلة يا سمرا..

لا أنا كنت بَرَّه ولا مهاجر، أنا اللي جايلِك مِن باكِر..

جَلبي ولا البحر الهادر، عيني ولا الجَمرة الليلة..

الليلة، الليلة، الليلة يا سمرا يا سمارة، الليلة يا سمرا..

انبعثت تلك الكلمات من جهاز راديو قديم يعمل بالحجارة، يسكن إحدى زوايا الخيمة؛ لتكون أول ما يصافح أذن «يونس» عند استيقاظه، علم بالوقت من مدى تأخر الشمس عن التربع فوق عرشها في السماء.. رغم كل التعب الذي استبد به يوم أمس، فإن ساعته البيولوجية كانت دقيقة بما يكفي كي لا يفوت وقت البكور، الفجر هو التوقيت الرسمي لاستيقاظ «يونس» من نومه منذ أن كان ابن السابعة، بُعده عن «البُرُلُّس» لم يقو على إلهاء عقارب ساعته.

نسمات باردة تدخل الخيمة بغير استئذان، بحث بعينيه عن «حواء»، النوم يحكم قبضته عليها، لكن الغطاء المهترئ لم يعد محكمًا حول جسدها كما ينبغي، تردد للحظة، قُبيل أن يرفعه ليضبطه، ثم يلقي عليها بغطائه، فـ «حواء» تكره البرد.

رأى الغريب يجلس على بُعد أمتار من الخيمة كما لو كان حارسًا لها، تفحصه تحت وضح النهار، يرتدي ثوبًا أبيض قصيرًا، تحته سروال من اللون ذاته، وصديري ملون.

لا يقف «يونس» على سبب مؤكد، إلا أنه شعر بالخطر، بالطبع هو يشعر بالخطر منذ أن استيقظ في قلب الكهف، إلا أنه هذه المرة كان مبعثه الرجل الغريب قليل الكلام؛ فالمجهول متهم دائمًا حتى يثبت حُسن نيته.

خَلِّي النَدى مِن أحلامِك، يِسْقي النبات من أيامِك..

حُطِّي اللي خالفِك قُدَّامِك، تِلقي البلد عامرة الليلة..

الليلة، الليلة، الليلة يا سمرا يا سمارة، الليلة يا سمرا..

فركت «حواء» عينيها ببطء، تحملت آلام جسدها إثر النوم على رمال لا يفصلها عنها سوى رداء رقيق، نسيت للوهلة الأولى ما حدث بالأمس، أصابها الذعر عندما جالت عيناها في المكان، خيمة، ورمال، وأكواب متسخة، وبعض الأغراض غير واضح فيما تُستخدم. ثم استيقظت ذكرياتها واحدة تلو الأخرى، الكهف، والصخرة، والصحراء، والسير الطويل، والجوع، والظمأ، والغريب، والنوم في خيمته.. أين «يونس»؟

خرجت من الخيمة فرأته يسترسل في الحديث مع الغريب، فاقتحمت خلوتهما تلتقط مسامعها أطراف الحديث، كان «يونس» يقول وهو يلتفت نحوها ليلقي عليها نظرة قصيرة، ثم يتوجه إلى الغريب بجل اهتمامه:

- وهذا كل ما حدث معنا حتى قابلتنا بالأمس.

فهمت أنه يقص على الغريب قصتهما العجيبة، قرأت فوق وجه الغريب أمارات الترقب؛ فاستنفرت جيوش الغضب بصدرها، لو اتهمهما بالكذب فستقذفه من الكلمات القاسيات ما يستحق، لكن بصيصًا من التعقل طلب منها التمهل، فالرجل هو ملجأهما الوحيد في هذا المكان المقفر، ولو غضب عليهما فالموت مصيرهما المحتوم.

استطرد «يونس» وقد بدا نشيطًا؛ نزع النوم عن كتفيه كل إرهاق الأمس:

- والآن أخبرني، أين نحن؟

لم يجب الغريب في الحال رغم تعلق زوجين من العيون بالكلمة التي ستنطقها شفتاه، فرك جبينه ليمسح عنه عرقًا وهميًا ثم قال بغموض موجهًا حديثه إلى «يونس»:

- إن كنت كاذبًا فتلك مصيبة، وإن كنت صادقًا فالمصيبة أكبر.

فرك «يونس» ذقنه بقوة، تعرف «حواء» أنها حركة تلقائية يفعلها عندما يتوتر؛ فأصابها من التوتر بعضه، سأله «يونس»:

- لماذا مصيبة أكبر، بإمكانك أن تدلنا على طريق نذهب من خلاله إلى أي مكان به هاتف، ما دمتَ لا تملك هاتفًا كما أخبرتني بالأمس، وسنقوم بالاتصال بأهلنا في «كفر الشيخ»، يرسلون لنا سيارة لأخذنا.

ثم أضاف وقد فطن للأمر:

- وطبعًا لك مكافأة على مساعدتنا، فلن ننسى معروفك.

ندم «يونس» في الحال، فقد استحال وجه الرجل جمرة مشتعلة، اختلط سواد بشرته بشررها، وصاح بقسوة عاتية:

- وهل أكرمتك لتُهينني؟

أسرع «يونس» بالاعتذار، والتوتر قد بلغ أقصاه، حاولت «حواء» مساعدة «يونس» على الخروج من المأزق؛ فقالت للغريب تصطنع ودًا لا تشعر به:

- أرجوك لا تؤاخذنا، فنحن لا نقصد إهانة رجل كريم مثلك، فتح لنا خيمته وأعطانا من طعامه وشرابه، أعتذر لك باسم «يونس» فهو دائمًا ما يسيء التعبير.

ندمت هي الأخرى على حديثها عندما تحول وجه «يونس» إلى جمرة لا تختلف كثيرًا في حرارتها عن وجه الغريب، نظر إليها نظرته إلى فطر سام تطفل على مائدة طعامه، وأشار إلى الخيمة يقول:

- «حواء» ادخلي الخيمة.

استفزتها كلماته، فجابهته بعناد قائلة:

- من أنت لتأمرني؟

أشار ثانية إلى الخيمة، يغالب الغيظ المشتعل بصدره؛ لئلا يهشم رأسها في أقرب صخرة، قال:

- «حواء» ادخلي الخيمة.

امتطاها شيطان العناد، صاحت بحدة:

- لن أدخل، وإياك أن تأمرني مرة أخرى، أنا لستُ....

قطع عبارتها قول الغريب:

- هل أنتما زوجان؟

التفتا نحوه، كاد كل منهما يجيب قائلًا «لسنا كذلك»، إلا أن الغريب استطرد بسرعة:

- إن لم تكونا زوجين فأخبراني في الحال، لأنني لن أسمح لكما بالبقاء معًا في خيمتي، وستضطر الفتاة إلى المغادرة.

ثم استطرد بحزم، ينقل نظره بين وجهيهما:

- هل أنتما زوجان أم لا؟

سكتا سكتة طويلة، لا يجرؤ أحدهما على الجواب، إن أجابا بالنفي فهذا معناه أن تضيع «حواء» وحدها في الصحراء، فهل «يونس» من القسوة لأن يفعل ذلك؟ هل يكرهها إلى هذا الحد؟ مِن صفحة وجهه حاولت أن تقرأ خبره، لم ينظر نحوها، وعندما همَّ بالجواب؛ دعاها داعي الخوف، هل سيلقي بها في فم المجهول فقط ليأخذ انتقامه منها على زواجهما الذي يحملها وحدها مسؤولية فشله؟

- زوجتي.

اكتفى بهذا الجواب المقتضب، لكن قلبها لم يكتفِ من دقاته المتسارعة، ضايقها أن تصبح مدينة لـ «يونس» بحياتها، فكلمة واحدة منه فيها ضياعها، وكلمة أخرى

فيها نجاتها، تمامًا كما أن رجوعها إلى عصمته مرهون بكلمة واحدة ينطقها «يونس» دون اعتبار لرغباتها؛ كرهت أن يمتلك بين يديه مصيرها، كرهت ذلك كما لم تكره أي شيء من قبل.

أجاب الغريب أخيرًا السؤال الذي أرق مضجعهما، لكن علمهما بالجواب أصابهما بدهشة بالغة:

- نحن في أقصى الجنوب.

سأله «يونس» يحثه على المزيد من التوضيح:

- أين تحديدًا؟

- في «وادي العَلَّاقي».. عند الحدود الجنوبية بين «مصر» و «السودان».. أي نحن الآن في «أسوان».

قفز على الفور السؤال الأهم إلى رأس «يونس»، من الذي أحضرهما إلى «أسوان»، ولماذا فعل؟ أما «حواء» فألقت مرة أخرى بسؤالها الأهم على مسامع الغريب:

- ما هو تاريخ اليوم؟

هز كتفيه قائلًا بلا مبالاة:

- لا أعرف.

صاحت به:

- ماذا تقصد بأنك لا تعرف؟ كيف لا تعرف؟

أثارت فيه غضبًا كامنًا، فزمجر يقول وهو يشير إلى المكان من حوله:

- أنا أعيش في الصحراء منذ وقت طويل، ولا يعنيني كثيرًا أن أعرف تاريخ الأمس أو الغد.

قالها ثم ولج خيمته، تركت قدميه آثارًا غائرة فوق الرمال، وتركت كلماته آثارًا من الدهشة فوق وجهيهما.

لم يقو الماء على محو الشيب من رأسها، وضعت كل آمالها في أن التراب مبعث اللون الأبيض، أو مادة جيرية علقت بشعرها في الكهف، لكن تبخرت كل آمالها وذهبت أدراج الرياح، ازداد شعورها بالوهن، تئن كل عظمة في جسدها تجهل إن كان إرهاق السير هو المتهم، أم عمر لا تذكره، كيف للوقت أن يمر دون أن تعيشه بوعيها؟

جلست في ركن الخيمة بعد أن غادرها الغريب، ترثي أيامها الموءودة.

- هذا الرجل كاذب.. هل يمكن أن يجهل التاريخ حقًا؟

قالتها لـ «يونس»، فلم يمنحها جوابًا مطمئنًا.. فأردفت تستهجن فِعل الرجل:

- رجل مجنون.. كان سيلقي بي في وسط الصحراء إذا علم أنني لستُ زوجتك، هل يفعل ذلك رجل عاقل؟

لم يشاركها في تذمرها، انشغل بالعبث بأغراض وجدها تقبع في زاوية الخيمة، وفي الوقت نفسه يلقي كل حين نظرة على فتحة الخيمة، إذ ادعى الغريب أن أمرًا هامًا يستدعي ذهابه في الحال، وأنه سيعود مع غروب الشمس، دون أن يقدم لهما تفسيرًا أكثر مما قال، حثته «حواء» قائلة:

- «يونس» هل تسمعني؟ أنا أتحدث إليك منذ الصباح.

ترك ما يعبث به ودنا منها يحك ذقنه، قال:

- ليس ما يحيرني تصرف الرجل فحسب، بل الأدوات التي تمتلئ بها خيمته، وكأنه يبحث عن شيء ما في الصحراء.

قالت بصوت خفيض وكأن للخيمة آذانًا تسترق السمع إليهما:

- يبحث عن شيء... مثل ماذا؟

رفع «يونس» حاجبيه مجيبًا بحيرة:

- لا أعرف.

أخذت نفسًا طويلًا ثم أولته جل اهتمامها قائلة:

- دعنا نرتب أفكارنا معًا لكي..

أنزل حاجبًا، وأبقى على الآخر في عليائه، قاطعها:

- هل ما فهمته صحيحًا، تحتاجين مساعدتي؟

لم يكن الخلاف بينهما اختلافًا عاديًا بين شخصين، بل اختلاف قديم قدم الأزل بين ثنائية الرجولة والأنوثة، ثنائية خاضت غمار معارك كثيرة عبر الأزمان حتى وصلت إلى عصرنا الحالي منهكة القوى.. على الطراز الأنثوي الحديث أبت أن تعترف بحاجتها إليه، أقرّت أن في الصمت أبلغ جواب؛ فاتخذت منه ساترًا منيعًا تتضارب حوله الأقوال.

❁❁❁

لم يعمد إلى ترتيب أفكاره معها لكنه فعلها وحده، وقف بقرب الخيمة لدقائق معدودات، ثم طفق يقطع مسافة خمسين مترًا مجيئًا وذهابًا. لا يضايقه لهيب الشمس فوق جسده بقدر ما تفعل الحيرة برأسه، لم يقتنع قط بالشيب المختلط بسواد شعره، لا يمكن أن يمر الزمن بجسده دون عقله!

قليل من الصبغة قادر على أن ينقل شعره بين ألوان الطيف السبعة، ودرجاتهم، تمامًا كما فعلت «حواء» بشعرها واختارت لونًا يثير جنونه، على ثقة من أنها اختارته لأنها أحبت إثارة هذا الجنون.

والغريب الذي يبدو غريبًا بحق، يتفنن في إصابته بحيرة تدير الرؤوس.

«بر إي لق»!

قفزت هذه العبارة برأسه فجأة، ووجدت بداخله مستقرًا ومقامًا، هل من الممكن أن تكون هذه التهديدات لها علاقة مباشرة بما يحدث معه؟ ولكن كيف؟ ولماذا؟ هل قام مرسل الخطابات بترتيب أمر خطفه و «حواء»، ووضعهما في هذا المكان الموحش ليمنعه من توقيع العقود مع الشركة الأوروبية؟ كانت لتقفز ثقته في هذا الاستنتاج إلى نسبة مائة بالمائة، لكن ما جعله ينقص هذه النسبة بمقدار النصف هو أنه ليس الوحيد المخول له التوقيع، فبإمكان الجد «سُلطان» أن يحل محله، بل في الواقع «يونس» هو الذي يحل محل الجد عن طريق توكيل عام من الجد، أي أن صاحب الشأن الذي بيده الأمر والنهي هو الجد «سُلطان»، دفع هذا بتساؤل مخيف إلى رأسه، هل فعل هذا المبتز المجهول بالجد «سُلطان» فعلته به؟ هل ألحق به الأذى؟ هل من الممكن أن يكون غريب الصحراء هو الخاطف نفسه؟

لم يتحمل هذا القدر من الوساوس، ولَجَ إلى الخيمة، تابعته «حواء» بفضول بينما يفتش في أركانها شبرًا شبرًا، هو بحاجة إلى دليل، أي دليل يثبت صحة استنتاجاته.. أو ينفيها، شكوكه في الغريب تتزايد، لا لشيء إلا لكونه أول من عثر عليهما، ثم ما الذي يجعل رجلًا في عمره ينصب لنفسه خيمة في وسط الصحراء!

تابعت «يونس» بعينها لدقيقتين، أصابها الملل فاستلقت فوق رداء مهلهل، واستدعت من خيالها رجلًا واضح الملامح لتبارزه بسيفها، وما بهت من ملامحه أكملته بخيالها، أباها الذي يسكن ذكرياتها أكثر مما يفعل أي شخص آخر، وكأنه امتلك من عقلها بضع خلايا بوضع اليد، ولا شيء قادر على زحزحته من موضعه،

تكرهه أكثر مما كرهت أي شخص من قبل، أكثر مما كرهت «يونس».. كان الرجل صلدًا لا يُهزم بسهولة، لكن من ذا الذي ينجو من بطش انتقامها، قاتلت بضراوة حتى قطعت رأسه وعلقته على نصل سيفها.

كادت تعيد الكرة، وتستدعيه مرة أخرى لتزجي الوقت بقطع أوصال الرجل الذي يستقر في أكثر نقطة مظلمة من نفسها، لكن رجلًا آخر أطلق صيحة جعلتها تنتفض في مكانها.

دَنَت من «يونس» تسأله بلهفة:

- ماذا وجدت؟

ما عثر عليه فاق له كل توقع، قطع من الصخور المطعمة بالذهب يحتفظ بها الغريب مغلفة بأقمشة بالية!

سألته «حواء» والدهشة لا تفارقها:

- ما هذا؟

لم يجبها، ترك الصخور كما كانت، وأشار إليها لتتبعه قائلًا:

- هيا، سنرحل من هنا.

تبعته «حواء» وهي لا تفهم شيئًا، لكن أمارات وجهه أوحت لها بالخطر، صاحت به:

- أخبرني يا «يونس» ما معنى ذلك؟

- «حواء» سيري بصمت.

بدا عليه تفكير عميق، وخوف استطاعت «حواء» أن تراه متسلقًا لأسوار عينيه.. ما الذي أخافه إلى هذا الحد في قطع حجارة مختلطة بالذهب؟!

- لا أفهم، لماذا كان علينا أن نترك الخيمة ونرحل؟

لم يجبها، ظلَّ على وجوم وجهه، يسير في الاتجاه نفسه الذي سار فيه الغريب عندما فارق الخيمة، يظن أنه سار في أكثر الاتجاهات قربًا إلى المدينة.. حاولت «حواء» عبثًا أن توافق سرعته، قالت لاهثة وهي تحاول أن تقلص المسافة المتزايدة بينهما:

- توقف يا «يونس»، اشرح لي ماذا يحدث.

لم يفعل، بل حث قدميه على المزيد من السرعة، كانت رياح الصحراء تعاكسه وكأنها لا ترغب في أن يكمل الطريق في الاتجاه الذي اختاره، قال متأففًا:

- لا وقت لدي يا «حواء» للاستماع إلى ثرثرتك، تقدمي أسرع، أصبحتِ تسيرين كالمسنين.

صرخت به وكأن مسًا من الجنون أصابها:

- أنت تفعل هذا دائمًا، لا تشرح لي أي شيء، لا تخبرني بأي شيء، أنا لستُ بقرة تملكها وتسحبها خلفك أينما شئت، وكيفما شئت.

- لا وقت لدي للشجار معكِ.

أصابها التجاهل في مقتل، واستأسد عنادها وتجبَّر، كيف يعاملها ككم مُهمل! أقسمت بأغلظ أيمانها ألا تسمح له أن يكرر معاملتها بهذه الطريقة.. أبدًا.

انتهت الهدنة.. بدأ «يونس» حربًا جديدة، والبادئ بالكِبْر أظلَم.

القليل من الماء والطعام الذي يحمله في حقيبة الظهر لم يكن كافيًا في نظره إلا ليوم واحد فحسب، ورغم ذلك يرى أن الابتعاد عن الخيمة أكثر أمانًا من المكوث فيها، تُرى هل الموت هو مصيره المحتوم المكتوب في صحيفة أقداره منذ أن استيقظ في بطن الكهف مقيدًا بالأصفاد؟ هل ما فعله خلال تلك الأيام ما هو إلا محاولة إنسان قليل الحيلة للهرب من نهاية حتمية يقف فيها الموت على بعد خطوات منه.. لا يمكنه التحايل على النهايات، لكنه أيضًا لا يستطيع أن يقف في مكانه وينتظر ملكًا موكلًا لقبض روحه، لا يستطيع أن يكف عقله عن السعي للنجاة حتى إن كانت محاولات عابثة كسمكة تنازع في سبيل قطرة ماء.

لا تستهويه صراعات البقاء التي يعيشها الناس كل يوم من أجل كسب المغانم أو المحافظة عليها، يعيش يومًا بيوم، ولا يدخر للغد سوى الترقب فحسب.. لكن صراع اليوم مختلف، ليس من أجل مكاسب دنيوية أو متاع زائل، بل من أجل روحه، أغلى ما يملكه الإنسان.. منذ زمن طويل لم يتسلَّح بالإصرار لخوض معركة ما، الأدرينالين الذي سبح في عروقه منحه مشاعر متوهجة لم يعتدها منذ فارق بحيرته المقدسة.

لم يفكر «يونس» في الموت من قبل، لم يكن ضيفًا يكثر التطفل على مائدة عقله، لا يخشى الموت، ولا يحبه كذلك، بل شعوره نحوه بين بين، مر بخاطره ما قالته له «حواء» يومًا:

- أنت لا تذهب أبدًا إلى أقصى اليمين، ولا إلى أقصى اليسار، بل تقف تمامًا في منتصف الطريق وتكتفي بما قطعته من خطوات، أنا أكره حالتك هذه يا «يونس».

لم يفهم يومها، كيف أن حالته هذه لا تعجبها، هل يجب أن يكون هستيريًا مثلها ليحوز رضاها! فليتقلب رضاها في دركات الجحيم إذن! رجل مسالم هو، لم يسع

ليكون قرشًا أو حوتًا، رجل يعيش على الصراط دائمًا، بين الكثير والقليل، الرضا والسخط، الفخر والندم، الوجود والعدم.

أما هي فلا تكتفي بحد الكفاف، بل تسعى بكل طاقتها إلى أن تسير في الطريق إلى نهايته، حتى عندما يصلان في شجاراتهما العديدة إلى خط النار، كان يتمنى عندما تتوقف، أن تصمت وتبتعد، وألا تخطو خطوة واحدة أكثر، سيكون موردها التهلكة، لكنها لا تعرف أبدًا حد الكفاية، تذهب إلى أبعد نقطة من الممكن أن يصلا إليها، حتى يرهقهما الغضب، ويسقطهما التعب، «حواء» لا تكتفي إلا عندما تتلاشى وتنتهي!

بعد سير مديد قاربت خلاله الشمس على معانقة الأفق، أدركهما الغريب يشق الرمال بعجلات سيارته، ويطبع فوقها وسمًا يحمل لهما الكثير والكثير من الخطر.

سيندم، ستجعله يندم، وإن لم يندم، ستجعله يفقد صوابه، الندم أو الجنون، أيهما أقرب!

لم تجد معنى لاحتقاره المستمر لآرائها، حديثها، أوهامها، أحلامها، يحتقر كل ما فيها.. الناس يبحثون عن السعادة، أو النجاح، أو المال، أو الحب، أما هي فتبحث فقط عن «المعنى»، وعندما لا تجده تفقد خريطتها النفسية تماسكها، تنقلب عاليها سافلها، تضيع بوصلتها، تتشتت اتجاهاتها الستة، فوق ، وأسفل، أمام، وخلف، يمنة، ويسرة، المعنى هو بوصلتها في الحياة.

«يونس» يأتي لها بكل ما يحجب المعنى عن إدراكها، يقذفها بأوامره ونواهيه دون أن يقدم لها المعنى الذي يتخفى وراء أفعاله، لعلها لذلك السبب كرهته، «يونس» لم يسع يومًا لأن يقدم لها المعنى، تمامًا كما حمل لها هجر أبيها الكثير من اللامعنى..

هل تُراه قدَّم هذا المعنى إلى المرأة التي طوَّقت خنصره بخاتمها؟ التفكير في هذا ملأ جوفها بطعم الحنظل.

سمعت صوت سيارة الغريب تندفع نحوهما من الخلف، فكَّرت بحواسها الخمس، في اتجاهاتها الستة، خانها المعنى، فلم تعرف في أي الجهات تكون النجاة!

{٤}

- أنا المسؤول عنكما، ستعملان تحت إمرتي مقابل طعامكما وشرابكما ومأوى لكما تحت سقف خيمتي.

هذا ما كان يخشاه «يونس» منذ أن رأى الحجر المختلط بالذهب، الغريب لم يكن سوى أحد المنقبين عن الذهب في «وادي العَلَّاقي» عند الحدود الجنوبية لـ «مصر»، ويعرف «يونس» أن هذه المنطقة لا يُسمح بالتجول فيها بغير تصريح مُسبق من حرس الحدود، ووجوده برفقة «حواء» في هذه المنطقة الحدودية بغير إذن رسمي هو سبب كافٍ لتقديمهما إلى محاكمة عسكرية!

يعرف أيضًا بأمر المنقبين المتسللين والمخالفين للشروط والقوانين التي تخضع لها هذه المنطقة الحدودية، وأكثر ما يخشاه الآن أن يكون الغريب نفسه موجودًا فوق هذه الأرض بغير تصريح، الآن تساوى خطر البقاء مع خطر الرحيل إذن.

شرح لـ «حواء» بكلمات مقتضبة عمل المنقبين عن الذهب في الصحراء الشرقية، متجنبًا ذكر التصريحات الرسمية وخطر القبض عليهما من قبل حرس الحدود، فأحال الخطر فوق وجهها بوشاح الخوف، وكان الجزء الأسوأ لا يزال في انتظارهما، قال الغريب:

- بهذه الآلة ستنقبان معي عن الذهب، وبقدر ما تستخرجانه من الأرض ستحصلان على طعام وشراب.

الآن صارا مجبرين على العمل في وادي الذهب مع الغريب الذي امتنع عن البوح بالتاريخ وكأنه سر استيراتيجي، الخيار الآخر لم يكن أقل سوءًا، فشيطان الجوع الذي لا يرحم يتربص بجسديهما ليمزقه بمخالبه، عليهما أن يخوضا صراعًا جديدًا من أجل البقاء.

جهاز التنقيب عن الذهب لم يكن سوى بطارية ووصلة وسماعة وطبق وماكينة، يتحرك يدويًا كعصا المكنسة فوق الأرض بعد ضبطه على ذبذبات محددة، ما إن يتشمم الجهاز رائحة الذهب حتى يصدر إشارة أو صفارة، الجهاز لا يلتقط ذبذبات الذهب فحسب بل معادن أخرى كالحديد.. منح الغريب جهازًا لـ «يونس»، وآخر لـ «حواء»، وطلب منهما البدء في العمل من صبيحة اليوم التالي، لم يطلب في الواقع، بل أَمَر!

***

أشار الغريب إلى جبل قريب لمباشرة العمل، ظنت «حواء» في البداية أن العمل من السهولة بمكان، فهي ليست مضطرة للحفر في الرمال، أو لكسر الصخور بالمطرقة والأَجَنة طوال الوقت، لن تفعل إلا بعد أن يصدر الجهاز إشارة بوجود الذهب، هكذا أمسكت بالجهاز وشرعت في التنقيب منذ البكور.

لكن «يونس» لم يحمل في قلبه هذا القدر من التفاؤل، كان على يقين من أن مهمته ليست شاقة فحسب، بل خطرة كذلك.

تربَّص بهما الثالوث المقدس للفشل، اليأس، والإرهاق، والألم، هاجم «حواء» قرب الظهيرة، جفَّ حلقها، وهتك الجوع ستر معدتها، لم تجد في جعبة أفكارها سوى الصمود، وإلا ستُحرم من الطعام لهذا اليوم، صمد «يونس» حتى كادت الشمس تلوح له بكفوفها مودعة في إشفاق.

جاء الغريب يجمع منهما محصول اليوم، حصد من «يونس» قطعة صغيرة من

الحجارة المخضبة بذرات ذهبية قليلة جدًا، أما «حواء» فلم يكن في حوزتها سوى علب معدنية صدئة، وقطع حديد متفرقات، أخفق جهازها في التقاط ذرة ذهبية واحدة!

استحوذ الغضب على صدر الغريب، وتربع فوق عروش عقله، منح «يونس» طعامًا بالكاد يكفيه لهذا اليوم، ولم تفز «حواء» بشيء سوى المزيد من الماء فحسب.

استشاطت غضبًا وصاحت به:

- أنت رجل منعدم الضمير، هل ستتركني جائعة حتى الغد، وماذا إن لم أجد في الغد ذهبك الملعون هل ستتركني أموت جوعًا.

انطلق الشرر من عيني الغريب منذرًا بالخطر، جذب «يونس» ذراعها بعيدًا عن مرمى النيران، ما إن وارتهما الخيمة حتى حررت ذراعها من يده، وانزوت في أحد الأركان تتجرع الكثير والكثير من الماء، تملأ به معدتها الفارغة، تشبثت قطرات الدمع بعينها، تخزها فتؤلمها، رفضت أن تسمح لنظرات «يونس» المستطلعة باكتشاف الضعف الذي حفر لنفسه واديًا بداخلها، جلست تحتضن ساقيها وتخفي فيهما رأسًا ينضح ألمًا.

مسَّها «يونس» بيده، لمسته هذه المرة لها وقع غريب، كنغمة شاذة فارة من لحن مألوف، رفعت رأسها تجابهه بعينين متسائلتين، جلس قربها يفترش قماشًا باليًا، اقتسم طعامه الضئيل مناصفة بينهما، لم يطلب منها أن تشاركه حصته، فقط وضع الطعام أمامها، كأنها كلب ضال يجوب الطرقات حرَّك فيه شفقته! نجح في أن يشعرها بالمهانة من جديد، وحده «يونس» قادر على أن ينهال عليها بإهاناته واحدة بعد أخرى بطرق ابتكرها وحده، يحق له أن يسجل بها براءة اختراع.

لم تهدر أنفاسها في الصراخ عليه، تركته واختارت ركنًا آخر لتتقوقع فيه، في إشارة واضحة لرفض يد الإحسان التي جاد بها عليها، ظنت أنها بذلك قد رسمت

له حدود أرضه، إلا أن «يونس» لم يعجبه هذا الحد، فتسور محرابها وقرَّب منها الطعام ثانية، هذه المرة قال بحزم:

- لا تعاندي.

يظن أنها ترفض إحسانه عنادًا، عليه أن يفهم أن ماء وجهها أحب إليها من طعامه، قالت وهي تنظر إليه بعينين أرهقهما جهد مبذول لحبس نهر من الألم عن السير في مجراه:

- لا أريد منك شيئًا.

خرج صوتها بهشاشة قطعة من القطن في مواجهة رياح الخماسين، دفنت رأسها في ساقيها ثانية، وضع الجنين اتخذت بجلستها، ووضع طفل في الثامنة اتخذت بردود أفعالها، هكذا فكَّر «يونس» وهو يرفع رأسها بيده دون أن يعبأ بنظرات استهجان رمقته بها، قال:

- يجب أن تأكلي.

عجزت عن منع النهر من الفيضان، انهالت العبرات فوق وجهها تحفر أخاديد ووديان، للمرة الأولى يراها «يونس» باكية، لم يحدث مرة واحدة طوال فترة زواجهما أن رأى غيوم عينيها تفيض بحملها، على الأقل في حضوره.. رقَّ لحالها كما لم يفعل يومًا، ليس من أجل دموعها، بل لعجزها عن التمسك بمكاسبها من حرب الكرامة التي بدأتها هي.

رفع قطعة من الخبز بعدما غمسها في عدس هربت منه الحرارة، ثم قربها من يمناها، همت بالرفض ثانية، إلا أن معدتها استصرختها تناشدها الرحمة، بإمكانها أن تُعِد أفضل من هذا الحساء وهي التي لم تُحسن إعداد الطعام يومًا، لكن الجوع جعلها تستلذ بكل لقمة تدخل جوفها.. أجهزا على الطعام كاملًا في دقيقتين، تمرَّدت الدقائق التالية ورفضت أن تمنحهما فرصة للحديث.

متعبة، يائسة، حانقة، لكنها ترغب في نسج حديث قصير بخيوط الوِد، «يونس» الذي يتخذ من الصمت عقيدة لا يفهم حاجتها ورغبتها، يظن أن نصف طعامه هو كل ما تحتاج إليه.

- شاركتني طعامك، ولم تأكل ما يكفيك.

حَوَت كلماتها رسالة تقر بما فعله للتو، لكن وراء كل رسالة معاني خفية، انتظرت أن يقرأها بتلهف؛ فلم يزد على أن قال:

- ليس أمامي حل آخر.

- يا لك من شهم كريم!

خطت فوق رغبتها بقدمها، وانتفضت مبتعدة عنه إلى موضع نومها، توليه ظهرها.. ضرب هو كفًا بكف، زفر بضيق ثم قال:

- لا شيء يرضيكِ، أليس كذلك؟

أجابته بنبرات حادة دون أن تلتفت إليه:

- أصبتَ.

«كلما تكررت المحاولات قلَّ الخطأ»

هذه القاعدة أثبتت فشلها مع «حواء»، أو لعلها الاستثناء الذي لا تخلو منه أي قاعدة؛ كلما حاولت بناء جسر بينهما تهدَّم فوق رأسها كل شيء.

لساعة أخرى شعرت بتقلبه في موضع نومه، جافاه النوم، وضج الأرق عابثًا في رأسه، لا تزال توليه ظهرها حين قالت:

- لماذا تكرهني؟

ظن أنها نامت منذ فترة إذ خدعه جسدها الساكن، ثم وشى السؤال بعقلها الذي تتضارب فيه الأفكار، خلت جعبته من الجواب، رغم ثقته من أنه يمتلك عدة إجابات منطقية، بدت كأنها اختفت فجأة من رأسه لسبب يجهله.

- لماذا تكرهني؟

استجمع جهده للعثور على الجواب المفقود، فتش في دواخله واستدعى سلسلة طويلة من أحداث مرت بهما، ثمة شيء جعله ينتبه إلى أن الجواب مفقود لأن صياغة السؤال خاطئة، الأجوبة تخشى الأسئلة الخاطئة فتهرب منها وتترك من خلفها فراغًا كبيرًا.

- أخطأتِ، أنا لا أكرهكِ.

- لماذا أنت غاضب مني؟

بدا له السؤال هذه المرة سخيفًا، وإن كان يعلم شيئًا آخر عن الأجوبة غير خوفها من الأسئلة الخاطئة، فهو كرهها للأسئلة السخيفة.

كان الصمت جوابًا كافيًا لإسكاتها، صمتت «حواء»، وصمت الأرق، وصمت كل شيء بينهما.

في الصباح عضَّها الذنب، لماذا وافقت على أن تشاركه طعامه؟

كان عليها أن تبيت ليلتها جائعة لتوافق مبادئها.. عمل هو مثلما عملت لكنه حصد نتيجة تعبه طعامًا فلماذا تشاركه فيه؟ من مبادئ المساواة التي تتشدق بها أنها مثله، لا تنقص عنه شيئًا ولا يزيد هو.. ما كان عليها أن تقبل منه أن يُقوِّم عثراتها، أخطأت حين أقرَّت بقوته، وسمحت له أن يجود بإحسانه على الطرف الأضعف من المعادلة، في ساحات المعركة لا يُرحم الخاسر، بل يُقضى عليه، ولا

يَقبل الخاسر التنازل عن عقيدته، بل يموت دونها.. لو رأتها إحدى زميلاتها في جمعية «شوارب المرأة العربية» لعنفتها بشدة.

أوحى مطلع اليوم الثاني بأنه سينتهي مثل سابقه، هكذا ظنت حتى صدر عن جهاز التنقيب الذي تتشبث به منذ خمس ساعات متصلة صفارة طويلة، ذبذباتها أشد مما سمعت في اليوم الماضي، وعندئذ استخدمت الأَجَنة والمطرقة لتستخرج كنزها الصغير من الأرض، قطعة حجارة بحجم كف اليد تتناثر بها ذرات الذهب، رحل طائر اليأس ورفرف طائر الأمل فوق رأسها، كان الغريب قد رحل عنهما، فلم تجد سوى «يونس» تتفاخر أمامه بكنزها.

منحها ابتسامة ما إن رأتها حتى تذكرت كم افتقدتها، قال يثني عليها:

- أحسنتِ.

تصرفها كطفلة صغيرة تسمع مديح معلمها لم يشعرها بالحرج، بل بسعادة حقيقية تراودها للمرة الأولى منذ زمن طويل، نزعت رداء التحفظ قائلة بلؤم:

- إنها أكبر مما حصلت أنت عليه بالأمس.

- بالفعل إنها كذلك.

مسح عن جبينه بطرف قميصه حبات عرق غزيرة، ثم استطرد:

- أنا لم أعثر على شيء اليوم، أظن أنني سأستعيد هذه الليلة الطعام الذي منحتك إياه بالأمس.

قالها ممازحًا، لكن كلماته جعلت ابتسامتها تتلاشى ببطء، تسأل نفسها سؤالاً لم تحتر كثيرًا في إجابته.. هل تستطيع أن تعامله بمعايير الحرب وأن تتركه يبيت ليلته جائعًا؟ لا تستطيع.. تعرف ذلك، إذن هل تساومه على اعترافه بفضلها مقابل أن تمنحه قسمًا من طعامها؟ لكنه بالفعل اعترف بمهارتها حين قال «أحسنتِ».. وشاركها طعامه بالأمس دون أن يساومها على اعترافها بحاجتها إليه.. أزعجها

أن تكثر من التفكير في هذه التفاصيل الصغيرة، لكن عقلها لا يعمل سوى بهذه الطريقة التلسكوبية، التي تلتقط التفاصيل وتكبرها ألف مرة، ثم تتعاطى معها بعشرات الاحتمالات المختلفة، حتى تستقر على ردة فعلها النهائي.. هل صدق «يونس» حين صرخ بوجهها قائلًا أنها تحول الحياة كلها إلى لعبة حرب يجب أن تخرج منها فائزة مهما خلَّفت وراءها من ضحايا؟

أزعجها أكثر عجزها عن الاستمتاع فحسب بالهدنة المنعقدة بينهما دون اضطرارها للتفكير في كل الكلمات التي تُقال، وتلك التي لا تُقال.

قالت بجدية:

- هذا ما أنوي فعله، سنقتسم طعامي الليلة مثلما اقتسمت أنت طعامك معي بالأمس.

- كنت أمزح فحسب.

- لكن أنا لا أمزح.

ثمة بذرة لشعور لم تألفه ينمو بداخلها، شعور لم تختبره من قبل. لا يحبها، تعرف ذلك، سمعت هزيم رعدها مرات عديدة، ولمست برقها الحارق بيديها، لا يحبها، ولن يفعل، ولعلها أيضًا لا تحبه، لكن الشعور الذي زرعته الأيام الماضية بصحراء قلبها أجمل من أن تفسده بكثرة التفكير.

صافح مسامعهما محرك سيارة فظنا أن الغريب قد عاد، لكن السيارة التي توجهت صوبهما لا تخص الغريب، يجلس خلف مقودها شيخ كبير. أقبلا نحوه يستغيثان به استغاثة الملهوف، قال الشيخ:

- من أنتما، وماذا تفعلان في الصحراء؟

بكلمات مقتضبة طلب منه «يونس» أن يبعدهما عن هذا المكان، ثم أضاف في عجالة:

- صاحب الخيمة استعبدنا وأرغمنا على العمل مقابل الطعام والمأوى، أرجوك خذنا من هنا وسأدفع لك كل ما تريد.

لم يوحِ وجه الشيخ بما يجول في معترك أفكاره، ناشدته «حواء»:

- أرجوك انقذنا من هذا الرجل، أرجوك.

أشار لهما الشيخ نحو سيارته، وكانت إشارته بمثابة فرصة للنجاة، انطلقت السيارة تشق الطريق بثلاثتهم مبتعدة عن الخيمة والغريب.

أوشك فصل طويل من رحلتهما على الانتهاء، ليبدأ بعدها أكثر الفصول غرائبية!

فصل الخريف

{١}

الشيخ «إنسان».. هكذا قدَّم نفسه، ولم يزد.

أسمر البشرة، كثيف الشعر، موفور الصحة، جوَّاد بالخير، طيب اللسان، سخي النفس.

لديه وجه بشوش، من تلكم الوجوه التي لم تنجح الدنيا بعدُ في أن تختمها بختم اللامبالاة.. رجل خفيف الحركة، يُصارع في مُعترَك المنايا، أي عمره من الستين إلى السبعين، قال الشيخ «إنسان» وهو يحكم قبضتيه حول مقود سيارته:

- أمر غريب أن ألتقي بغرباء تائهين هنا، هل فقدتما الدليل الخاص بكما؟

كاد «يونس» يسأله وماذا يفعل شيخ مثلك في الصحراء! كل ما يخشاه أن يكون الشيخ متورطًا في نفس الأعمال التي يقوم بها الغريب الذي هرب من خيمته، ولما رأى أن الصراحة هي أقصر الطرق بلوغًا للهدف، قص عليه بداية رحلتهما من بطن الكهف، وصولًا إلى الغريب وخيمته، ثم استطرد:

- رأيت الأدوات التي يخبئها، والحجارة التي يجمعها ففهمتُ طبيعة عمله، وسبب وجوده في هذا المكان، حاولنا الهرب لكنه عثر علينا وأعادنا إلى خيمته وسخَّرنا للعمل عنده.

ثبت الشيخ «إنسان» نظراته على الطريق، وكان رجلًا وقورًا يزن كل كلمة وكل نظرة وكل انفعال، سأل «يونس» مستفهمًا:

- ولماذا وافقت على العمل عنده؟

وقع في نفس «يونس» أن الشيخ يعرف، لكنه أراد سماعها منه، فمنحه ما أراد:

- لأنني إن لم أفعل كان سيسلمنا إلى حرس الحدود، أليس كذلك؟

- هل تسألني أيها الشاب أم تخبرني؟

- أخبرك، لكن خُيِّل إليّ أنك تعرف أنه لا بد أن يسلمنا إلى حرس الحدود وإلا تورط معنا لأننا لا نملك تصريحًا لعبور هذه الأراضي.

اندفعت «حواء» بضيق فاض به صدرها:

- ولماذا لم تخبرني بذلك يا «يونس»؟

- ها أنتِ قد عرفت.

قالها ببرود غير مبرر، وكأنها طفل لحوح يثقل كاهل أبيه بمطالبه، تجعد جبينها بضيق التقطته عينا الشيخ في المرآة الأمامية؛ بادرهما بسؤال أدهشهما:

- علاقتكما في أي فصل الآن؟

التفت «يونس» ليتبادل مع «حواء» نظرة الحائر، ثم قال:

- لم أفهم، ماذا تقصد؟

قال الشيخ بغموض أيقظ فضولهما من رقاده:

- لكن أنا فهمتُ، لا بد أنكما قادمان من الشتاء ببرقه ورعده وعواصفه العاتية، لم تتجاوزاه بعد، وقد لا تنجحان في تجاوزه أبدًا بطبيعة الحال، لكن إن استطعتما المرور بسلام من هذا الفصل العصيب، ففصل طويل من الخريف ينتظركما الآن.

لم يفهم «يونس» حرفًا واحدًا، وقع في نفسه أن الشيخ بعقله مس من جنون، هل يكون كمثل الذي يستجير من الرمضاء بالنار؟

لم تحفل «حواء» كثيرًا بكلمات الشيخ، لكن ما قاله لاحقًا نجح في أن يروي ثمرات فضولها بماء غزير؛ فأثمرت وأينعت.. انحنى الشيخ نحو المقود ليتطلع إلى ذيول الشمس ثم قال:

- في قديم الأزل، وقبل الزمن بزمن، تعاقدت خيوط الشمس وغزلت نسيجًا ذهبيًا باهرًا، أعجبت الأرض بصنيع الشمس، وانتظرت بلهفة شروقها في اليوم التالي، ثم طلبت منها أن تغزل من أجلها مرة أخرى، لكن خيوط الشمس الذهبية تعاقدت هذه المرة بطريقة إبداعية جديدة، فنتج عن ذلك نسيج مختلف عن اليوم السابق، وهكذا انتظرت الأرض بشغف مطلع اليوم الثالث؛ لتُفاجأ بأن خيوط الشمس تعاقدت بطريقة أكثر اختلافًا عن اليوم الأول والثاني. ظلت الشمس تغزل كل يوم نسيجًا مبتكرًا لا يشبه أيًا من نتاجها السابق.. فرحت الشمس بموهبتها التي أهلتها لتكون سيدة السماء، وأسمَت نتاجها المغزول بـ «الكلمات»، وظلت كل يوم تغزل «كلمة» جديدة، والأرض تشاهدها من بعيد، حتى جاء يوم ماطر في الزمن بعد الزمن، وتساقطت على الأرض كل «الكلمات».

لاحت بسمة صغيرة على شفتي «حواء» التي تعشق حكايا الخيال، بينما كان عقل «يونس» منصرفًا إلى الحقيقة التي تتربص به، وتكشر عن أنيابها، لم يكن لديه البال الرائق لمعاقرة خيالات شيخ مسن.. استطرد الشيخ:

- لكن القمر غار من الشمس وقرر هو أيضًا نسج الكلمات، فجاءت كلماته موسومة بالظلام، وأنتج الظلم والألم والقهر والغضب والعذاب، ثم ألقى بهم جميعًا فوق كاهل الأرض، ومنذ ذلك اليوم تعلمت الأرض أن الغزل بعد الغسق يأتي بالهلاك.

ثم أردف وقد أصبحت قيادته أكثر تمهلًا وكأنه في نزهة للاستمتاع:

- غضبت الأرض من القمر، وقررت أن تدور حول الشمس دورة كاملة كل عام؛ علها تحصل على عدد أكبر من الكلمات الذهبية، تُعادل بها ما سببته كلمات القمر من ظَلْمَاء.. وهكذا نشأت الفصول الأربعة، وحُكمت الأرض بالمرور بها مرة كل عام.

اتسعت ابتسامة «حواء»، وتمتمت:

- حكاية جميلة.

تلاقت عيناها بنظرات الشيخ في المرآة، ثم قال بجدية أوشكت على تصديقها:

- ليست مجرد حكاية.

سأل «يونس» بنفاد صبر لم يخفِه:

- وما العلاقة بين قصتك عن نشأة الفصول الأربعة، وسؤالك عن الفصل الذي تمر به علاقتنا؟

- علاقة وثيقة، فأنتما لم تسمعا بعد بقية الحكاية.

حثته «حواء» بشغف طفولي:

- أكمل يا شيخ، وماذا حدث بعد ذلك؟

- الأرض كانت حُبلى بالحُب، ولم تعرف بحملها إلا بعد عام كامل من دورانها حول الشمس، لذلك لم تصبح الأرض وحدها هي المحكومة بالفصول الأربعة، بل الحُب كذلك.

نبتت فوق ثغرها ابتسامة أكثر اتساعًا، يسافر خيالها إلى حيث أراد الشيخ، أما «يونس» فتجاهل حكاية الفصول الأربعة والأرض الحُبلى بالحُب؛ فقد نفد صبره على معرفة معلومة هامة، ستُعيد ترتيب كل حساباته من جديد:

- أخبرنا أيها الشيخ، ما هو تاريخ اليوم؟

أخبرهما بتاريخ يبعد عن آخر ليلة لهما في «كفر الشيخ» بعدة أيام فحسب، إذن الشعر الأبيض كان مجرد خدعة خبيثة.. كانت فرحتهما بجواب الشيخ كفرحة الأرض حين استقبلت أولى كلمات الشمس الذهبية.

- فَضَّلومِي.. تفضلي يا ابنتي؟

لم تفهم معنى «فَضَّلومِي»، وقع في نفسها أنها كلمة بلغة أهل «وادي العَلَّاقي» خصوصًا، أو «أسون» عمومًا، ثم رأت أن «تفضلي» استدراك يترجم الكلمة إلى العربية، استكان قلبها في رضا، إذ أحبت منه «ابنتي»، كما أحبتها من الجد «سُلطان».. ترجلت من السيارة برفقة «يونس»، تبادلا نظرات قلقة قبل أن يفتح لهما الشيخ «إنسان» بوابة خشبية كبيرة بمفتاح أخرجه من جيب جلبابه الأبيض. بادره «يونس» بالسؤال:

- ما هذا المكان يا شيخ «إنسان»؟

- منجم يا بُني، أنا حارس هذا المنجم.

بتردد ملحوظ تتبعا خطواته، رغم كِبَر عمر الشيخ فإنه كان يسير بخفة الشباب، أخذهما إلى غرفة نظيفة، بها ثلاثة أسِرة، وآنية، وماء، والقليل من الملابس، وكأن الشيخ يمضي لياليه في هذا المكان، أكد الشيخ هذا الظن بقوله:

- أحرس هذا المنجم وحدي منذ ستة أعوام، العمل متوقف في المنجم منذ زمن طويل، لكن لا يزال أبناء قرية «وادي العَلَّاقي» يتشبثون بأمل أن يُستأنَف العمل في المنجم، ويتخذ منهم المسؤولون أيادي عاملة بعد تفعيل قانون التعدين الذي أصبح في طي النسيان.. هيا لا تقفا عندكما تبدوان شديدي الهزال، سأحضر لكما طعامًا لذيذًا صنعته بيدي.

كانا على استعداد لالتهام أي شيء دون شروط، الأرض التي كانت تصرخ «حواء» عندما يطالها فضلات الطعام لم تعد تعبأ بما يصيبها، و «يونس» الذي كان ينفعل عند غياب زجاجة المياه الباردة فوق الطاولة كطقس مقدس من طقوسه للمائدة، لم يعد يعبأ بأي حرارة تكون المياه التي يشربها.

ما كان يعكر عليهما لحظات تجمعهما على وجبة طعام في الماضي، بدا لهما الآن سخيفًا جدًا، وزائفًا جدًا.. لم يعد هو يغضب بسبب قميص متسخ تأخرت «حواء» في تنظيفه، إذ إنه الآن لا يملك سوى قميص واحد يطوق جسده وهو في أشد حالاته سوءًا، ولم تعد هي تتذمر بسبب غرض نسيه عند عودته إلى المنزل، إذ لم تعد الأغراض ذات أهمية، فقط مكان آمن للنوم، ماء نظيف، كسرة خبز وقليل من المرق هو كل مبتغاها الآن، التفاصيل التي كانا يقفان عندها من قبل بدت لهما الآن ساذجة للغاية.

الحياة التي تحمل تفاصيل كثيرة يسهل تعكير صفوها، أما الحياة شبه البدائية التي يعيشانها الآن، تحمل تفاصيل أقل، ورغبات أقل، وتذمرًا أقل.. هذه إذن ضريبة الحياة المتحضرة.

- الحمد لله، أظن أن هذا الشيخ سيساعدنا لنعود إلى «كفر الشيخ»، اكتفيتُ من هذا العبث، لدي أعمال كثيرة تنتظرني.

قالها «يونس» وهو الذي لم يشعر يومًا بالسعادة في عمله بالمصنع، لكنه لم يكن قط بالرجل الذي يتخلى عن مسؤولياته، لا يفعل هذا رجل حقيقي. التفت إليها فآنس منها نفورًا جهل مبعَثَه، كانت «حواء» شاردة تعبث في صندوق الإرث، إرث نفسي ثقيل من المشاعر السلبية جعلها تضيق بـ«يونس» بعدما فارقهما الشيخ «إنسان» لمتابعة جولته اليومية بالمنجم، لا تغض ذاكرتها الطرف عن أي موقف عاشته، تستعيد كل حدث في عقلها من البداية إلى النهاية، ثم تكرره من جديد، صار ذلك يفسد أوقاتها، ويجهد قلبها، ويستنزف طاقتها النفسية، كأن شريط التاريخ يكرر نفسه دون توقف، لا تقوى على الهرب منه، لا تعرف حتى كيف

بإمكانها أن تمزق شريطًا سينمائيًا تتعثر عنده باستمرار، أدمن عقلها استرجاعه مرة بعد مرة، يبدأ بأبيها، وينتهي بـ «يونس»، هل سيستمر ذلك إلى الأبد؟

- فيمَ أنتِ شاردة؟

هل سيفهم إن أجابت؟ يجلس بجوارها الآن لا يفرق بينهما سوى عدة سنتيمترات، لكن في الحقيقة هما بعيدان بعضهما عن بعضٍ آلاف الأميال، لن يفهم جروحها الغائرة، ولن تستطيع هي أن تشرح، فلا لغة مشتركة تجمعهما.

قذف هذا بسؤال وجودي إلى رأسها: من هو الطرف الذي يقع على عاتقيه بذل الوقت والجهد لتعلم لغة الطرف الآخر، هي أم هو؟

لم يخبروها عن ذلك حين ألبسوها فستان الزفاف، وعلَّموها حقوق الأزواج.. ولم يتحدث معه أحد عن ذلك حين أهدوه بدلة عُرس، وودَّعوه على أعتاب بيت الزوجية!

❦❦❦

جلسة حول نار أوقدها الشيخ «إنسان» فوق الرمال، تَهلل وجه النار وهي تمزق الظلام لترمق بلهفة مريديها الثلاثة، سلبت الرياح بردها، وأذاقت الحطب بأسها، ثم عكفت تنصت إلى حديث ثلاثتهم، وتُسمعهم من هسيسها تَتْرا.

قال الشيخ:

- إذن امتنع عن البوح باسمه وبتاريخ اليوم، وسخَّركما للعمل عنده.. عجيب، لماذا يفعل ذلك؟

- هل تعرفه؟

- من يكون؟

سؤالان يحملان المعنى ذاته وإن اختلفت صياغتهما، انتظرا بلهفة جواب الشيخ، يثقان أن الغريب يعرف خاطفهما، أو قد يكون هو نفسه من تجرأ على إحضارهما إلى هذا المكان الموحش، لكن لماذا؟ هذا ما يبحثان عنه الآن في جعبة الشيخ «إنسان».

ألقم الشيخ فم النار بقطعة خشب أخذت تلوكها بتلذذ، ثم قال:

- لعله أحد التَرَّابين.

علا وجهيهما إشارة استفهام كبيرة، قرأها الشيخ وأجاب عليها في الحال:

- التَرَّابون يجمعون تراب الركاز، الموجود بالمناطق التي تحتوي على ذرات الذهب هنا في «وادي العَلَّاقي»، ثم يبيعونه بأبخس الأثمان لمن يستخلص منه الذهب، أو يتم تهريبه إلى بلاد أخرى ليضاف على إنتاجها من الذهب.

بادره «يونس» بقوله:

- وما قصة التنقيب عن الذهب هنا؟

- القصة يا بُني تبدأ وتنتهي بفشل الدولة في احتواء كنوزها، ووضع المنظومة الصحيحة التي يسير عليها المنقبون، التنقيب العشوائي هنا في «وادي العَلَّاقي» قنبلة توشك أن تنفجر في وجوه الجميع، ذرات الذهب موجودة في المنطقة الرسوبية من الأرض، والأجهزة التي يستخدمها المنقبون سطحية ولا تكشف سوى عن ستين أو سبعين سنتيمترًا من السطح، لا يدركون أنهم بعملهم العشوائي هذا يمسحون خريطة الوصول إلى الذهب الخام في أعماق الأرض.

ثم استطرد بانفعال أيقظه اهتمام حقيقي:

- المصيبة الأكبر أن الآليات البدائية التي يستخدمها المنقبون عن الذهب بعضها مواد سامة، قد تتسرب إلى التربة ومنها إلى المياه الجوفية، ولأنها

مناطق شبه معدومة الخدمات سيعود المُنَقِّب ليشرب من نفس الماء الذي سممه! هذا غير أنه قد يستنشق مواد سامة أثناء عمله في استخراج الذهب من الصخور، فالذهب المستخرج من الأرض يكون مخلوطًا ببعض المعادن الأخرى، ويكون الذهب نفسه على هيئة مسحوق، بعد الدق عليه وغربلته يُغسل بالماء، ويصُب عليه المُنقِّب الزئبق أو السيانيد.. فيتجمع الذهب بعضه مع بعض، ثم يُحرق في النار حتى يطير الزئبق ويترسب الذهب، وهذه عملية خطرة جدًا مع كثرة تكرارها، فالزئبق في هذه المرحلة يكون بخارًا يستنشقه المُنقِّب، وبعضه يتسرب إلى المياه الجوفية ويؤثر على آبار الشرب.

ترأَّس الوجوم أمارات وجهيهما؛ قطع الشيخ «إنسان» حديثه عن المنقبين والذهب ليوصيهما بالشرب من الجَبَنَة التي سيعكف على إعدادها، قام وأحضر من غرفته بالمنجم حبوبًا خضراء، ثم وضعها في إناء صغير وحمصها فوق النار لخمس عشرة دقيقة، أحضر أيضًا مطرقة لطحن الحبوب وأوكل بهذه المهمة إلى «يونس»، فعلها بشغف، راقبت «حواء» النيران وهي تهب من حرارتها الكثير إلى الكنكة الممتلئة بالماء المخلوط بالحبوب المطحونة، ترك لها الشيخ مهمة صبها في ثلاثة أكواب صغيرة، وكانت أطيب قهوة تذوقتها في حياتها، هكذا أخبرت الشيخ فقال مبتسمًا:

- إنها كذلك بالفعل.

تلفتت «حواء» حولها، رأت بعين الخيال وجوهًا متوحشة تنظر إليها بترقب، مستترة بستائر الظلام، القمر غائب عن عيونها هذه الليلة، اختلطت خيوط النار الذهبية بالظُلمة؛ فرسمت الرياح ألف وجه مرعب من حولها، بادرت الشيخ لترغم عقلها على تجاهل مخاوفها:

- لماذا اخترت هذا العمل المرهق وسط الصحراء؟

ترك الصمت رحاله بجوار النار، وجلس بينهم يراقبهم في شغف، لحضور الصمت قوة عاتية ألجمت لسان ثلاثتهم، حتى قطع الشيخ دابر الصمت بقوله:

- هل تعرفين يا ابنتي ما الفرق بين سمك موسى وسمك أبو سيف؟

هزت رأسها جهلًا في حرج، بادره «يونس»:

- بالتأكيد لا تعرف، «حواء» تجهل كل شيء عن البحار وما يسكنها.

لمحت نظرة خاطفة في عين «يونس»، التقطتها وتفحصتها وترجمت معناها، لا بد أنه يسخر من جهلها، وكأنها يجب أن تعرف كل شيء يعرفه، وإلا وسِمَت بـ «ناقصة عقل» كما نعتها ذات شجار، كرهت نظرته، وكرهت وجوده بجوارها في ليل مخيف، وكرهت النار التي أشعلها الشيخ في المنتصف، واضطرارها لأن تقرب منها كفيها كل حين لتسرق منها بعض الدفء، اقتربت منها مرتين أكثر مما ينبغي فتألمت.. «يونس» تمامًا كالنار، تقترب منه للحصول على الدفء بغير احتراس فتحترق.

قال الشيخ «إنسان»:

- الأول يرقد في القاع ساكنًا، وأحيانًا يغطي جسده بالرمال والطين ولا يبرز منه سوى العينين، يراقب بهما كل شيء، ولا يستطيع أن يؤثر في شيء، أما الثاني فيملك سلاحًا حادًا، طعناته أليمة نافذة، يدافع بها عن نفسه وعن مساحته الخاصة.

ثم استطرد بعد ثوانٍ من الصمت:

- لا أحب أبدًا أن أكون سمكة موسى، وأفضل أن أعيش وأموت حاملًا سيف الحق، أدفع به الباطل عن نفسي وأرضي.. أرضنا كنز لا يفنى على الإنفاق، لذلك فالعابثون بها كُثر، عروس مشتهاة اختارت عريسها، فحقد جميع الرجال؛ وهبتُ حياتي لحمايتها وحراستها.. أبحث عن المُنقِّبين غير الشرعيين المتسللين إلى أرض بلادي من حدودها الجنوبية، وأرشد حرس الحدود إليهم.

أطلَّ الخوف برأسه، هل يتحفَّظ عليهما الشيخ في المنجم ليسلمهما إلى حرس الحدود؟! إن حدث ذلك فستحمل نهايتهما أسوأ سيناريو، لن يصدق أحد أنهما أتيا إلى هذا المكان بغير رغبة، وبغير وعي! يبدو أن حضور الخوف كان جليًا، لدرجة أن يلتقطه حدس الشيخ، ثم يؤكد ظنونهما بقوله:

- ولأكون صريحًا معكما لقد ارتبت في أمركما عندما التقيت بكما عند الخيمة.. لكن خبرة حياتية بعُمر شعري الأبيض جعلتني أميل إلى تصديق أنكما في ورطة، رغم أن حكايتكما عجيبة قد لا يصدقها أحد.

ثم رفع حاجبيه محذرًا بجدية بالغة:

- لكن إن اتضح لي أنكما من المُنقِّبين عن الذهب المتجاوزين لكل القوانين والأعراف سأدفع بكما إلى نقطة حرس الحدود بنفسي.

رغم التحذير المخيف فإنهما اطمئنا لأن الصدق يثقل كفتهما.

❦❦❦

- أخبرتنا يا شيخ أن بالقرب من هنا قرية تحمل اسم الوادي، فهل أنت من قرية «وادي العَلَّاقي»؟

وهب الله الشيخَ صوتًا رخيمًا، وأسلوبَ حكَّاءٍ، وكأنه ينتمي إلى عالم خيالي فوق الأكوان، يمرّ على الدنيا كل بضع سنين عجاف؛ يسقي أبناءها من نبع الحكايات، اتخذت «حواء» من ذراعيها مسندًا لذقنها، ونظرت إليه تروي ظمأها من حكاية خلبت لبها، وسرقت من عينيها النوم، أجاب الشيخ سؤال «حواء» باسمًا:

- لا يا ابنتي، أنا من النوبة، هل ذهبتِ إليها من قبل؟

تذكرت الكلمة التي قالها في الصباح «فَضَّلومِي»، بالنوبية إذن! هزَّت رأسها نفيًا، أردف الشيخ باسمًا:

- الذهب يا ابنتي في اللغة النوبية اسمه «نَبّ»، والمكان معروف بأنه أرض الذهب لاحتوائه على العديد من المناجم، لذلك سُمي بالنوبة.. النوبة القديمة يا ابنتي كانت أرضًا ساحرة تخلب الألباب، ما إن تخطي فوقها حتى تساورك هيبة، وتدركك حيرة، وتنقادين إلى سحرها طواعية، سحر يبقى للأبد، ويدوم على الأمد، أرضنا حية، تشعر بالسائرين عليها، تُقرب المحبين، تصغي إليهم وتُقبل عليهم، أما المطرودون من رحمتها، فتضيق بهم، وتتكبر عليهم وتتجبَّر.

ثم استطرد وهو يغرف من نبع الحنين:

- سأروي لكما حكاية أبي الذي أغرقه الحب، ورغم ذلك علمني قيمة الحب.

أطعَم «يونس» فضوله بالإنصات إلى الشيخ، يجذبه حديثه كما تنجذب رفات الحديد منزوعة الإرادة إلى مغناطيس قوي؛ فرفرف طائر النوم عن أرضه مهاجرًا. استطرد الشيخ وهو ينظر إلى نار تُلهمه بقية الحكاية، وكُل حكاية:

- طواحين الزمن تفعل بنا الأعاجيب، ورغم ذلك نتحمل كل ما تأتي به لأن في وقوفها موتنا وفناءنا، ووحده الإيمان يستطيع مواجهة كل ما تأتي به الطاحونة.. كان أبي في عُمر زهور البرية، رجل يلقي الزمن بالمستقبل أمام قدميه، لديه ابن واحد صغير يبني معه المستقبل لبنة لبنة، بعد أن أصاب أمي داء أقعدها عن الإنجاب، فكنت أنا الأول والأخير، علَّمني أصول الصيد والزراعة والتجارة، وأنا بعد لم أبلغ الثانية عشرة!

كان أبي رجلًا يعد ابنه الوحيد ليكون خليفته في أرضه وأرض أجداده.. كل شيء يسير بوتيرة هادئة وكأن الزمن نسيهم هناك ورحل، لم تكن أحلام أبي عسيرة، كانت بسيطة كبساطة أحاديث أمي وهي تجمع ابنها مع أبناء الجيران حول ضفة النيل في ليالي الخريف، وتقص عليهم قديم الحكايات.

كانت أمي حكَّاءَة البلدة رغم صغر عمرها، حباها الله خيالًا خصبًا سرق عقول الصغار، وأمسوا أسرى لحكايات الخالة «سِت الحُسن»، تعاقب النساء أطفالهن إذا ما أخطأوا بـ«لن تسمعوا اليوم حكايات «ست الحُسن»، وما أقساه من عقاب يتنزل على نفوس الصغار.. كل شيء كان يسير بقدر معلوم، يتنبأ أبي بأحداث الغد، لا علمًا بالغيب، بل لأن الحياة كانت ثابتة وكأنها أبدية لا تنتهي.

حتى جاء يوم تسَوَّرته ظلمات كالحة، وَسادته رياح عاصفة؛ فتوقفت طاحونة الزمن عن العمل.

استبد بـ «حواء» فضول كبير؛ فأرهفت أسماعها لصوت الشيخ وكأنه الصوت الوحيد المتبقي على ظهر الأرض بعد فناء كل الأصوات.. بادر «يونس» بالسؤال:

- ماذا تقصد يا شيخ «إنسان»، ماذا حدث؟

أنقد الشيخ يد النار قطعة خشبية أخرى أكبر من سالفتها، مقابل خدماتها من الحرارة والضوء وإلهام يكفي لسرد حكايات الأجداد، تلقَّفتها النار بحبور، ثم قال بصوت يغشاه الضباب:

- كان ذلك في عام ألف وتسعمائة وثلاثة وستين، استيقظنا على أصوات التفجير، دمار، وخراب، وهلاك كانوا في انتظار قريتنا، والقرى المجاورة لقريتنا.. أربعة وأربعون قرية نوبية أغرقتها مياه النيل بعد بناء السد العالي..

كان بناء السد العالي فتحًا على بلادنا، لكن النوبة شريان مصر دفع أهلها من أجله أثقل الأثمان، أربع رحلات من التهجير، آخرها في عام ثلاثة وستين، رفض أبي مغادرة البيت الذي ورثه عن أجداده، هرب من الشرطة التي كانت تجلينا عن أراضينا، وتدفعنا صوب وحدات النقل النهري المعدة لنقلنا، والتي تتوقف عند كل قرية على ضفة النيل وتطلق صافرة بدء عملية التهجير، كانت تلك الصافرة كأصوات القنابل في آذاننا آنذاك.

استعصم أبي بالزرع والنيل والطمي.. رفض أن يترك التراب الذي احتضن رفات أمواته.. كانت هناك قصة حب عنيفة، ووفاء أبدي نُسجت منذ آلاف السنوات بين النوبي وأرضه، ولم يكن التهجير ليقضي على ذرة واحدة من هذا الحب.

الجميع يصرخ به:

- ارحل معنا، الطوفان قادم.

نظر أبي بأعين رقراقة إلى مياه النيل التي لطالما بثها نجواه، وشاركها أفراحه، وغمر بها أتراحه، لا يصدق أنها ستثور ضده الآن، لن تقدر المياه على إيذائه، هل يؤذي المحبوب حبيبه؟

رفض مغادرة البيت مع الجميع، ترجته أمي واستحلفته بالحي الذي لا يموت؛ فخرج معها ومع باقي المهاجرين، لكنه غافلهم في الطريق وعاد مرة أخرى إلى البيت، تمسَّك بشجرة دوم زرعها أجداده في باحته، يسمونها الشجرة التي لا يأكل منها غارسها، لأنها تحتاج أعوامًا طويلة لتطرح ثمرها، كان الأجداد يزرعون الدوم ولا ينتظرون موعدًا لحصاد، يعلمون أن الأرواح تنضج ويحصدها الموت أسرع من الوقت الذي يستغرقه ثمر الدوم في النضج فوق الأشجار، يزرع الأجداد شجر الدوم ليأكل منه الأحفاد.

تمسك أبي بساق شجرة ورثها، وبذراعيه احتضنها، قرَّب منها شفتيه وقبلها، ماء عيونه ينهمر بقوة، ومياه النيل تفور بقوة، تشبثت أمي بابنها الوحيد، ترى أبي بعين الخيال وتبكيه بعين القلب، أظن حتى يومنا هذا أنها بقيت معي فقط لتنقذ حياتي لا حياتها، وإلا لعانقت شجرة الدوم حيث احتضنها أبي، ولذهبت هناك معه حيث ميراث الأجداد، غمر النيل الرجل الذي أحبه.. والتقى الماءان!

نظر الناس إلى الوراء، وفي عيونهم آلام وحسرات، غرقت النوبة القديمة، المكان الذي يقرأ الناس عنه في الكتب، ويدرسه التلاميذ في المدارس لم يعد له وجود، دُفن تحت بحيرة السد العالي.

توقف الشيخ قليلًا ثم استطرد:

- وعدوهم بجنة فوق الأرض، ستعوضهم ما أصاب أرضهم وإرثهم وتراثهم، هُجروا من قراهم، وفسحة من الأمل تطل برأسها على استحياء، وبعد ساعات طوال من السير والعرق والتعب؛ وجدوا أن الجنة الموعودة لم تكن سوى صحراء كئيبة بور في حضن الجبل، بغير ألوان، اختفى الأزرق والأخضر تمامًا عن الأرض، وأصبح الأصفر هو اللون الوحيد المتبقي من قوس قزح.. اقتُلعوا من جذورهم وزُرعوا في صحراء قاحلة بلا إرث ولا تراث، بيئة طاردة معدومة الخدمات.

أرض لا تُنتِج، وإذا أنتجَت لا تكفي!

الجنة الموعودة كانت وادي جهنم دون النيل، أرض طَفْلة، ما إن تشم الماء حتى يتصدع من فوقها البنيان، أخبروهم أن أرضهم الجديدة ستحمل اسم «نصر النوبة» وستُقسَّم إلى قرى بنفس أسماء القرى في النوبة الغارقة، وكأن هذا كافٍ ليعدوها بديلًا لأرضهم! كرهوا الاسم الجديد والمكان الجديد والسماء التي تظلله، كان كل شيء مختلفًا، لون السحاب، رائحة الهواء، ومذاق الأيام، توقفت بهم طاحونة الزمن هناك في وادي الجحيم، الشريان أصابته جلطة قاتلة، والطبيب غارق في سُبات عميق.

لمعت عيناه بعسل برَّاق وهو يختم حديثه قائلًا:

- ظلت أمي «ست الحُسن» حتى مماتها، لا تقص على أطفال الجيران سوى حكاية أبي وشجرة الدوم، ونيل فاض، لأرواح أبنائه كان صيَّاد، وأرض تخلو من رفات الأجداد.

احترم الصمت حكاية الشيخ؛ فأصدر حكمه بالطاعة له والولاء، دقائق طويلة مرت لا يُسمع فيها سوى أنفاس النيران.

وجد «يونس» نفسه في حكاية الشيخ، وكأنه أحد أبطالها، بل وكأنه بطلها الوحيد، ذاك رجل عشق النيل، وهو رجل عشق بحيرة «البُرلس»، عشق أقرب للتقديس، وكلاهما حرمتهما الحياة مما أحبَّا، ليته فعل مثل بطل الحكاية واستمسك بقاربه الخشبي الصغير حتى الموت، مثلما اعتصم بطل الحكاية بشجرة الدوم، لكنه لم يستطع أن يفعل، كان في موت أبيه الضربة القاضية التي أنقضت ظهره.

سألت «حواء» بصوت شجي وشى بتأثرها:

- قلت أن والدك علَّمك الصيد والزراعة والتجارة.. إذن في أيهم ترى نفسك يا شيخ «إنسان»؟

- الصيَّاد!

بادرها «يونس» بالجواب؛ فابتسم الشيخ حتى بدت نواجذه.

{٢}

كاد أن يستغرق «يونس» في نوم عميق فوق فراش صغير في حجرة الشيخ، أخبرهم أن اسمه «العنجريب»، سرير نوبي قديم يُصنع من جذوع الشجر، لكنه انتبه إلى تفصيلة صغيرة طفقت تلح على رأسه كذبابة لزجة، الحجرة تحوي ثلاثة أسِرَّة، لا سريرًا واحدًا!

ألم يقل الشيخ «إنسان» أنه يحرس المنجم وحده، لمن الفراشان الآخران إذن؟

سحق بكفه ذبابة الأفكار التي تحول بينه وبين عالم الأحلام، ووعد نفسه أن يبحث في هذا الأمر في الصباح.

وضعت «حواء» ستارًا حائلًا بين فراشها وفراش الرجلين، بعدما أفصحا للشيخ عن طبيعة علاقة تجمعهما، لا يزال صوت الشيخ حاضرًا في رأسها وهو يقول:

- الحب يبدأ دومًا بفصل الربيع، ربيع البدايات، وإذا مات بمباركة الطرفين يبدأ عندها ربيع النهايات! وبهجة الربيع زائفة كلؤلؤة لم تخرج من رحم محارة.

أخذت تستعيد تفاصيل كلماته واحدة تلو الأخرى، وحكايته مرة تلو أخرى، حتى نجح النوم في الضغط على زِر إيقاف الشريط السينمائي.

ساقت رياح الصباح وعودًا كثيرة صدقتها «حواء»، وقرَّت بها عينًا، قدَّم لها الشيخ «إنسان» رقائق الخبز البلدي، وأخبرها أن اسمه باللغة النوبية المصرية «الشدَّة»، ثم تبع ذلك بقوله:

- أما باللغة النوبية السودانية فيُسمى «الكِسرة».

سألت الشيخ بفضول عن الفرق بين اللغة النوبية المصرية، وأختها السودانية، قال الشيخ:

- النوبيون في جنوب مصر ينقسمون إلى ثلاثة أصول: كنوز، وفاديجة، وعرب.. أما في شمال السودان فهم دناقلة، ومحس، وسكوت، وحلفاويين.. ومن الأخطاء الشائعة يا بُنيتي تقسيم اللغة النوبية إلى "ماتوكي" و"فاديجة".. والصحيح أن تُقسَّم إلى "نوبين" و"أوشكر".. لأن الماتوكي والفاديجة أسماء لبعض فئات المجتمع النوبي، وليست أسماء للغة نفسها.. أما "نوبين" فهي اللغة التي يتحدث بها الفاديجة والحلفاويون والسكوت والمحس.. و"أوشكر" هي اللغة التي يتحدث بها الماتوكية والدناقلة.

اقترب النهار من الظهيرة ولم يستيقظ «يونس» بعد، قدَّم العنجريب لجسده راحة أربكت ساعته البيولوجية. أتاح ذلك لـ «حواء» فرصة ملازمة الشيخ أثناء تفقده للمنجم، زادت رقعة الحديث بينهما لتشمل حياتها الخاصة، سألها بأسلوب مباشر عن سبب انفصالهما، رغم المرارة التي صعدت من أحشائها إلى جوفها، فإنها وجدت في نفسها المقدرة على الحديث، قالت وهي تمرر أصابع كفها الأيمن على الجدار الصخري أثناء سيرها بجوار الشيخ، كما كانت تفعل في المرات القليلة التي سارت فيها بجوار أبيها في الطرقات:

- كان قرارًا مشتركًا.

- عام واحد لا يبدو لي وقتًا كافيًا لقرار كهذا، إلا إن كان في الرجل صفات الدياثة، أو في المرأة صفات الخسة، ورغم معرفتي بكما التي لا تتعدى بضع ساعات، فإنني لم أر في أيكما ملمحًا من هذه الرذائل.

- هو رجل غامض يعيش في ظلمات كهف مهجور، ويراني امرأة تحتاج إلى دليل إرشادي للتعامل معها.. هذا سبب كافٍ لاستحالة العشرة بيننا، أليس كذلك؟

- دعكِ من كلام الأدباء، وتنظير الشعراء، هذه مفردات يتعاطاها أرباب القلم لمداعبة الوجدان، وإثارة العواطف والخيالات.. لكن الحقيقة أن لا الرجل غامض، ولا المرأة صندوق مُغلق من الأسرار، كل ما هنالك أن أحدهما يتكاسل عن بذل الجهد في فهم الآخر، وتلبية احتياجاته النفسية، هذا كل شيء!

أعجبت «حواء» بتلقائية الشيخ في الحديث، تتضافر كلماته بالثقة والإخلاص، وكأنه خبر الحياة بكل ما فيها من تجارب، ولمس ما فيها من خبايا.

- قلت لنا أمس في السيارة أن علاقتنا في فصل الشتاء؟ ثم حكيت قصة الحُب الذي خرج من باطن الأرض وحُكم عليه بالمرور عبر فصول أربعة، هلا تشرح لي المزيد؟

اتسعت ابتسامة الشيخ وهو يلقي نحوها بنظراته قائلًا:

- أتعلمين، لو عندي بنت لتمنيتُ أن تملك فضولك.

بادلته البسمة بمثلها وقالت:

- يقولون إن الفضول صفة ذميمة لو تحلَّت بها امرأة.

اتسمت قسمات الشيخ بالجدية ثم قال:

- هؤلاء الذين يقولون هذا الهراء أجهل من قملة.

أطلقت ضحكة صغيرة، تضاعف صداها في الممر الطويل، ثم أردف:

- الحب يا ابنتي في زماننا هذا أصبح سلعة، شأنه شأن الهواتف النقالة، والعطور، وألعاب الأطفال!

سألته مستنكرة:

- كيف ذلك؟

- بعض الهواتف النقالة باهظة الأثمان رغم أنها رديئة الخامات، متوسطة الإمكانيات، ورغم ذلك يتهافت الناس على شرائها، لماذا؟ لأن صانعيها نجحوا في أن يصنعوا لها علامة تجارية، اسمًا يتسرب إلى أحلام الجميع، صنمًا يتعبدون له بالأموال.. وكذلك الحب، حولوه إلى صنم مزخرف يخضع لأوهام البشر، جسدوه بحروف وكلمات، وحصروه في أفعال وردود أفعال، ثم صدروه للناس من خلال الشاشات؛ فأصبح الناس أسرى لوثنية الحب الرومانسي بكل طقوسه التي علمتهم إياها الأفلام، وعندما يعودون إلى حياتهم الواقعية بعد انتهاء الفيلم، ويجدون أن شريك الحياة لا يأتي بطقوس الحب الرومانسي كما تلقنوها، يفتعلون الخلافات، ويصابون بإحباط عظيم، من شأنه أن يحيل الحياة كلها إلى شتاء لا ينتهي.

ثم أردف:

- جودة العلاقة لا تتحدد ببضعة أفعال يراها الناس فيؤمنون بقوتها، الحب لا يجب أن يكون كتابًا يتهافت القراء على شرائه فقط لأنهم يرون اسم كاتبهم المفضل يزين غلافه، اسم الكاتب عندهم دليل جودة، ويتعاملون مع الحب بالطريقة نفسها؛ فتكون بضعة أفعال مدروسة، أو كلمات محفوظة هي دليل جودة علاقة ما تجمع بين رجل وامرأة! الناس يصيبهم الهوس أمام صنم الحب المزخرف، يرغبون فيه أكثر من أي شيء آخر في الحياة، لكنهم عاجزون عن فِعل الحب نفسه.

سألته بلهفة تنتظر الجواب:

- لماذا هم عاجزون؟

- لأنهم لم يعد باستطاعتهم بذل الجهد في سبيل الحب، فالحب يُقدَّم لهم من خلال الشاشات كالوجبات الجاهزة، قليلة الفائدة، كثيرة الضرر.. يتمنون لو يحصلون عليه بضغطة زِر كسهولة حصولهم على وجبتهم المفضلة!

يريدون تقليد صنم الحب الجاهز، لا التنقيب عن الحب الحقيقي المدفون في الأعماق.. لا يفهمون أن بين كل رجل وامرأة رابطًا شديد الخصوصية لا يشبه أي روابط أخرى، إنه كبصمة الإصبع، مميزة، فريدة، ولا تشبه غيرها.. والمظاهر التي تعلن عن وجود الحب بين غيرهما قد لا تتوافق مع طبيعتهما.. النصائح المُعلبة لتحسين العلاقات بين المحبين يجب أن تؤخذ بشكل استرشادي فحسب، ولا تطبق حرفيًا مثل كتالوج غسالة أطباق! الحب ليس دستورًا لا تجوز مخالفته، الحب حرية.. ومتى تقيدت هذه العلاقة المقدسة بدساتير كتبها غريب لا ينتمي إلى أحد طرفي العلاقة؛ حلَّ شتاء طويل لا نهاية له.

كانا في طريق العودة إلى غرفة الشيخ بعد انتهاء الجولة التفقدية حين قال:

- أتحبين الشتاء؟

- بل أعشقه، إنه فصلي المفضل.

- شتاء الحب عاصف، يوقظ الجنون بهزيم رعده، ويُخدر العقل بصقيعه.. الشتاء في الحب حاسم، طريق شاق، في نهايته إما الحياة أو الموت.. الشتاء في الحب صادم، تتخبط فيه السُحب بعضها ببعض؛ فتهتز السماء.. لكن هكذا يُخلق المطر.

ثم أردف:

- الحب يبدأ عادة بالربيع، فصل الانبهار، كل شيء فيه جميل، كل شي فيه مبهج تكسوه الألوان، يعزف لحن الانسجام، ويطرح خلفه كل نغمة شاذة منفرة، لكنه مهما طال فإنه لا يدوم، لا بد أن يأتي الشتاء، ويصطدم طرفا الحب بما غفل عن أعينهما من تناقض واختلافات، فصل شاق طويل، إذا نجح الطرفان في تجاوزه، فعندئذ سيجدان الخريف في انتظارهما.. وفي الخريف تُفلِت أشجار العلاقات الأوراق اليابسة الجافة، وتستعد لاستقبال الطرح الجديد.

وقعت كلماته على قلبها فأحدثت بداخلها صدى رهيبًا، ظلت ذبذباته تتردد بداخلها حتى أردف باسمًا:

- أنا أحب الخريف.

انتزعت نفسها من أفكارها المتشعبة، سألته:

- لماذا الخريف؟

- لأنه فصل التكيُّف الذي يُهيئ الدرب لمجيء الصيف، آخر فصول الحُب.

قالت «حواء» بدهشة وقد تذكرت شيئًا:

- لكن الصيف بعده خريف ثم شتاء فربيع.. لا العكس!

كانا قد وصلا إلى أعتاب غرفته بالمنجم، توقف الشيخ ومنحتها قسماته الودود مسحة من السكينة، طافت بعقلها، ثم استقرت بقلبها، قال:

- الحُب يا ابنتي طفل مشاغب، احتال على الفصول الأربعة وقلبها رأسًا على عقب، يبدأ بالربيع وينتهي بالصيف!

كان «يونس» في انتظارهما، ينقل بصره من أحدهما إلى الآخر، كلمات الشيخ تدور في عقل «حواء» تكشف لها سماوات جديدة لم تعرفها من قبل، وتشعل شغفها لمعرفة المزيد عن خبايا الحُب كما يعرفه الشيخ «إنسان».

***

ركب الشيخ سيارته برفقة «يونس»، يتخذان من قرية «وادي العَلَّاقي» وجهة لهما، بغية إحضار المزيد من المؤن، بالإضافة إلى اقتناص الحل الوحيد لمشكلتهما كما أخبرهما الشيخ «إنسان»:

- لا يمكنكما مغادرة «وادي العَلَّاقي» بغير تصريح يثبت أنكما دخلتماها بطريقة مشروعة، لن تفلتا من نقاط التفتيش على الطريق إلا بتصريحات مزورة، لا أرى حلًا سواه.

بقلق كبير سأله «يونس»:

- وكيف سنحصل على تلك التصريحات المزورة؟

- سأخبرك، لكن يجب أن نتحرك الآن.

رافقه «يونس» والقلق ينهش صدره، فضَّلت «حواء» البقاء في المنجم، وانتهاز فرصة غياب الرجلين للاغتسال، بعدما كادت رائحتها تقطع الحدود المصرية إلى بقية البلدان!

بعد سير طويل، توقفت السيارة أخيرًا في قرية «وادي العَلَّاقي»، فقيرة الخدمات، تعجَّب «يونس»، كيف يتمكن أهلها من العيش وسط هذه الطبيعة القاسية، تبدو له «كفر الشيخ» بجوارها قطعة من الجنة.

أنعش روحه رؤية بشر آخرين، بعدما كاد يظن أن العالم الذي يعرفه انهار ولم يبق منه سواه، و «حواء»، والشيخ «إنسان»، وغريب الصحراء.

كان في حاجة شديدة ليشعر بالماء فوق جسده؛ لذلك عندما أتاح له الشيخ هذه الفرصة شعر نحوه بالامتنان، حيث دعاه إلى بيت شاب نوبي تربطه به علاقة متينة، عانقه الشيخ ما إن رآه وقال له:

- إر مَسّكاجمِي؟.. (أنت بخير؟).

فأجابه الشاب النوبي بوجه طليق:

- الحمد للّه.

قدَّمه الشيخ بفخر أبوي إلى «يونس» بقوله:

- «عبدون»، خيرة شباب قبيلة «العَبابدة».

صاح الشاب بترحاب يمد إلى «يونس» كفه مصافحًا:

- كيف الحال؟

- الحمد لله.

بدا لعيني «يونس» شابًا ثلاثينيًا، يُعامل الشيخ «إنسان» معاملة الأب، ويعامله الشيخ بدوره كابن له.. لبَّى «يونس» فورًا الدعوة إلى الاغتسال، انتعش جسده كما لو كان سمكة أفلتت نفسها من شباك صيَّاد عنيد، عائدة مرة أخرى إلى المياه.

أشد ما أثار دهشة «يونس» في حديث طويل تبادله مع «عبدون»، معرفته بأن الوادي نشأ كنهر جاف ينبع من تلال «البحر الأحمر»، ومنذ أن امتلأت بحيرة ناصر بالمياه بعد بناء السد العالي دخلت المياه إلى الوادي، وأصبح جزءًا من البحيرة، ثم بعد ذلك انحسرت المياه عن جزء كبير من الوادي مخلفة وراءها أحجار الزينة، ومواد البناء، والمعادن، والصخور النارية والبركانية والمتحولة والرسوبية.

قدَّم لهما «عبدون» سطلًا من اللبن فوق أبراش خوصيَّة ملونة تفترش الأرض، في فناء بيته الحجري المكون من غرفة واحدة، ودورة مياه صغيرة. كان فناءً صغيرًا، نصب فيه «عبدون» خيمة مرفقة ببيته لاستخدامها في استقبال زوَّاره، وأتراب أسماره. عبَّر «يونس» بوضوح صريح عن صدمته لفقر خدمات القرية، لاح حزن جلي في عيني «عبدون»، ثم قال موجهًا حديثه إلى «يونس»:

- أتعرف يا «يونس»، منذ عام ألف وتسعمائة وتسعة وثمانين صدر قرار باعتبار «وادي العَلَّاقي» ثالث أكبر محمية طبيعية في مصر، فالمحمية تضم خمسة عشر نوعًا من الثديّات، وثلاثمائة فصيلة من الطيور المقيمة والمهاجرة، وينمو فيها اثنان وتسعون من النباتات الطبيعية دائمة الخُضرة.. تنقسم المحمية إلى ثلاثة أقسام، منطقة القلب للبحوث العلمية، ومنطقة إدارة بيئية، ومنطقة انتقال وهي التي نعيش فيها الآن نحن قبيلة «العَبابدة» مع أبناء قبيلة «البشارية» جنبًا إلى جنب.

بدا حديث «عبدون» أكاديميًا، كما لو كان محاضرًا بالجامعة يوجه حديثه إلى طلابه، ورغم ذلك أثارت هذه المعلومات في نفس «يونس» العَجب! كيف يحوي الوادي هذه الكنوز من التنوع البيولوجي، والذهب، والمعادن، بينما يعيش أهله بهذه الخدمات البدائية؟ كيف لم يتم حتى الآن استغلال هذه الموارد، والاستفادة مما تجود به هذه الأرض من خيرات، بتنظيم استخراج ما بها من معادن نفيسة، والاهتمام بسياحة السفاري، واستغلال إمكانيات الوادي لجذب السياح؟!

شرب «يونس» من سطل اللبن وهو يتفحص «عبدون» بدقة كما اعتاد على أن يفعل مع سمكة جديدة يراها للمرة الأولى، خلُص إلى أنه شاب سَمِح الوجه، فيه لون طمي النيل يوم فيضانه، وجه لامع مثل الأبنوس، يطل منه صفان من الأسنان اللؤلؤية، يرتدي أسمالًا تميز النوبي عن غيره، جلباب أبيض، صديري مزركش، وشملة بيضاء واسعة تطوق رأسه، ينسدل طرفها على كتفه الأيمن.

ظنه «يونس» في بادئ الأمر غير متعلم، لكنه تبادل بسمة مع الشيخ «إنسان» تشي بأنه اعتاد على ظن الآخرين فيه على هذا النحو، كونه ينتمي إلى هذه المنطقة منعدمة الخدمات، وجَّه حديثه إلى «يونس» قائلًا:

- ارتحلتُ إلى الشمال من أجل الدراسة، ومنذ عدة سنوات أعمل في وحدة الدراسات البيئية بجامعة جنوب الوادي، ندرس المياه الجوفية في «وادي العَلَّاقي» ونحاول وضع خطط لمشروعات تنموية.

ثم أردف بحماس شغف به «يونس»:

- المحمية من أفضل الأماكن التي يمكن استغلالها لتحتل مكانة بارزة على خريطة السياحة العالمية، وتدر للدولة دخلًا كبيرًا.. فقط نحتاج الاهتمام والدعم، وجهود مخلصة تعمل من أجل مصالح بلادنا.

بدا له أن «عبدون» من أولئك المتحمسين القادرين على إصابة محدثيهم بعدوى الحماسة، يعرفهم جيدًا لأنه اعتاد على أن يكون واحدًا منهم، عند حديثه عن بحيرته المقدسة.. خلال وقت قصير شعر «يونس» وكأن قضية المحمية هي قضيته الشخصية، سلَّم آذان قلبه إلى «عبدون» وهو يتحدث عن مناجم الذهب قائلًا:

- إذا سألتني الآن عما قدمته التكنولوجيا الحديثة في مجال استخلاص الذهب، فأصدمك بالجواب، لا شيء، فأغلب المناجم الشهيرة بالعالم لا تزال تؤثر العمل بطرق تقليدية بائدة، أما عندنا، فهل تتصور أن أقدم خريطة جيولوجية لمنجم الذهب عرفها العالم كانت من وحي إلهام المصري القديم؟ رسمها على ورق البردي، ومحفوظة الآن في متحف «تورين» بإيطاليا، وجميع هذه المواقع التي تتمركز في «وادي العَلَّاقي» متوقفة عن العمل تقريبًا! الشيء المحزن أن جميع مناجم الذهب التي اكتشفت في العصر الفوعوني لم يتزايد عددها بمنجم واحد حتى الآن.. إذا سألتني هل كان فراعين مصر أكثر منا علمًا؟ فسأجيبك آسفًا، نعم!

مر بـ «يونس» خاطر توقف عنده طويلًا، لعل هذه المنطقة معروفة بأنها بلاد الذهب، لكن الذهب لا يتمركز في المناجم، وتحت الأرض، بل في قلوب أبنائها كذلك.. وقع في نفسه أنه إذا شقَّ صدر «عبدون» الآن لأخرج منه قلبًا ذهبيًا نابضًا.

- وماذا تفعل هنا الآن؟ لماذا لا تمارس عملك في المحمية؟

- كل فترة أمر على «ناسي» هنا في القرية، فالفرع الأصيل لا ينسى يومًا فضل جذع الشجرة الذي يحمله، ولا الأرض التي تضرب فيها بجذورها.. ثم إنني أعد الترتيبات من أجل عُرسي.

- مبارك.

- عقبالك.

قبل أن يجيبه قاطعهما الشيخ «إنسان» قائلًا وهو يلمز كتف «يونس»:

- «سبقك بها عُكاشة».

ضاق صدر «يونس» بكلمات الشيخ، كم مرة عليه أن يُذكِّره أنه و«حواء» مطلقان.. بدا له أن الشيخ يتناسى هذا متعمدًا.

قال الشيخ «إنسان» متفكهًا:

- «وادي العَلَّاقي» كوادي الزواج، كلاهما يحوي الكثير من الكنوز التي تحتاج إلى بذل جهد حقيقي للانتفاع بها!

ابتسم «يونس» ساخرًا، أو لعله متألمًا.. أثناء حديثه الطويل مع «عبدون» لاحظ أن الشيخ تركهما للتحدث مع أحد الرجال، وبعد أن انتهى الحديث عاد الرجل يحمل بيديه غرضًا ملفوفًا في قطعة قماش، دسه في يد الشيخ «إنسان» بعناية شديدة كما لو كان يمنحه خريطة لاكتشاف كنز فرعوني بتول لم يُكتشف من قبل.. ما إن أعلن الشيخ موعد الرحيل حتى مال «يونس» نحوه يهمس له:

- والتصاريح؟

هز رأسه قائلًا وهو يربت على جيب جلبابه:

- حصلت عليها، اطمئن.

سكن قلب «يونس» قليلًا، كان وداعه لـ«عبدون» حميميًا، وعندما شيعه «عبدون» بتحيته النوبية قائلًا:

- أَفيُولُوجو.

عرف منه أنها تعني «مع السلامة» وأن الرد يكون بـ و«هِيرلُوجو»، أي في الخير، فصافحه «يونس» هاتفًا بها، إذ يعلم أن الإنسان مهما تعلم من لغات تظل اللغة الأقرب إلى قلبه هي لغته الأم.

قال له الشيخ «إنسان» أثناء عودتهما إلى السيارة، استعدادًا للعودة إلى المنجم:

- ليتنا ما تركنا «حواء» وحدها، لو اصطحبناها معنا لعرفتها على خيرة بنات القرية.

قال له «يونس» بوجوم:

- «حواء» لا تختلط إلا بأناس يشبهونها، يصعب عليها أن تنفتح على آخرين ينتمون إلى ثقافة مغايرة.

بادره الشيخ بحكمة العارف:

- النساء مرنات يا بُني، يسهل أن يختلطن ببعضهن البعض.

- تقول هذا لأنك لا تعرف النساء يا شيخ، حتى إنك لستَ متزوجًا.

- من قال أنني لستُ متزوجًا!

- أنت تعيش وحدك في المنجم، وأخبرتني أنك لا تملك بيتًا هنا في القرية.

- لا أملك بيتًا هنا في القرية؛ لأنني لا أعيش في القرية.

- وهذا ما أقوله، أنت لا تملك بيتًا؛ لذلك فأنت لستَ متزوجًا.

توقف الشيخ قليلًا عند باب السيارة، ثم تطلع إلى وجهه قائلًا:

- هل هذا ما تفعله مع امرأتك؟ تستنتج من كلماتها ما لم تخبرك به، ثم تبني أحكامك عليه؟

جلس الشيخ خلف المقود، وبجواره «يونس» عابس الوجه، قال:

- لا امرأة لي.

تجاهل الشيخ تصريحه قائلًا بحزم:

- التخمين لعبة خطرة أيها الشاب؛ فلا تلعبها معي.

انطلقت السيارة تطبع فوق الرمال بصماتها على طول المسافة إلى المنجم، لم يتبادل «يونس» مع الشيخ كلمة واحدة، دعاه داعي الخوف فانساق خلفه مضطربًا، ضرب له الأمل وعدًا بأنه سيجد مبتغاه في الوادي، سيعثر على هاتف للاتصال بالجد «سُلطان»، لكنه فوجئ بالأمل يسحب البساط من تحت قدميه، ويضعه في مواجهة مباشرة مع الوضع المزري لخدمات الكهرباء والمياه بالوادي. ثمة بارقة أمل صغيرة لم تخنه بالغيب، إذ وعده الشيخ «إنسان» بإتاحة الوقت والمكان والوسيلة لإجراء اتصاله الهام، لكنه مضطر للعودة الآن إلى المنجم إذ تركه بغير حراسة وقتًا أطول مما ينبغي، و«حواء» هناك وحدها.

حاول «يونس» أن يعرف الطريقة التي تحصَّل بها على التصاريح، لكن الشيخ لم يبح بالكثير، اكتفى بقول:

- لي بعض المعارف.

دبيب قلق آخر أقحم نفسه بين ضلوعه واستقر بشغاف قلبه، عندما لاحت «حواء» في لمحة خاطفة مرت بعقله، ومضة صغيرة لم يزد عمرها عن ثانية واحدة، لكنها كانت كافية لإثارة وساوسه، تُرى هل أصابها مكروه خلال ساعات غيابه؟

قفز وسواس العد إلى المنطقة المضيئة برأسه، وأمره ببدء العد في الحال، لبى «يونس» أوامره، هذه المرة أخذ في حصر عدد المخاطر التي قد تتعرض لها «حواء» وهي بمفردها في المنجم، لوحة القيادة تشير إلى سرعة مناسبة، ومخاوفه المتصاعدة تدفعه للشعور بأن السيارة تسير ببطء سلحفاة عرجاء.. قد يعثر عليها الغريب ويختطفها، أو يفعل بها الأسوأ بدافع الغضب، قد تقترب منها إحدى الحيات فلا تتمكن من دفعها، قد ترى خيالات تتوهمها فأرًا فتُصاب بذعر مميت، قد يدفعها الفضول أو الملل إلى الابتعاد عن المنجم فتضيع في الصحراء. ليته أخذها معه.

- أسرع قليلًا يا شيخ.

- لماذا هل لديك موعد؟

قالها الشيخ سابحًا في بحار المزاح، بينما «يونس» يقف على الضفة المقابلة للمزاج الرائق. توقفت السيارة أخيرًا أمام المنجم، عاد الوسواس إلى ثكناته لعدة لحظات فحسب، ثم ما لبثت أن أحكمت أيادي الخوف قبضتها على عقل «يونس» وأظلمته بالكامل، تحققت أسوأ هواجسه، «حواء» لم تكن بالمنجم!

البحث عنها في الصحراء كمحاولة العثور بالعين المجردة على نجمة الدبران في سماء ليلة شتوية قمرها محاق، لا طريق واضح يسلكه، ولا دليل قوي يتبعه! أدرك «يونس» ذلك فتقيَّدت قدماه بالرمال، كما تقيَّد عقله بأصفاد الخوف والحيرة. ربَّت الشيخ «إنسان» فوق كتفه مطمئنًا وهو يقول:

- لا تخف يا بني، سنعثر عليها، لا أظنها ابتعدت كثيرًا.

منفعلًا صاح «يونس» وعيناه تقتحمان الأفق من حوله:

- وماذا إن عثر عليها ذلك الرجل، ماذا إن ألحق بها الأذى.

ربت الشيخ كتفه ثانيًا قائلًا بثقة:

- لن يحدث ذلك، ثق بي يا بُني.

الثقة بكلمات الشيخ المطمئنة كانت بمثابة مُخدر رفض «يونس» الوقوع تحت تأثيره. انطلقا بالسيارة وعقله يُعدد مخاطر الصحراء التي قد تتعرض لها «حواء» في هذه اللحظة. امرأة طائشة لا تُحسن التصرف، ستقتل نفسها ذعرًا قبل أن يقضي عليها شيء آخر، صاح في نفسه بغضب، لماذا لم تبق في المنجم؟ لماذا لم تلتزم بالتصرف الوحيد المنطقي في هذه الصحراء الشاسعة؟

تذَّكر يوم أن فقدها منذ بضعة أشهر، أوقف سيارته ليقضي أمرًا، ثم عاد إليها ليجدها خالية منها، حاول الاتصال بهاتفها الخلوي؛ فقط ليكتشف أن حقيبتها بداخل السيارة، أصاب الخوف سويداء قلبه، أتراها قد اختُطفت بعدما خدرها أحدهم؟ أم هددها بالسلاح لترك السيارة والذهاب معه.. ألف احتمال مرعب دار بعقله وقتها، بحث عنها في كل المحلات القريبة دون أدنى أثر، وفي اللحظة التي أوشك فيها على أن يفقد عقله بالكامل، ظهرت «حواء» تتبختر نحوه، جذب ذراعها بعنف كاد يدميها، أجلسها في السيارة، ثم دار حولها ليحتل مقعده خلف المقود، ويصب عليها جام غضبه، احتدت عليه بغضب مماثل مُعللة بأنها ليست طفلة لتضل الطريق، لم يفهم مبررها، ولم تفهم خوفه.. كان الغضب عليهما هو السلطان الوحيد، وقذف التهم هو اللغة الوحيدة التي يعرفان التحاور بها.

- لا تخف، سنعثر عليها، لا يمكن أن تكون قد ابتعدت كثيرًا.

لم يلتفت لينظر إلى الشيخ «إنسان»، كانت عيناه معلقتين بالرمال من حوله، يرسل إلى كل ذرة منها رسالة خاصة، يسألها إن كانت قد مرت «حواء» من فوقها، بقيت رسائله معلقة بذرات الهواء دون جواب، مسح كفيه فوق وجهه يزيل حبات عرق غزير، آملًا أن يعلق بها الخوف فيرتحل عن قسماته المتصلبة.

يتملَّكه هاجس أنه مسؤول عنها، أول ما يفهمه من قوامته أن يكون حاميها، إن أصابها مكروه فهو المُلام حتى لو أقرَّت ببراءته كل محاكم العالم، الصياد الماهر لا

يعرف فقط كيف يصطاد، بل يعرف أيضًا كيف يحافظ على ثروات القاع، يحميها فلا يبددها فيصير بطن البحيرة مبقورًا فارغًا.. الصياد الذي يأخذ دون أن يعطي تُعاقبه البحيرة بفرار الأسماك من شباكه، منح «حواء» حمايته دومًا؛ فلماذا لم تكن في وفاء الأسماك؟!

هتف «يونس» في الشيخ بغتة:

- فلنعد إلى المنجم، لعلها عادت إليه.

استدار الشيخ بالمقود في الحال وهو يسأله:

- ولماذا تظن ذلك؟

ترك سؤال الشيخ معلقًا، وفي عقله يتردد الجواب، «حواء» لا تتصف بالغباء لتلقي بنفسها في غيب الصحراء دون دليل، إن ابتعدت عن المنجم فستفعل ذلك وهي تؤمِّن لنفسها طريقًا للعودة، يعرف اهتمامها بالتفاصيل، وبامتلاكها لرجاحة عقل كافية ليتخذ منها الجد «سُلطان» ذراعًا يمنى له في المصنع، وهو الذي لا يثق في مهارة موظفي مصنعه بسهولة، لا يسبغ الجد «سُلطان» مديحه إلا على مستحقيه، يعرف ذلك عن الجد، إذن لعل «حواء» ليست طائشة تمامًا كما يظن.. لم يكن أمامه سوى التمسك بهذا الاحتمال.

سارت في دروب الصحراء مثل الجمل، تحمل فوق ظهرها الآلام والأحزان، ثم تجترها وقت الحاجة.. وعلى رأس أحزانها تتربع أحلامها المبتسرة، لا تخاف من المشاعر، بل من الخسارة، ليست من النساء اللائي يخضن حربًا من أجل الظفر برجل، لكن إن أحبت رجلًا لازمته غير مفارقة، وإن هجرها تتمزق خريطتها، ولن تعود نفسها مرة أخرى. لم تمنح «يونس» الفرصة، لأن الحب لعبة غير مضمونة العواقب، عند مطلع الحب تكون لذة البدايات، وفي نهايته لا شيء سوى جرفٍ هار.

في عقيدتها الرجال كالطيور المهاجرة، إذا ساء الجو يهربون! فكيف تُسلم قلبها لطير سيهجرها؟!

فكَّرت في أنها لو عثرت على مصباح «علاء الدين» الآن في الصحراء، فستطلب من جني المصباح شيئًا واحدًا.. معجزة حب.

تذكرت لحظتها كلمات الشيخ «إنسان»:

- الحب رزق، يؤخذ بالسعي لا بالقوة.

فوجئت بـ «يونس» يندفع نحوها صارخًا بغضب فزعت له رمال الصحراء، وكما أن لكل فعل رد فعل مساوٍ له في القوة ومضاد له في الاتجاه؛ صرخت في وجهه بغضب مماثل، حتى تقافزت الرمال في الهواء هلعًا.

- أنتِ امرأة بلا عقل.

- وأنت كالعادة تُضخم الأمر.

- لعن الله جنود الغباء، لماذا غادرتِ المنجم؟

- ولماذا لا تقول لعن الله جنود الكِبر، الكِبر هو الذي جعلك واقفًا أمامي الآن لتعطيني درسًا في الذكاء، انظر إليّ، انظر.. هل أبدو لك كطفلة صغيرة تنتظر منك تلقينها ما تفعل وما لا تفعل.

- نعم أنتِ طفلة، وغبية، وعقلك أصغر من عقل رضيع.. لو كُنتِ تملكين مقدار ذرة من تعقل لما غادرتِ المنجم وحدك.

ثار جنونها واندفعت تشير إلى الرمال هاتفة:

- انظر هنا، وهنا، وهنا... ماذا ترى؟ لقد صنعتُ سلسلة من الحجارة فوق الرمال حتى أعرف طريق العودة، أردتُ أن أتجول قليلًا حول المنجم بعدما كاد يقتلني الملل في غيابكما، ولن أنتظر منك الإذن لأفعل، أنت لم تعد زوجي، لم تعد أي شيء على الإطلاق.

ثم أردفت بألم يشوبه حزن دفين:

- وكأنك إنسان آلي مبرمج على عَد أخطائي فحسب.. لا يمكن أن تكون بشريًا.

عاصفة عاتية تضرب المسافة القليلة بين جسديهما، صدق الشيخ «إنسان»، علاقتهما في فصل الشتاء.. وكما قال، بعده إما حياة أو موت، لا وجود للحلول الوسط، ولا لأنصاف الحلول.

لم يتدخل الشيخ لتلطيف الأجواء، تركهما يفرغان كل ما بجعبتهما من شحناء، دخلت «حواء» إلى غرفة المنجم، بينما ظل «يونس» في الخارج يفترش أحد الكثبان الرملية بجلسة يبدو أنها ستطول، تركه الشيخ ثم راح ليضرب بعصا المكاشفة فوق جرح لا يزال ملتهبًا.

طرق الشيخ بحجر فوق الجدار عند فتحة الغرفة، أخفت «حواء» عبراتها ودعته للدخول، أشد ما كانت تحتاجه هو أن تبقى وحدها حبيسة جدران أربعة، بعيدة عن الضوء والضوضاء، حتى تتمكن من عرض شريط الأوجاع، فترى صورة أمامها تنعكس فوق الجدران الصخرية، لكن دخول الشيخ قطع الإرسال، تدفقت الكلمات من فمه مُغلفة بحنان أبوي:

- هل تعرفين أنكِ طفلة بالفعل؟

رفعت نحوه عينين لائمتين؛ فعاجلها بضحكة رقراقة ثم قال:

- ومن منا لا يحمل بداخله طفلًا صغيرًا لا يكبر أبدًا؟

قالت ساخرة:

- «يونس» يرى أنني وحدي أحمله، أما هو فالناضج الوحيد.

- هكذا هم الأطفال يا بنيتي، لا يعترفون أنهم أطفال إلا في حالة واحدة، إذا أرادوا التحرر من المسؤولية، ودعيني أخبركِ سرًا، «يونس» رجل يراعي مسؤولياته، وأنتِ من بينها.

- أنا لم أعد زوجته.

- ليس لأنكِ زوجته، بل لأنكِ حبيبته.

صوَّبت نحوه نظرات مستنكرة، ثم قالت:

- «يونس» لا يحبني، ألم تقل بنفسك أن علاقتنا في فصل الشتاء، لو كان يحبني حقًا لكنا الآن في فصل آخر، فصل أكثر دفئًا، كالصيف.

- هل تظنين أن علاقات الحب الناجحة تنتقل مباشرة من الربيع للصيف دون المرور بالشتاء والخريف؟ هذا لا يعارض قوانين الطبيعة فحسب، بل قوانين الحب ذاته.

قالت بعناد:

- الحب ليس له قوانين.

- الماء إن لم تتحكم به خواص كيميائية وفيزيائية صار شيئًا آخر غير الماء، وكذلك الحب، إن لم تُسيِّره خواصه سار شيئًا آخر غير الحب.

لم تجد ما تقول، فعادت إلى سيرتها الأولى:

- «يونس» لا يعرف كيف يحب.

- كيف تعرفين؟

- لأنه لا يفعل ما يدل على ذلك.

- لعله يفعل لكنك لا تفهمين.

- إن كان حبًا فيجب أن أفهمه وأشعر به.

- لعله حب لكنك تزنيه بمقاييس مختلفة عن مقاييسه، لا يمكن قياس الأوزان بالمتر، ولا يمكن قياس الأطوال بالكيلوجرامات.

- الحب ليس له مقاييس.. الحب شيء فطري تعرفه القلوب.

- وكيف تعرفه القلوب؟

- من طبيعته.

- إذن تعترفين أن للحب طبيعة وخواص وقوانين تُسيِّره؟

قالت وقد أرهقها سجال الشيخ:

- لا أعرف.. ماذا تريد أن تقول؟

- افتحي أبواب عقلكِ واسمعيني جيدًا.. دعي كلماتي تنفذ إليه وتستقر به بعض الوقت، ثم لكِ مطلق الحرية في التمسك بها أو لفظها.

أومأت برأسها فاستطرد الشيخ:

- في الحكاية التي قصصتها عليكِ الشمس تهب الأرض الكلمات المضيئة، لذلك نفرت الأرض من كلمات القمر القاتمة، لكن الأرض لم تكن على حق، الشمس والقمر مختلفان في التكوين، لذلك كان نسجهما للكلمات مختلفًا، القمر منح الأرض «الظلام» نعم، لكنها تحتاج إلى الظلام تمامًا كما تحتاج إلى ضوء النهار، لولا الظلام لما نامت الأرض ولما ركنت إلى الراحة، ولصارت الأيام كلها عملًا وشقاءً.. القمر منح الأرض «البكاء» نعم، لأنها تحتاج إلى البكاء، فيخرج منها شوائب الأحزان حتى تعود دواخلها رقراقة نقية.. القمر منح الأرض «الآلام» نعم، لكن لولا آلام المخاض لما تمكنت الأرض من وضع طفلها الأول.. الحب.

ثم أردف بعد حين وقد سكنت أركان قلبها وسلَّمت أذنيها إليه:

- أسلوب التعبير عن الحب عند المرأة يحمل وجهًا مختلفًا عن أسلوب الرجل، وكل منهما يقيس الحب بمعياره الخاص، كل منهما يرى في الحب سطحًا عاكسًا لوجهه وحده، لكن تبقى حقيقة أن الاثنين يتعاملان بالعملة نفسها.. الحُب.

سكت قليلًا ثم قال:

- إذا أردتِ التعامل مع إحدى البلدان فأنتِ تدفعين حسب عملة البلد، وليس حسب ما تشتهيه نفسك من عملات.. وهكذا يجب أن يكون التعامل في الحب.

قد ترى المرأة دلالة الحب أن يقدم لها الرجل عند الحزن العطف والاستماع، بينما يراه الرجل في أن يقدم لها الحلول.. هي تحتاج أذنًا، وهو يمنحها فمًا!

قد يرى الرجل دلالة الحب أن تقدم له المرأة عند الخطأ التفهم والاحتواء، بينما تراه هي في أن تقدم له النصح والسعي جاهدة لتغييره.. هو يحتاج قلبًا، وهي تمنحه عقلًا!

الرجل يواجه المشكلات بصمت، والمرأة تواجهها بالثرثرة.. وإن أيسر الطرق لقتل الحب هي محاولات تطبيع الطرف الآخر، بغض النظر عن تكوينه النفسي.

الرجل عندما يتضايق من أمر فإنه ينعزل عما سواه، وينسحب إدراكه ليتركز حول المشكلة، أما المرأة عندما تتضايق فإنها تصب حنقها على المجرة كلها، والمجرات المعروفة، والمجرات التي لم تُكتشف بعد!

اندفعت «حواء» تقاطعه بضيق:

- أنا على خطأ إذن!

- عندما يكون محور الحديث طبيعة نفسية لا وجود للصواب والخطأ، يوجد فقط ما نعرفه وما نجهله.. تقولين أن «يونس» لا يعرف كيف يحب، فهل سمعتِ من قبل عن الخرافة المشهورة للثعلب والعنب؟

هزَّت رأسها نفيًا فاستطرد:

- الثعلب في الخرافة يشتهي العنب، لكنه لا يستطيع الوصول إليه، فما كان منه إلا أن حاول التخفيف من إحباطه؛ فرمى العنب بأنه «فج حامض»! حيلة استخدمها الثعلب لئلا يعترف بفشله، بجهله، بنواقصه.

ثم أردف باسمًا قبل أن يغادر الغرفة:

- الحب يتنفَّس بينكما.. لكنكما تعانيان من «خطأ في الترجمة».. فلتُفكري قليلًا فيما قلتُ، هناك احتمال أنني شيخ مسن ثرثار أهذي بكلمات جوفاء، وهناك أيضًا احتمال أن كلماتي تضرب في كبد الحقيقة سهمًا.

غادر الغرفة، بقيت «حواء» وحدها كما تمنت، لكن لم يعد عقلها إلى دوران شريط الذكريات، كما لو أن كلمات الشيخ «إنسان» ألقمَت عقلها حجرًا أخرسته.

يشعر أنه شيخ مسن بلغ ساحل الحياة، خالي الوفاض. طوال عام زواجه كانت علاقته بـ «حواء» يمكن وصفها بـ «صُحبة السفينة»، ففي البحر لا صداقة دائمة، ولا علاقات متينة، إنما روابط بُعمر الفراشات، تموت ما إن ترسو السفينة في موانئها مع الدقَّات الأخيرة لعُمر الرحلة.. فلماذا يشعر الآن بحبل خفي لا يزال يربطه بها؟! كما لو أن إحدى الفراشات تحدَّت قوانين الحياة وعاشت بقلبه أكثر مما ينبغي.

تذكَّر روعة البدايات كسحابة لا تلبث أن ترحل سريعًا، دومًا تحملنا البدايات على بناء سقف عالٍ من التوقعات، لكنه كان قانعًا بالنذر اليسير، حلم بامرأة مثل أمه التي عرفها من حكايات أبيه، أو قريبة الشبه منها.. النساء فراشات وديعة كما أخبره أبوه، فلماذا تتنكَّر «حواء» لبنات جنسها؟! كان بحاجة إلى أنثى تترك له نفسها كما يفعل شراع السفينة في أحضان الرياح، أحب البحيرة لسكونها، أما «حواء» فكانت موجًا عاتيًا تهلع منه قلوب أشجع البحَّارة.. لم يجد فيها المرأة التي ظنها، فشعر كمن وقع ضحية الخديعة. أيقن أن المرأة تعلمت من البحر ثلاثة أشياء.. الثورة في مدها وجزرها.. القتل غرقًا لمن يخشاها.. وماؤها لا يروي للظمآن عطشًا!

فقط لو تمكن من الخروج من بطن الحوت، لعل كل شيء وقتها يصبح أفضل.

دنا منه الشيخ «إنسان»، جاوره في مجلسه فوق صخرة تسع كليهما بالكاد، أشعل النار في مجموعة من الحطب، ثم عاد ليحضر العدة اللازمة لصناعة كوبين من «الجَبَنَة»، وما إن تراقصت الرائحة الذكية في الأجواء، حتى حطت بداخل أنفيهما تثير فيهما الاشتهاء.

أخذ الشيخ «إنسان» من خصال جمال الصحراء صبرها، ومن صقور السماء حكمتها؛ فجمع الخصلتين قائلًا:

- الحياة بحر كبير يسعى كل منا إلى أن يصطاد ما به من خيرات، لكننا نجهل ما قد يعلق في شباكنا، قد تصطاد سمكًا وفيرًا يكفي ليشبع قرية كاملة، وفي اليوم التالي قد تجني سمكة واحدة، سامة ولا نفع منها، قد يعلق بشباكك محارة تحوي لؤلؤة ناضجة، أو قوقع حلزوني يخرج لك جسده الرخو الشبيه باللسان إغاظة لك، ثم يدخل إلى مسكنه الآمن بينما لا تملك أنت واحدًا.

قاطع «يونس» حديث الشيخ ساخرًا:

- وقد يخرج لك صغير حمار نافق!

ضحك الشيخ ملء السمع، ثم عادت قسماته إلى جديتها وقال:

- هل تعرف يا بني من بين كل هؤلاء من هو المحظوظ حقًا؟

ترك «يونس» للشيخ مهمة إخباره، استطرد الشيخ:

- من علم أن الدنيا ما سُميَّت دنيا إلا لدناءتها، وحقارتها، فلا يتخذ منها دار مقام، ولا موطنًا لاستقرار، غريب، مجبر على العيش فيها لبعض الوقت قبل أن يرتحل إلى موطنه الأبدي.. هل تعرف لماذا كلما نظر جيل إلى الأجيال التي قبله يوقن أنهم في الماضي كانوا يعيشون حياة أكثر سعادة؟

- لأن الناس في الماضي كانوا أكثر جهلًا.

- بل لأنهم كانوا أكثر بساطة! أحلامهم بسيطة، رغباتهم بسيطة.. كلما ازدادت الحياة تعقيدًا، وارتفع إيقاع سرعتها.. نجد أن السخط يحتل القلوب لافظًا الرضا.

أعقب كلماته بالنظر إلى سماء خضبتها دماء شمس محتضرة، تبع «يونس» أنظار الشيخ، واستقرت عيناه عند أبعد نقطة في الأفق، حيث يبدو كل شيء بعيدًا وقريبًا في الوقت نفسه.. تمامًا كـ«حواء».

قال «يونس»:

- هل تعرف متى كانت المرة الأولى التي أكتشف فيها أن شِباكي تكفي لصيد كل شيء إلا الأحلام؟

انتظر الشيخ الجواب دون أن يحثه عليه، استطرد «يونس» وعيناه تسبحان بين ثنايا السحاب:

- كان حلمي أن أتخذ من المياه موطنًا، ومن السماء سقفًا، ومن سُكان البحر خِلَّانًا، لكن ما إن تخطيت الثانوية العامة حتى أفسدت الحياة أكبر أحلامي، لم أتمكن من دخول الكلية البحرية التي حلمت بها سنين طويلة، فقط لأنني ابن صياد بسيط، لا منصب ولا جاه ولا مال يشفعون لي، فقط ابن صياد ابتلعته الدنيا في جوفها، وأيقظته من حلم أكبر منه.

يعرف الشيخ «إنسان» أن في الصمت احترام لآلام الآخرين.. حينما تفشل الكلمات في أن تكون دواء؛ فالصمت هو الطبيب الوحيد.. قال بعد حين:

- هل تعرف أنني عشتُ أغلب عمري أتنقل بين محافظات عِدة، عملت طباخًا، وعامل نظافة، وأمين مكتبة، ونجارًا، وبائعًا متجولًا.. ثم انتقلتُ

إلى التجارة ففتح الله علي من أوسع أبوابه.. لكنه شاء أن أخسر كل مالي دفعة واحدة، فقررتُ أن أتوقف عن مصارعة الحياة التي أهلكتني، وعدتُ إلى أرضي وناسي، وها أنا منذ ثماني سنوات أشعر بسلام لم أشعر به عندما كان المال يجري بين يدي مثل الماء الزلال.

مر وقت طويل لا ينطق أحدهما بشيء.

- كيف هي؟

سأل «يونس» على استحياء، فقال الشيخ باسمًا:

- كمن ضلَّ طريقه.. مثلك بالضبط.

قال «يونس» متأففًا:

- ليست مثلي، نحن مختلفان.

- المشكلة ليست في اختلافكما، فهذا طبيعي، وأحد قوانين الحياة، المشكلة الحقيقية أنكما لا تُحسنان استغلال الجسور المشتركة بينكما، ليتمكن كل منكما من أن يعبر نحو الآخر.

ثم أردف:

- الرجل والمرأة يا بُني كالشمس والقمر، لكل منهما عالمه الخاص، ولكل منهما أهميته الفريدة للكون كله، قد تتشابه بعض خصالهما، وتتحد سُبلهما فيتعاقب الشمس والقمر، لكن الأساس هو اختلاف مداراتهما، وفي هذا الاختلاف كمال من نوع خاص..

محاولة مسخ القمر ليصير شمسًا لن تصنع عالمًا أفضل!

الأقطاب المختلفة هي التي تصنع الكهرباء.. والمد والجزر هما اللذان يصنعان الأمواج.

اكتفى الشيخ بما قال، جمع أغراضه، وآثر أن يترك «يونس» يبحر وحده قليلاً وسط أفكاره، إذ إن الشيخ أفضل من يعلم أن الرجل يحتاج إلى هذه الوحدة، فهي وقود الحياة التي بدونها يفقد قدرته على الاستمرار، قبل أن يدور على عقبيه قال:

- لا تحرم امرأتك من مشاركتك آلامك، أنت بهذا الإقصاء لا تحميها، بل ترسل لها رسالة سلبية بأنك لا ترغب في قربها منك.

وفي داخل عقل «يونس» تجلَّت له هذه الحقيقة، هو لم يود قط إقصاءها، بل كانت تجتاحه رغبة جامحة في أن يشعر أنه استطاع أن يكون بطلها أو فارسها.. لكنه لم ينجح، لم تثق فيه «حواء» قط، ولم تمنحه صفة الفرسان.. أيكون هذا هو سبب الثقب الأسود الذي التهم بجشع كل اللحظات الجميلة بينهما؟!

{٣}

وفَّى الشيخ «إنسان» بالوعد الذي قطعه لهما، سيساعدهما على الخروج من المأزق، ويخلصهما من مخاطر مجابهة حرس الحدود، هكذا فكَّر «يونس» وهو يستمع مع «حواء» إلى كلمات الشيخ:

- بعد أن تحصَّلنا على التصريحات يجب عليكما مغادرة «وادي العَلَّاقي» في أقرب وقت، لا تقلقا سأتكفل أنا بكل شيء، ولأنني لا آمن عليكما مع أحد غيري فسأعاونكما بنفسي على مغادرة الوادي، ثم سنتوجه إلى بيتي وهناك سيكون بإمكانكما فعل ما تريدان، إن أردتما الاتصال بأهلكما فافعلا، وإن أردتما البقاء كضيفين مرحب بهما؛ فبيتي مفتوح لكما.

سألته «حواء» بقلق يحوم فوق صدرها يُثقل أنفاسه:

- وماذا إن لم ننجح في مغادرة الوادي، ماذا إن افتضح أمر التصريحات المزورة؟

- لا شيء من ذلك سيحدث، ثقي بي يا ابنتي.. والآن استعدا للمغادرة مع شروق الشمس بإذن الله، هيا اخلدا إلى النوم فأمامنا في الغد طريق سفر طويل.

قالها ثم توجه من فوره إلى غرفته الحجرية، بقيت «حواء» في مجلسها حول نار أشعلها «يونس» منذ بداية الأمسية، يجلس في الطرف المواجه لها، يولي ألسنة النار جل اهتمامه، يداعبها بعصا رفيعة، فما إن توشك النار على قضمها حتى يبعدها

سريعًا، تابعت «حواء» تلك المناورة حتى ملَّت وهمَّت بالمغادرة، أوقفها «يونس» بأن نظر إلى وجهها للمرة الأولى منذ صرخ عليها، وقال:

- هل ترغبين في النوم الآن؟

أوشكت على أن تقول نعم، لكنها تركت لنفسها برهة من التفكير دفعتها لتقول:

- لا، الوقت لم يتأخر كثيرًا.

ظنَّت أنه راغب في الحديث معها، إلا أن صمته الطويل أوشك على أن ينبئها بخطأ ظنونها، حتى قال بغتة:

- يجب أن نضع معًا تفاصيل الخطة «ب».

أيقظت كلماته الليل الناعس، رددت «حواء» بدهشة:

- خطة «ب».. ماذا تقصد؟!

ألقى «يونس» نظرة إلى فتحة المنجم المؤدية إلى الغرفة، والتي عبَرها الشيخ منذ قليل، قبل أن يعيد النظر إليها قائلًا:

- يبدو الشيخ واثقًا كثيرًا من أننا سنخرج من الوادي بسلام، أنا أيضًا أثق به لكن ماذا إن لم ننجح في ذلك، إن اكتشف حرس الحدود التصريحات المزورة، فسنُحاكم بتهمة التسلل.. لذلك قلت يجب أن نضع الخطة «ب».

وشوشتها النجوم لتخبرها بأن القادم لا يُبشر بخير، تجاهلت «حواء» ثرثرة النجوم وانحنت بجسدها إلى الأمام، سألته هامسة دون أن تدري لماذا تشعر بأنها مجبرة على إخفاء حديثها عن آذان النار:

- وما هي الخطة «ب»؟

زفر «يونس» نفسًا عميقًا طرد فيه كل توتر يزاحم صدره ثم قال:

- سنروي لهم ما حدث معنا، لكن ماذا إن لم يصدقنا أحد، وهذا وارد جدًا نظرًا لأنها قصة خيالية لا تدخل إلى عقل طفل صغير، ننام فوق فراشينا في منزلنا بـ«كفر الشيخ»، ثم نستيقظ في الصباح التالي في كهف بصحراء «أسوان»! إن لم يصدق أحد حكايتنا فيجب أن نغير أقوالنا، وسيبدو الأمر حينها أننا اعترفنا أخيرًا بالحقيقة بسبب الضغط أثناء التحقيق.

تضخم فضولها حتى بلغ عنان السماء، سألته:

- وماذا سنقول إذن؟

قسم عصاه الرفيعة إلى نصفين، وألقى بها أخيرًا في النار بعدما طال شوقها إليها، فرك كفيه بعضهما ببعضٍ ثم تأمل وجهها لبرهة قائلًا:

- ستقولين أنكِ تعتقدين أنني خدرتك وأحضرتك إلى هذا المكان، نكاية فيكِ، أنتِ لا تعلمين أي شيء ولم تشتركي معي في هذا التسلل إلى هذه المنطقة الحدودية بوعيكِ أو برغبتكِ، أظن أنه لن يصعب عليهم التصديق نظرًا لخلافاتنا وطلاقنا الحديث.. لم ترغبي في الاعتراف بذلك في بادئ الأمر حتى لا تشعرين بالذنب لما سيُلحق بي من أذى، لكنكِ اضطررتِ للاعتراف مخافة أن تُحاكمي بسبب اتهام باطل.. إن لم يستطع كلانا النجاة، فعل الأقل تنجين أنتِ.

تجمدت قسماتها، لا تقوى على الحراك، ومعها كل أفكارها ومشاعرها وكأن الزمن اختار هذه اللحظة بالذات لتتوقف أنفاسه.. أطال النظر إلى وجهها، منذ وقت طويل لم تتقابل أعينهما لتبني بينهما جسرًا، وقت طويل بدا كألف عام من أعوام سُكَّان الصحراء.. نطقت أخيرًا تقول:

- لن أفعل.

بقدر ما ضايقه اعتراضها الذي أنبأه بمهمة شاقة تتألف من محاولات عدة لإقناعها، فإن سرورًا خفيًا تسرب إليه، أكد قائلًا:

- بل ستفعلين، إن ضاقت بنا السُبل ستفعلين، عديني بذلك.

هذه المرة بدت كلماتها أكثر حدة وهي تهتف:

- لن أفعل!

ثم أردفت وهي تهجر مجلسه حول النار، وتغادر بحركة عصبية:

- كيف تطلب ذلك مني؟

لحق بها يقبض على ذراعها ويديرها لتواجهه، أفصح بحزم:

- قلت لكِ ستفعلين، لا فائدة من عقاب كلينا على ذنب لم نرتكبه.. شاب نوبي قابلته اليوم في القرية أخبرني أنه يخشى أن تصل عقوبة التسلل إلى منطقة حدودية إلى الإعدام إذا ما حُوكمنا أيضًا بتهمة التجسس، والتزوير.

نزعت ذراعها هاتفة:

- لن أفعل ذلك بك!

لا يزال الزمن عاطلًا عن السريان، سكتت الرياح عن الترتيل، واختفت عن عينيها كل الخيالات، حتى الشريط السينمائي فشل في إعادة الدوران كعادته كي يذكرها بكل ما فعله «يونس» من قبل، وبأسباب كافية لتكرهه، أغلقت عليها نظراته أي منفذ للهرب، ثم قال محاولًا الوصول إلى أبعد نقطة من نفسها:

- لماذا؟ ألستُ أنا الرجل الذي تكرهين؟ بل الرجل الذي يحتل أكثر الأماكن بغضًا بقلبك؟ ها قد سنحت لكِ الفرصة للتخلص مني.. وإلى الأبد.

السماء رائقة لا تُنبئ بأمطار ليلية، والهواء ساكن لا يشي برياح عكسية، فمن أين إذن تساقطت هذه الأمطار في عينيها، ومتى عصفت الرياح بجسدها لتصيب أطرافها برعشة شتوية؟!

أرادت الفرار، حاولت، جاهدت، عاندت، تحاملت، لكن القيد كان متينًا، والأسر كان حليمًا، لم تنفر منه هذه المرة، ثبتها في الأرض كشجرة عمرها ألف عام، شاخ جذعها، وتهدلت أغصانها ولا تزال أثمارها لم تنضج بعد.

- أجيبيني.. لماذا يصعب عليكِ فعل ذلك؟ ألستُ أنا الرجل الميت الذي تزوجت به كما كنتِ تحبين أن تصفيني.. ألستُ أنا جسد بلا روح كنتِ تبتهلين إلى الله ليخلصكِ منه.. ألستُ أنا من قتلتِ سمكاته ومزقتِ أوراقه وثقبتِ إطار سيارته بغضًا له.. ها أنا أعطيكِ الضوء الأخضر لتوجهي لي المزيد من الضربات، فلماذا لا تفعلين؟

أيحسبها مسخًا بلا قلب، جمادًا بلا عقل، أيظن أنها حقًا تملك القوة الكافية لتلقي به في النار مثل العصا التي ألقاها قبل قليل، صاحت بغضب ارتعدت له عشر نجمات قريبات لحديثها كُنَّ مُنصتات:

- لا أرغب في موتك، ولم أرغب قط.. لماذا تشعرني دائمًا أنني امرأة متحجرة القلب؟ هل تظن حقًا أنني أود أن أؤذيك؟ قتل سمكاتك شيء، وقتلك أنت شيء آخر، يحلو لك أن تراني مسخًا، لكنني لستُ كذلك.

تهدج صوتها مع آخر كلماتها، القيد الذي فرضه عليها بنظراته لا يزال قويًا، فرَّت بعض قطرات المطر من عينيها، لكن لم يكن ذلك هو السبب الذي جعله يطلق تنهيدة قوية ثم يقول:

- أعرف أنكِ لستِ كذلك، بل لعلي أنا المسخ بشكل ما.

كادت أن تخبره أنه ليس كذلك، لم تفعل، إذ تنبهت إلى أمر أدهشها، تحدث الشيخ «إنسان» عن «خطأ في الترجمة»، وكأن كلًا منهما يتحدث بلغة مختلفة عن

الآخر، لكن باغتها شعور قوي في هذه اللحظة أنهما يتحدثان بذات الحروف، وينسجان ذات الكلمات، حتى الفواصل والنقاط، الوقفات والسكنات، علامة الاستفهام ومبتدأ الكلام، الفاعل وما يُرفع به، المفعول وما يُفعل به.. بات واضحًا لها محل «يونس» بقلبها من الإعراب.

الشمس تشير دومًا إلى الحقيقة، لكن الجميع يفضل الضوء الباهت للقمر، ليس لأنه أكثر رومانسية، بل لأن الحقيقة غالبًا ما تكون صادمة، كاشفة، مُلزمة بالكثير.. ولم تجد في نفسها القدرة على الالتزام بشيء؛ لذلك لجأت للهرب، كما اعتادت على أن تفعل دائمًا، هذه المرة لم تلق له بسمكة رنجة حمراء، فقدت قدرتها حتى على صنع ستار للإلهاء.

«يونس» تعلَّم درسه جيدًا، الصياد الماهر لا يترك صيده يعود مرة أخرى إلى البحر في اللحظة التي يحكم فيها الشباك حوله؛ لذلك لم يسمح لها بالفرار، انقض على معصمها ثانية يثبتها في مواجهته، ودَّ لو قال الكثير، ودَّ لو منحها آذان قلبه ليسمع كل ما تريد أن تقص عليه من حكايات، لم يكن يومًا بهذا القدر من الراحة والانفتاح، وكأن جبالًا من الوساوس سقطت عن كتفيه في هذه اللحظة بالذات. أراد إبحارًا آمنًا بين صخور البُعد وشعاب الاقتراب؛ فناشدها هامسًا:

- ابقي قليلًا.

وكانت أكثر من يرغب في البقاء، تراءى لها الليل يقظًا أكثر، ودافئًا أكثر، يُذكِّرها بأنها الليلة الأخيرة لهما بين أحضان الصحراء، عادت إلى مجلسها حول النار، جاورها «يونس»، لفظ الصمت من قاموسه، وأخذ يقايضها الكلمة بالكلمة، أما هي فعاهدت نفسها ألا تدير الشريط السينمائي أبدًا هذه الليلة.

دار بينهما حديث غريبين قريبين! يتحسَّس كل منهما موضع كلماته لئلا يطأ منطقة مُلغمة تنسف وِدًا يطل برأسه على استحياء عند الحدود الفاصلة بين أرضيهما.

سابقت الكلمة أختها حتى أوصلتهما معابر الحديث إلى اليوم الأخير لـ «حواء» في المصنع، فما كان من «يونس» إلا أن طالبها بأن تشرح له بالتفصيل ما حدث بينها وبين الرجل الذي عرض عليها المال مقابل المعلومات التي تلزمه من مكتب الجد «سُلطان»، ولأنها تملك ميزة الاهتمام بالتفاصيل؛ أخذت تشبع فضوله بوصف ما حدث وكأنه يراه رأي العين.

حكَّ «يونس» رأسه كمن يستجدي عقله العمل بسرعة أكبر، ودقة أكثر، ثم قال:

- الكلمات التي وجدتها على الجدار كانت «بر إي لق».. هل تمثل لكِ أي معنى؟

- لا، أسمعها للمرة الأولى، بأي لغة تكون يا تُرى؟

- لا أعرف.

تذكرت «حواء» البطاقة فأسرعت تخبره بأمرها، وتصفها بدقة، تختم حديثها قائلة:

- لكنني لم أفهم معنى رأس التمساح المطبوعة فوق هذه البطاقة.

راقبت تغير قسمات «يونس» واضطرابه، اضطراب لا ترصده سوى عين يقظة، ولشد ما كانت عيناها يقظتين تلك الليلة، نهض فجأة يتمنى لها ليلة سعيدة، وقفت بدورها تسأله بدهشة عما أصابه، لم يجبها، كان حادًا وهو يقول:

- يكفي سهرًا، سنتحرك باكرًا.

قالت بعناد:

- لا أريد النوم.

فانفعل محتدًا:

- هل تظنين أننا في شرفة المنزل، هذه صحراء شاسعة لا نعرف ما الذي تخبئه لنا، ثعابين، ذئاب، عقارب.. هيا للداخل.

وكأنه اتفق مسبقًا مع أحد الذئاب، دوى صوت عواء طويل مزَّق السكون وزلزل قلبها.. فعلت كما طلب على مضض، لم تملك القوة الكافية للشجار مرة ثانية في اليوم نفسه، لكن الأرق ظلَّ يحاورها حتى مطلع الفجر، لا يلقي عليها سوى سؤال واحد فحسب.. لماذا تغير «يونس» فجأة بمجرد أن أتت على ذِكر البطاقة ورأس التمساح.. هل يمكن أن يكون «يونس» أحد أسباب الغرائب التي تحدث لها؟! ساعات طوال لم تعثر على جواب مقنع تمنحه للأرق فيقر به عينًا..

وازدادت حيرة على حيرة.

قرعت الرياح ناقوس المغادرة؛ طفقت الشمس الوليدة تطل عليهم من خصاص السحاب بفضول كبير، ترقب حركاتهم، وتسجل في ذاكرتها لحظات سكونهم، قال الشيخ «إنسان»:

- الطريق طويل إلى الجزيرة، هيا يجب أن نتحرك الآن.

- جزيرة! أي جزيرة؟

لم يجب الشيخ سؤال «يونس» في الحال، تحركت السيارة تحمل ثلاثتهم وتشق بهم الطريق فوق دروب الرمال، تنثر بعضًا منه على الجانبين، أو لعل الرمال هي التي تتقافز من تلقاء نفسها، تلوح لهم بكفوفها مودعة.

يعتقد أبناء الصحراء أن للرمال ذاكرة كعقول الإنس والجان، تحتفظ ببصمات أقدام السائرين عليها، وترسل لهم مراسيل شوق عبر ذرات الهواء، وما

إن يسوقهم إليها الحنين مرة أخرى، حتى تبثهم الحب عبر حرارتها.. الرمال كأحضان العُشَّاق، كلما ألهبها الشوق، ازدادت حرارتها!

- جزيرة «هيسا».. حيث أعيش.

تلك هي المرة الأولى التي يعرفان فيها أن بيت الشيخ «إنسان» يقع فوق جزيرة نوبية على ضفاف النيل تُدعى «هيسا»، أقدم جُزر شمال النوبة، بدا الشيخ شغوفًا بالحديث عن جزيرته وهو يقول بمزاج رائق وكأنه ذاهب في نزهة:

- لا يمكن وصفها بالكلمات، يجب أن تروها بالعين والفؤاد.. لكنني أؤكد لكما أن من يخطُ بقدميه فوق جزيرتنا مرة؛ يُقيَّد إلى الأبد بالحنين إليها.

أخبرهما الشيخ «إنسان» أن اليوم مميز لأبناء «أسوان»، الخامس عشر من يناير والذي يمثل عيدها القومي، تكريمًا لأبنائها الذين ارتضوا بالتهجير حماية لوطنهم الأم من أخطار الفيضان؛ يأمل «يونس» أن يصير هذا اليوم في ذاكرة الأيام عيده هو الآخر، إن كُتبت له ولـ «حواء» النجاة من نقطة حرس الحدود.. ابتهل إلى الله أن ينجيهما دون مصاعب.. ثم قذف الله في قلبه كلمات صاحب الحوت، حين ناجى ربه في الظلمات، تذكر أباه يومًا حين قال:

- ما أفسده العالم تصلحه «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين».

ردَّدها إلى ما شاء الله له أن يردِّدها.. فوجد السَكينة تتنزَّل على قلبه والرحمات.

التفت يطمئن على «حواء»، رآها ساكنة، تعقد حاجبيها بشدة، وعيناها تسبحان في اللون الأصفر من حولها، شعر بخوفها الرابض وراء هدوئها، أراد أن يبثها بعض الأمان؛ فوجد أنه لا يملك منه الكثير، استدار عائدًا إلى سيرته الأولى، وحبال «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» بينه وبين ربه لا ينقطع وصلها.

السفر الطويل ملعقة تُقلب وعاء العقل وتُخرج ما سكن بقاعه من أفكار، وما تراكم بجوانبه من ملاحظات منسية؛ لذلك بعدما قطعت السيارة من عمر الرحلة ساعة إلا ثُلثها، تذكر فجأة الفراشين الآخرين في غرفة الشيخ الحجرية، أو العنجريب كما يحلو للشيخ تسميته، جال بخاطره أن يسأل الشيخ في الحال، لكن وساوسه قفزت بعقله تُحذره، وتطلب منه أن يتريث، استجاب لها دون أن يعرف أسبابها، لكن السؤال التصق بعقله كما يعلق جسد الحلزون الرخو بسطح صخري أملس.. لمن الفراشان الآخران يا تُرى؟

أخرجت الملعقة المزيد من الأفكار، فعكف عليها يغزل منها كلمات كما كانت الشمس تصنع بخيوطها الذهبية في قصة الشيخ الخيالية..

رجل يساوم «حواء» على معلومات تخص المصنع، ثم يلقي في وجهها بتهديداته، ويدس في حقيبتها بطاقة تحمل رسمًا لرأس تمساح.. خطابات سبعة غير معلومة المصدر، وكتابة فوق جدران بيته بلغة غريبة.. انتقالهما الفجائي إلى كهف في وسط الصحراء الشرقية.. خدعة الشعر الأبيض.. وغريب يُنقِّب عن الذهب ويستعبدهما مقابل الطعام والمأوى.. والشيخ «إنسان» حارس المنجم الذي لا يكف عن نسج الحكايات الخيالية، عن أرض حُبلت في الزمن بعد الزمن، وقوانين فصول أربعة تُشكل دستورًا للحب!

لساعة ويزيد فشل في أن يسير في حذاء الشمس، لم يستطع أن يجد كلمة واحدة يجمع بها كل هذه الخيوط المتضاربة، وكأن كل خيط ينسج قصة منفصلة بذاتها.

وعندما أوشك على أن يصل إلى حافة التعب اصطدم بسؤال آخر أيقظ انتباهه ثانية، لماذا كان الشيخ «إنسان» متوجهًا صوب خيمة الغريب التي تبعد مسافة كبيرة عن المنجم، وتقع في جهة مختلفة عن قرية «وادي العَلَّاقي»؟!

كان الأمر بسهولة بمكان، مرت خدعة التصريحات المزورة على نقطة حرس الحدود على الطريق دون صعوبات.. كان ليكون هذا مصدر سعادة كبير لـ «يونس» لكن على العكس من ذلك، شعر بالمزيد من الخطر.

فعندما قدَّم الشيخ «إنسان» للضابط بطاقتي هوية لـ و«يونس» و«حواء» اندهش كلاهما، وعندما سألاه فيما بعد من أين تحصَّل على البطاقات، أجاب ضاحكًا بغير وجَل:

- بالطبع مزورة.

لم ترق ثقته لـ «يونس».. لم ترق له على الإطلاق.

قالت «حواء» وهي تحاول عبثًا فض غلاف علبة بسكويت، تنزلق بين أصابعها المتعرِّقة:

- «أسوان» المحافظة جميلة حقًا.. مقارنة بالأيام الماضية فكأنني انتقلتُ فجأة من العصر الحجري إلى العصر الحديث.

أخبرها الشيخ «إنسان» أن «أسوان» كانت تُعرف في عصر المصريين القدماء باسم «سونو»، أي السوق، لأنها كانت مركزًا تجاريًا للقوافل من وإلى «النوبة»، ثم سُميت في العصر «البطلمي» بـ «سين»، ثم سماها النوبيون «ناب أسوان».

يلتفون حول طاولة تستقر بأحد أركان مطعم صغير، حاول كل منهم نزع عباءة التعب لدقائق قبل استكمال الرحلة من جديد. وكما وعد الشيخ «إنسان» منح «يونس» فرصة الاتصال بجده، لكن ما ألقى بالفزع في قلبيهما أن المحاولات الست الأولى للاتصال بالجد وأمها باءت بالفشل، حتى قطع صوت الجد في الاتصال السابع صوت الرنين الرتيب المزعج، فتنفسا الصعداء.

تبادل «يونس» مع جده كلمات قليلة قبل أن يتغير وجهه، إذ صاح به جده:

- «يونس» أين كنت طيلة الأيام الماضية.. وأين «حواء».. داهمت قوة من الشرطة البيت والمصنع قبل قليل.. ماذا فعلتما.. لماذا تبحث عنكما الشرطة؟

تلجلج منطق «يونس» واحتار هل يخبر الجد بالحقيقة، أم يعرض عنها إشفاقًا به، وأخيرًا استقر على أن يخبره بها، ففعل في عجالة، بداية من الكهف، مرورًا بالصحراء، وحتى نقطة تفتيش حرس الحدود والمرور بتصريحات مزورة، هتف الجد بجزع:

- هل تخبرني بذلك الآن بعد أن زوَّرت التصاريح وبطاقات الهوية، أين كان عقلك يا «يونس».. أنتما في خطر شديد.. أخبرني أين أنتما الآن وسأرسل من يعاونكما على الاختباء حتى أبحث لتلك المشكلة عن حل مع أحد المحامين الكبار.. إياك أن تعود إلى «كفر الشيخ» أنت و«حواء» وإلا ألقت الشرطة القبض عليكما في الحال.. ولا تستخدم الهاتف، لعلهم يستغلونه في التنصت على المحادثات.. «يونس» هل تسمعني؟

أطلق زفرة حارة قبل أن يقول:

- نعم يا جدي أسمعك.. لا تقلق علينا.. أنا و«حواء» بخير.. سأفعل ما قلت وسأنتظر مساعدتك.

أخبره أنهما سينزلان في جزيرة «هيسا» عند الشيخ «إنسان»، وأنهى الاتصال بأسرع مما توقعت «حواء»، حتى إنه لم يسمح لها بمخاطبة الجد، أو الاتصال بأمها.

جذبها إلى حيث الطاولة التي غادرها الشيخ «إنسان» ليتبادل حديثًا بدا وديًا على بُعد خطوات قليلة مع أحد معارفه. تعرف «حواء» معنى تلك التقطيبة التي

نبتت فوق جبين «يونس»، وزم شفتيه بقوة، وحك ذقنه بأنامل مضطربة، وكلها علامات لا تُبشر بخير، حثته «حواء» ليفصح عما حوته تلك المكالمة القصيرة، فقال «يونس» دون أن يخفي قلقه:

- قال لي جدي إياك أن ترجع، ابق أنت و«حواء» بعيدًا عن «كفر الشيخ»، واحذر من استخدام الهاتف.

سألته بوجه حمل الدهشة كلها:

- لماذا؟

- لأن الشرطة تبحث عنا.

غاص قلبها في صدرها، هل اكتشفت الشرطة أمر التصريحات المزورة، بالطبع، كيف كانا من الغباء أن ظنا أنها ستمر عليهم مرور الكرام! تملك الخوف من عقلها حتى أعجزه عن التفكير، سألته بلهفة:

- وأمي كيف هي؟

- لا تقلقي، بخير.

- ماذا سنفعل يا «يونس»؟

- لا أعرف! لا حل أمامنا سوى انتظار مساعدة جدي.

كان غاضبًا، غاضبًا جدًا، المرة الأولى التي تلتجئ إليه «حواء» باحثة في جُعبته عن حل لورطتها، يكتشف أن جعبته خالية من وسائل الإنقاذ، حتى هذه المرة لم يستطع أن يكون فارسها.

عاد الشيخ «إنسان» وتلقَّي الأخبار من «يونس» الذي اختتم حديثه قائلًا بتوتر بالغ:

- من السهل أن تصل إلينا الشرطة عن طريقك يا شيخ.

- لا، لن يحدث ذلك، فعنواني المدون في البطاقة هو عنوان قديم خارج أسوان بأسرها.

ثم أردف:

- إذن فلنستكمل طريقنا إلى الجزيرة على بركة الله.

عادوا إلى السيارة لكن هذه المرة أفسحوا لليأس مكانًا بينهم؛ فحظوا برفقته طوال الطريق.

***

توقفت السيارة بالقرب من ضفة النيل، المكان تحدوه الصخور وقليل من النباتات التي تنمو بين الشقوق، أجاب الشيخ «إنسان» عن سؤال لم يسأله أحد:

- سننتظر هنا المركب التي ستوصلنا إلى «هيسا»، كما أخبرتكما الجزيرة في وسط النيل، وهذه هي الطريقة الوحيدة لبلوغها.

لم يسمعه «يونس»، إذ تعلقت عيناه وقلبه بالمياه، ترجَّل من السيارة واقترب منها وكأنها تناديه: «يونس».. «يونس».

سمع قلب الحوت نداء المياه فرَقَّ لحاله، وفتح فمه على اتساعه؛ فأبصر «يونس» عبره اللون الأزرق، اشتاق للاقتراب أكثر، وكأن قوة عليا أجبرت الحوت في هذه اللحظة بالذات على أن يلفظ «يونس» على أعتاب المياه الرقراقة، هناك عند ضفة النيل، دنا منها رويدًا رويدًا، وكأنه يلاقي حبيبًا بعد فراق، هل كان هذا شعور نبي الله عندما لفظه الحوت من قلب الظلمات؟ كمن يولد من جديد، من قلب الظلمات نأتي وإليها ننتهي، وما بينهما نتقلب بين نور وظلام، فكأن «يونس» الآن يرى النور الذي حُرم منه لثماني سنوات، منذ أن مات أبوه، وفارق البحيرة.. حتى أوشك على الظن أنه لن يذوق للحياة طعمًا من جديد.

بلهفة المشتاق أطال اللقاء مع النيل، حتى نسي «حواء» والشيخ «إنسان»، والجد، وشرطة تسعى خلفه لتقيده بجُرم هو منه براء.. عندما لفظ الحوت نبي الله كان قد أدرك ومنذ وقت طويل أنه أخطأ حين يئس من قومه أن يؤمنوا بالله، ورحل عنهم مغاضبًا قبل أن يأذن الله له، تركهم وراءه لا يؤمن فيهم أحد، وركب السفينة مبتعدًا، لكن الله أمر حوت البحر بابتلاعه في بطنه، وعندما لفظه الحوت بأمر الله وعاد إلى قومه وجدهم وقد آمنوا جميعًا بالله الواحد القهار، فأدرك أن الغضب يورد المهالك..

لكن «يونس» اليوم لا يزال يجهل خطأه المميت الذي جعل حوت الدنيا يبتلعه في بطنه لسنوات!

دنت منه «حواء» بقلق، ترددت مخافة أن تثير بسؤالها بركانًا غير خامل، ثم قالت أخيرًا:

- هل أنت بخير؟

لو تعرف كم هو بخير الآن لتمنت أن يصيبها ما أصابه، نظر إليها يزيح أستار القلق عن وجهها ببسمة رائقة سرقت من النيل بهاءه، هز رأسه قائلًا:

- لا تقلقي، لم أجن بعد.

طبعت ابتسامة فوق شفتيها وقالت:

- يجب أن أقلق، لن يكون لطيفًا إن عُدت بك إلى الجد «سُلطان» بنصف عقل، سيتهمني بأنني من سرق النصف الآخر.

على ذِكر الجد، والعودة التي صارت حُلمًا تجعد جبينه، لكنه حاول أن ينسج فوق وجهه قناعًا غير مُحكم، لكنه يكفي ليُطمئنها، ثم قال:

- لا تقلقي، سنعود قريبًا.

فأومأت برأسها تُصدق على كذبته، وتنسج فوق وجهها قناعًا مماثلًا لتُطمئنه.

امتدت يد «يونس» عابثة بمياه النيل المتطايرة حول المركب، يُبحر به شاب نوبي اسمه «تَمَّام»، يحمل الود فوق أحد كتفيه، والثرثرة فوق الآخر، بالوِد والثرثرة وموتور صغير استطاع المركب أن يفرق بين ذرات المياه حتى وصل إلى مرساته عند مقدمة جزيرة «هيسا».

أول ما وقعت عليه أنظار «حواء» قطة تموء، احتجزت بين صخور متراكمة على حافة الجزيرة، تواصلت معها «حواء» بعينيها لبعض الوقت، لم يقطع مجال إبصارها سوى يد «يونس» الممتدة ليعاونها على مغادرة المركب، ما إن وقفت فوق أرض الجزيرة حتى اجتاحها دوار بسيط إثر رحلتها الأولى عبر النيل، أحس بها «يونس» فترك كفها بين راحتيه لبعض الوقت، حتى أومأت برأسها تقول:

- أنا بخير.

كان الشيخ «إنسان» يسير بخطوات مُتعجلة، بدا كأنه استعاد نشاطه بالكامل، يحق له ذلك فبعد قليل سيكون في بيته، محاطًا بكل شيء يألفه، أما هما فلا يزالان غريبين فوق أرض غريبة، ولا يعرفان متى ستنتهي اللعنة ويتمكنان من العودة إلى بيتهما ثانية.

عند المرسى مروا ببيت نوبي أخضر اللون، إلا أن بوابته غير عادية! تزينت من الجانبين بأربع جماجم كبيرة، لم تستطع «حواء» بدقة تحديد هوية الكائن الذي حمل فوق جسده هذه الجمجمة يومًا، لكنها استطاعت أن تشعر بالنفور من شكلها.

بيت الشيخ «إنسان» يقع فوق ربوة عالية، أخبرهما أنه أعلى بيت في الجزيرة،

من بعيد طافت عيناهما فوق جدران البيت المطلية بالأزرق الزاهي، والأبيض الناصع، بوابته برتقالية اللون ترسل بإشارات البهجة في الهواء؛ فتلتقطها قلوب الزائرين في الحال، صعدا منحدرًا طويلًا حتى وصلا إلى البوابة البرتقالية يلهثان تعبًا.

ترك الشيخ على الأرض متاعًا قليلًا أحضره معه من المنجم، وظل يحمل بين يديه مغلفًا كان قد توقف بالسيارة ليحضره من أحد معارفه الذين مر بهم في الطريق، همَّ بالتقاط المفتاح من جيبه، في اللحظة نفسها انفتحت البوابة البرتقالية ليظهر من خلفها امرأة ترتدي جلبابًا داكنًا لم تميز «حواء» لونه في ضوء الشمس الساطع الذي كاد يغشي عينيها، تعلقت المرأة بعنق الشيخ وهي تبكي برقة، تقول كلمات بالنوبية، لم تميز منها «حواء» سوى كلمة واحدة كررتها المرأة مرتين متتابعتين، «إيكا مُشكري»..... (أوحشتني).

كانت المرأة تتحدث بلغة تطرق مسامع «حواء» للمرة الأولى، إلا أن الكلمات الحميمية يفضحها الصوت الذي يغلفها.. كلمات الحُب لا تستقر دافئة في قلب الحبيب إلا إذا استمدَّت من صوت المُحب حرارته.

احتوى الشيخ اندفاع المرأة وهمس لها بكلمات كانت بعيدة عن مرمى آذان المتطفلين، ثم انحنى ليمسك المغلف ويتركه بين يديها، قائلًا:

- أحضرت لكِ ما طلبته مني قبل الرحيل.

فضَّت المرأة الستينية المغلف بابتهاج الأطفال، تابعتها «حواء» في فضول، رفع «يونس» حاجبيه في دهشة عندما قالت المرأة كلمات سريعة باللغة النوبية، ثم تضيف والسعادة تشع من وجهها:

- أوراق شجر الموز، وقطع صغيرة من جلود الجمال.. هذه أجمل هدية حصلت عليها!

ثم انحنت لتقبل كف الشيخ، وبالكف الآخر مسح الشيخ فوق رأسها بحنان كبير. تنحنح «يونس» وقد ظن أن الشيخ نسيهما تمامًا في حضرة المرأة التي صبَّ عليها وافر اهتمامه.

رفعت المرأة إليهما وجهًا يحمل رائحة بكاء طازج، واتسعت ابتسامتها الدافئة وهي تنقل أنظارها بين «يونس» و «حواء».. رحَّبت بهما بحفاوة أذهبت الكثير مما علق بصدريهما من غبار السفر.

فتحت البوابة البرتقالية على مصراعيها فولجوا إلى مَندرة البيت المزدانة بلوحات جدارية للنيل والمراكب الشراعية وللرمال والجبال والكهوف الصخرية.. أصفر وأزرق وأبيض وأسود ولون الشمس الأحمر الهارب من فتحات النوافذ، ملأت الألوان البيت بالبهجة شاركهم فيها الأصفر والأخضر المطلية بهما الأرض الأسمنتية، تُشكِّل مربعات شطرنجية.. وكأن قوس قزح زار البيت مرة وترك هداياه قبل الرحيل.

المرأة الستينية زوجة الشيخ «إنسان»، كانت مفاجأة كبيرة لكليهما، وقد ظنا أن الشيخ لا زوجة له ولا أولاد، كانا محقين بخصوص الأولاد، أما زواجه فلا يزال أساسه متينًا عكس الروابط المهترئة التي تسُود أغلب العلاقات الشبابية اليوم! زوجته طويلة سمراء، متوسطة القوام، خفيفة الحركة، لينة الملامح، تتسع ابتسامتها لتشمل عينيها، وكأنها النسخة الأنثوية عن الشيخ «إنسان»!

سمعت «حواء» في مكان ما، أن المتحابين يتشبَّه أحدهما بالآخر بمرور الوقت، حتى يصيران كيانًا واحدًا بجنسين مختلفين.

وعندما تطلعت إلى وجه «يونس» رأت فيه اختلافًا كبيرًا عنها.. فامتلأ جوفها بمرارة لم يفلح البلح النوبي الذي قدمته لهم السيدة «ملوك» في تبديدها.

البلح كان فاتحًا للشهية، أما الغداء فأتى محمولًا فوق «طبلية» كبيرة توسطت

الممر الموازي للبوابة البرتقالية، والذي يستر عنه الشمس سقف من الخوص.. خبز نوبي أخبرتهم السيدة «ملوك» أنها صنعته خصيصًا من أجلهم، دجاج مقلي و «أناجر» فتة يتصاعد منها البخار، وطبق كبير يحوي «الإتّر» الحريفة بالشطة الحمراء، ظنته «حواء» في بادئ الأمر صحنًا من الملوخية، وكان المشروب البارد الذي خفف من آثار حرارة الشمس دلوًا كبيرًا من «الأبْريه»، عندما استفسرت «حواء» عن مكونات الشراب اللاذع، أخبرتها السيدة «ملوك» وهي تفترش وسادات الأرض بجوارها في الممر:

- «الأبْريه» يا ابنتي شراب نوبي، كسرات من دقيق الذرة المخمر، منقوعة في ماء بارد مسكر وعصير الليمون.

أطفأ الشراب البارد ظمأ «حواء» حتى أنساها عطش ليالي ونهارات الصحراء، تذكرت وقتها ما أخبر به رب العزة عن الجنة ونعيمها، مَن يُغمس فيها غمسة واحدة ينسى كل شقاء الدنيا وعذاباتها وآلامها وكأنه لم يعشها قط.. فكانت «حواء» كمن غُمس في جنة النوبة مرة، فنسي ما سبقها من عذاب ألف مرة.

تبدَّل كذلك مزاج «يونس» وهو يتطلع إلى النيل المار بجوار بيت الشيخ، يفكر أنه في المكان الذي يجب أن يكون فيه، تلاقت عيناه بنظرات «حواء»، فابتسم لها، وبادلته البسمة بأجمل منها.. دنا منها في معزل عن مراقبة الآخرين، سألها:

- هل أنتِ بخير؟

خفق قلب «حواء» بنبضات متضاربة؛ فاندفعت الدماء في عروقها كموج البحر، تتخبط بين مد وجزر، وكأنه همس في أذنها بألف كلمة حب، بل وكأنه سرق من دفاتر الأشعار وقلوب العشاق كلمات سرية، وأهداها لها وحدها! تعجبت من نفسها كيف لسؤال بسيط كهذا أن يمس قلبها بهذه النسمات المنعشة، ثم فطنت إلى أن الكلمة لا تأتي بأثرها إلا لو اتحد المكان مع الزمان والحال، وصنعوا منها نسيجًا

فريدًا، كما كانت الشمس تنسج خيوطها الذهبية في حكاية الشيخ «إنسان».

المكان ربوة عالية تطل على مجرى للنيل الرائق، والزمان فوق الجزيرة يسير بقوانين مختلفة عن العالم بأسره، والحال بين خوف ورجاء، رغبة ورهبة، والكثير من النبضات غير المفهومة.. انقطع سحر الكلمات سريعًا، ولم يبق من آثارها سوى ذكرى وأمنية، أن يعود السحر ثانية، وأن ينعمان معه بحياة أبدية.

- كانت أيامي كلها عادية، وفي عدة أيام فحسب انقلب عالمي رأسًا على عقب.

قالها «يونس» وهو ينفث بضيق، لم تكن السيدة «ملوك» امرأة عادية، امرأة يبهجها ورق شجر الموز وجلود الجمال لا تكون أبدًا امرأة عادية، أثار حديثها انتباه «يونس»، ويدها تمتد كل حين إلى صحون بلح الحجازي، والقنديلة، والقرقودة، والسكوتي، وتعطيه ليأكل، وما إن يلتهم واحدة حتى تعطيه أخرى، قالت السيدة «ملوك»:

- لا يوجد يوم عادي، لا يتشبه يوم بآخر.

قال «يونس» بتردد وقد خشي أن يكون لاعتراضه على كلمات المرأة معنى تستقبحه:

- لكن الكثيرين يرون الأيام متشابهات، ومع ذلك يستمرون في العيش.

وأخفى عنها «وأنا واحد منهم».. قالت السيدة «ملوك» وكأنها تُخاطب طفلًا يجهل، ويجهل أنه يجهل:

- هؤلاء لا نقول عنهم أحياء، ولا أموات كذلك.. أحياء أموات هو الوصف الأدق.

ثم تبعت ذلك بجملة طويلة بلغتها النوبية لم يعِ منها «يونس» حرفًا، خرجت «حواء» من البيت لتنضم لهما عند الممر، أما الشيخ «إنسان» فقد استأذن للانصراف منذ بعض الوقت، وترك الشابين في ضيافة زوجته.

أشارت السيدة «ملوك» إلى الداخل وقالت:

- هيا، استريحا قليلًا، الرحلة شاقة وتبدو آثارها واضحة فوق وجهيكما.

تبادلت «حواء» مع «يونس» نظرة حرج قبل أن تلتفت إلى المرأة وتقول:

- معذرة إن أثقلنا عليكِ، إننا نشعر بالحرج كثيرًا و...

لم تسمح لها السيدة «ملوك» بأن تُكمل عبارتها، وبادرتها تقول:

- ولمَ الحرج يا ابنتي؟ بيتنا مفتوح لسياح الشمال، نقتسم معهم نصف البيت ونوفر لهم الطعام والشراب، هذا عملنا الذي نتكسَّب منه، فماذا إن فتحتُ البيت لشابين خلوقين مثلكما لقاء صحبة طيبة تمنحانها لسيدة عجوز ورجل كبير في عُمر جديكما؟

أذهبت كلماتها الكثير من الحرج العالق في النفوس، أرشدت «حواء» إلى غرفة تضم عنجريبًا واحدًا، يتوسطها باب يفضي إلى غرفة أخرى داخلية تحوي عنجريبين.. ألقى «يونس» بجسده فوق أحدهما.. بعد حوار قصير مع «حواء» لم يتخلله أي شجار كعادتهما.

أغلقت «حواء» الباب الذي يفصل بين غرفتيهما، أخذت تفكر في أحداث هذه الرحلة العجيبة منذ أن استيقظت في بطن الكهف، بل أعادت الشريط للخلف أكثر، إلى المصعد، حينما نطق «يونس» بالكلمة التي تغير بعدها كل شيء، كانت تستعيد هذه الذكرى من قبل بكثير من الراحة، لكن الآن باتت الذكرى أكثر إيلامًا، دون أن تفهم سببًا لذلك.. الحقيقة التي لا نعثر عليها في يقظتنا نبحث عنها في رقادنا، ظلَّت تعاقر السهر تنقب عنها حتى أدركها الكرى.

أخفى إرهاق الأمس عن إدراك «يونس» الكثير، استيقظ باكرًا، عبر الباب الفاصل بين الغرفتين، ألقى نظرة متفحصة على «حواء» النائمة بعمق، ثم خرج ليتجول قليلًا في البيت بهدوء لئلا يوقظ أصحابه.

أبصر فوق الجدران ما أثار زوابع الدهشة في نفسه، فاللوحات الجدارية التي رآها بعين الإرهاق بالأمس، لم تكن سوى رسومات باليد فوق الجدار، رسم خلقته أصابع فنان يجيد بث الحياة في الجدران!

بعد ساعة استقر طعام الفطور فوق الطبلية، التف أربعتهم حولها في الممر، والنيل يشاركهم لحظات السمر، يضحك لنكاتهم، ويحزن لهمومهم.. طافت أنظار «حواء» فوق وجه الرجل الذي مكثت في بيته ثلاثمائة وخمس وستين يومًا وكأنها تراه للمرة الأولى، أو ترى فيه وجهًا غير الذي عرفته وألفته، لم يعد كالجمل الذي يجرجر أحماله، كان مبتهجًا كثيرًا هذا الصباح، وكأن قدميه تحررتا من أثقالهما؛ فغدا طيرًا خفيفًا تحتضنه السماء برفق بين جنباتها.

كانت «حواء» حائرة، كيف تدعو المرأة، هل تقول السيدة «ملوك»، أم «الحاجَّة ملوك»، أم تلقبها كما تُلقَّب زوجها، «الشيخة ملوك».. بدَّد الشيخ «إنسان» حيرتها عندما قال لها:

- قولي لها «يويو».. هكذا تُحب أن يدعوها أبناء الجزيرة، تزوجنا كِبارًا، لم يمن الله علينا بالذرية، لذلك كل شباب الجزيرة يعدونها في مقام جدتهم، «يويو» تعني «جدتي» بالنوبية.

انتقل الحديث مباشرة أثناء تناول الشاي إلى الشعيرات البيضاء في مقدمة رأسيهما، وقد ابتدرهما الشيخ «إنسان» قائلًا:

- عندما أخبرت زوجتي القصة كاملة، بدا أن لديها رأيًا هامًا يفسر هذه القصة العجيبة.

كانت السيدة «ملوك» قد واتتها الفرصة لتتفحص شعر «حواء» أثناء تحضير طعام الإفطار، بعدما نزعت حجابها في مأمن من العيون، افتتحت السيدة «ملوك» حديثها في جلستهم الرباعية بعبارة نوبية، فبادرها الشيخ «إنسان»:

- تذكري أن الشابين لا يفهمان لغتنا، ووه غالي.... (يا عزيزتي).

ثم نظر نحوهما قائلًا باعتزاز:

- زوجتي تتحدث دائمًا بلغتنا النوبية، لكنها بتشجيع مني تعلمت العربية وبعضًا من الإنجليزية حتى تستطيع التواصل مع السياح الذين يأتون إلى جزيرتنا.

ربتت السيدة «ملوك» فوق كفه، ثم التفتت صوب الشابين تقول:

- تربينا على حكايات قديمة أضحت جزءًا منا، بعضنا يظنها مجرد حكايات تسرق انتباه الصغار وتزور أحلامهم في ليالي قمرية، والبعض الآخر يرى في الخيال أشباح الحقيقة تُفصح عن نفسها.

عبأت رئتيها بالهواء العليل، ثم قالت:

- دُونت الحكاية في كتاب «ألف ليلة وليلة» على لسان «شهرزاد» في إحدى لياليها الألف.

ما إن أتت السيدة «ملوك» على ذكر الكتاب المفضل لـ«حواء» حتى صبَّت هذه الأخيرة كل تركيزها على المرأة التي أَردفت تقول:

- تحكي القصة عن ابنة وزير آية في الحُسن والكمال، تُدعى «زهرة الورد»، وشاب فقير صار بعشقها مشغول، يُدعى «أنس الوجود».. يتراسلان سرًا بمكاتيب العشق والهيام، حتى وقعت إحدى الرسائل في يد الوزير، فما كان منه إلا أن اتفق مع زوجته أن يودع «زهرة الورد» في وسط جزيرة نوبية بمعزل عن الجميع، ويمدها بالطعام، والماء، ومن المؤن كل ما تحتاج، حتى يبقيها في مأمن من العشق.. جمع من البنَّائين والنجَّارين أمهرهم، وأمرهم ببناء قصر منيع في الجزيرة فوق الجبل، وخصَّص لها من يؤانسها ويخدمها.. مغلوبة على أمرها لبَّت لأبيها أوامره، وقبل الرحيل نقشَت على باب بيتها رسالة إلى «أنس الوجود» تخبره بما فعله أبوها الوزير، وما إن حطَّت رحالها فوق الجزيرة حتى عاد الخدم بالمراكب إلى الشاطئ الآخر، يكسرونها بأمر

من الوزير، فيقطعون بذلك على «زهرة الورد» حلم العودة إلى الديار. أتى الصباح حاملًا رياح الفراق، توقف «أنس الوجود» عند الباب عندما كان ذاهبًا لخدمة السلطان، وقرأ رسالة حبيبته الأخيرة، اشتعلت النيران في قلب العاشق، وانتظر حتى جاء المساء حاملًا رداءً حالكًا للتخفي، وسار لا يهتدي سوى بالنجوم، يبحث عن حبيبته المنفية، حتى تقرَّحت قدماه.

تقطعت أنفاس السيدة «ملوك»؛ فانتظرت حتى انتظمت ثم تابعت:

- ساق الله في طريق «أنس الوجود» حيوانًا ناطقًا أرشده إلى آثار خطوات حبيبته، وعرف من أحد العابدين الزاهدين أن المراكب أوصلت الحبيبة إلى الجزيرة البعيدة، ثم عاد بها الخدم، وحطموها عند الشاطئ.. استعان بتمساح كبير حمله على ظهره وعبر به النيل إلى الجزيرة.. وفي النهاية استطاع «أنس الوجود» إقناع الوزير بزواجه من «زهرة الورد»..

طافت الدهشة في عيني «حواء» سبع مرات، وأودعت فيها سبع حيرات، ثم انطلقت تطوف بعيني «يونس» سبعًا متماثلات.. كان «يونس» هو أول من حرَّر لسانه من قيود الدهشة قائلًا:

- وما علاقة هذه القصة بما يحدث معنا؟!

أشار إليه الشيخ «إنسان» قائلًا:

- تريَّث يا بني، لم تسمع بعد بقية الحكاية.

تساءلت «حواء»، هل الحب هو ما جعل من هذين الزوجين نسختين متطابقتين إلى هذا الحد، أم أنهما كانا يتشابهان منذ البداية؟! فالمرأة تتحدث بلسان زوجها، والزوج يتحدث بلسان زوجته، وكأنهما في عالم خاص بهما، ينسجان من الكلمات ما لا يعقله سواهما!

قالت السيدة «ملوك» بعدما أخرجت نواة بلح من فمها قليل الأسنان، وأسندتها إلى حافة الصحن:

- هذا ما قالته «شهرزاد» كما دونته الأقلام في بطون الكتب، أما الحكاية فلها بقية لا يعرفها سوى أجداد الأجداد.. نسيها الجميع إلا واحدًا، ظل يورثها جيلًا بعد جيل، حتى وصلت إلى أحفاد الأحفاد، إلى «هَدَل».. خادم أولوم.

خرجت «حواء» عن صمتها لتكرر في حيرة:

- خادم أولوم! ماذا تقصدين؟

أردفت السيدة «ملوك» بعينين تبرقان شغفًا:

- «أولوم» كلمة نوبية تعني تمساح.. «هَدَل» خادم التماسيح هو حفيد لأحد الحُراس الذين أرسلهم الوزير لحماية ابنته في الجزيرة، وحده يعرف بقية حكاية «زهرة الورد» و«أنس الوجود» التي لم ترِوها «شهرزاد» في لياليها الألف، خادم التماسيح هو الحفيد الوحيد المتبقي على قيد الحياة، وهو وحده الذي يملك بقية الحكاية.

- وما علاقة هذا بنا؟

سألها «يونس» مرة أخرى في تململ واضح، أشارت السيدة «ملوك» إلى الشعر الأبيض الضارب في رأسه، ثم قالت بحنكة العارف:

- هذا الشعر الأبيض هو الرابط بين قصتكما وباقي القصة المفقودة.. والصندوق الذي يملكه خادم التماسيح هو دليل صدق الحكاية!

{٤}

بادره الشيخ «إنسان» عند عودتهما من صلاة الفجر بمسجد الجزيرة:

- «أوشريا ساع آوي».. هل تعرف تلك الشفرة؟

تطلع إليه «يونس» متسائلًا، كان الشيخ قد لاحظ الضيق الذي يعتلي وجه «يونس» عندما يتحدث الشيخ بلغته النوبية مع السيدة «ملوك» والرجال بالمسجد، لعله ظن أن في ذلك عدم احترام لضيف لا يعرف تلك اللغة؛ فأردف الشيخ:

- كانت تلك الكلمات القليلة هي شفرة النصر في حرب أكتوبر، هل تعرف ذلك؟

هز «يونس» رأسه المنشغل بالأفكار نفيًا، فاستطرد الشيخ:

- كانت القيادات تبحث عن شفرة جديدة لا يتمكن اليهود من فكها، ليتبادل بها الضباط والجنود التعليمات أثناء الحرب، فاقترح أحد الجنود على قادته استخدام اللغة النوبية، لأنها لغة تُنطق ولا تُكتب، ولا يتحدث بها سوى أبناء النوبة فحسب.

اللغة النوبية قسمان، لغة الكنوز، نسبة إلى اللهجة الدنقلاوية التي يتحدث بها أهل السودان في «دنقلة»، ولغة الفاديكا، ويتحدث بها السكوت والمحس والحلفاويين..

وكانت «أوشريا ساع آوي» هي شفرة ساعة الصفر التي حيَّرت اليهود في حرب أكتوبر، «أوشريا» أي اضرب، «ساع آوي» أي الساعة الثانية، ومنذ هذا الوقت سُميت بـ«شفرة النصر».

لاستخدام اللغة النوبية كشفرة حرب كانت القيادات في حاجة إلى جنود يجيدون اللغة، وتلك كانت مزية النوبيين الذين كانوا يعيشون في النوبة القديمة قبل التهجير، لأنهم حافظوا على تراث أجدادهم اللغوي، أما المهجرون من أرضهم فكثير منهم هجر اللغة مع التراب.

فهم «يونس» أن لهذا السبب يحرص الشيخ والسيدة «ملوك» على التحدث باللغة النوبية، وكان يتحدث مع الإمام منذ قليل حديثًا طويلًا لم يتخلله كلمة واحدة عربية.

قال الشيخ بعزة وقد وصلا إلى نهاية المنحدر:

- لا خير فينا إن لم نحافظ على لغة أجدادنا وسمحنا لها بأن تندثر، من الحماقة أن يتخلى المرء عما يميزه.

صمت «يونس» إعجابًا، فعاجله الشيخ:

- ماذا قررت أن تفعل؟

تنهد بحيرة وقد أتى الشيخ على ذِكر طريقه الذي بات مسدودًا، قال:

- لا أعرف.

قبل أن يفترقا كلٌ إلى غرفته، قال الشيخ:

- إن أردت رأيي فلن تخسر شيئًا من زيارة خادم التماسيح وسماع ما عنده.

بات «يونس» ليلته يقلب حديث الصباح في رأسه، لم يصدق من كلمات السيدة «ملوك» حرفًا واحدًا، خياله جامح لكن للعقل حدود، بحث فيما قالته عن محمل

واحد من المنطق فلم يجد، المرأة تهذي بحكايات أجدادها فوق جزيرة نوبية، وبسبب الشعر الأبيض تصر على الربط بين ما حدث معه خلال الأيام الماضية، وبقية مفقودة لحكاية من عصور «ألف ليلة وليلة»!

لماذا إذن يسير الآن برفقة «حواء» والشيخ «إنسان» في الطريق إلى منزل ذاك الـ«هَدَل» خادم التماسيح؟ لأنه لا يدري ماذا يفعل غير ذلك، اليأس عدو الإنسان، يدفعه إلى طرق ما ظن أن يطأها قط، وها هو يدفعه إلى أن يقف على أعتاب بيت رجل يُكذِّب ومنذ الآن كل الكلمات التي سينطق بها، مهما قدَّم له مِن دلائل، وأمارات.

مرَّت بخاطره فكرة نبتت بداخله ليلًا أثناء حديث الشيخ عن اللغة النوبية، وما إن أتى الصباح حتى استطال عودها، وزاحمت الأفكار في رأسه..

«بر إي لق».. قد تكون هذه الكلمات باللغة النوبية!

«حواء» أيضًا كانت تفكر في أحاديث الليل، وهي في طريقها إلى بيت خادم التماسيح، تجاذبت مع السيدة «ملوك» أطراف كلمات ودِّية.. علَّمتها كيف تفرك جسدها بالدلكة السودانية ذات العطر الثقيل المميز، رغم اعتراض «حواء» في بادئ الأمر، إلا أنها انصاعت لإرشادات المرأة، تسير في منعطفات لا يطأها الاهتمام عادة.. بعد الحمام المنعش أشعلت السيدة «ملوك» المبخرة وأمرتها بأن تمر فوقها عدة مرات؛ فتمكَّن العطر من أن يتغلغل داخل مسامها، ودون سؤالها جذبتها السيدة «ملوك» لتضفر شعرها بعشرات الضفائر الصغيرة، أسلمت لها «حواء» نفسها وهي تتعجب كيف لسيدة في عمرها لا تزال يشغلها العناية بالجسد والزينة، أفصحت عن تعجبها، فأجابتها السيدة «ملوك» ضاحكة:

– المرأة النوبية تفعل ذلك حتى إن كانت على عتبات الموت.

هذه المرأة ليست بسيطة كما يبدو، قلبها عامر بالحكمة، تمامًا كما هو الحال مع قلب الشيخ «إنسان».. حدثتها بأحاديث الفتاة لأمها، وتحصلت منها على إجابات بعض الأسئلة التي كانت تزاحم أفكارها منذ سنوات المراهقة، منعتها أبلة «عفت» من التلفظ بها.. وما إن تهدَّم آخر أسوار الحرج بينهما، حتى أفصحت لها عن أدق مشاعرها خصوصية.. عن الحب، والرجال، والزواج.. لم تستقبح السيدة «ملوك» منها قولًا، بالرفق والحنان أخذت تحيك الإجابات، وترد الشبهات.. توقفت «حواء» كثيرًا عند آخر كلماتها قبل أن تفارق مجلسها:

- كل منا يعيش في الحياة بوجهين.. وجه يراه الناس.. ووجه خاص لا يظهر إلا في أوقات الخلوة بمعزل عن الأعين.. الوجه الخاص هو نقطة ضعفنا.. هو الثغرة التي يستطيع بها إنسان أن يدخل ويتغلغل في أرواحنا.. اعثري في الرجل يا ابنتي على هذا الوجه.. وستجدين أبواب قلبه مفتوحة لكِ.

وقفت «حواء» تتفحص بيت خادم التماسيح، تظلله شجرة وحيدة وارفة، نفس البيت الأخضر عند المرسى، والذي احتجزت القطة بين الصخور المجاورة له.. بحركة تلقائية التفتت تنظر إلى موضع القطة فلم تجدها، علها استطاعت إنقاذ نفسها من موت مُحقق.

باتت الرؤوس المحنطة التي تستقر على جانبي الباب أكثر وضوحًا، الجمجمة أسطوانية، الأسنان حادة وقاطعة، إنها رؤوس تماسيح محنطة! ومعرفة ذلك جعل مظهرها أكثر بشاعة.

صاح الشيخ «إنسان» بصوت جهوري:

- يا «هَدَل».. يا «هَدَل».

لحظات وأطلَّ هذا الـ«هَدَل»، تسد قامته الفارعة المعبر الوحيد إلى بيته، نحيف جدًا، أكثر نحافة من أي إنسان عرفاه من قبل، بشرته شديدة السمار، رأسه الحليق بالكامل بدا كثمرة بندق ناضجة، ينفذ منه عينان زرقاوان حادتان، نظراته مسنونة كالرمح، تثير في جسد الرائي قشعريرة باردة، على الرغم من حرارة الشمس المتوهجة فوق الرؤوس، تحركت ثمرة البندق يُمنة ويُسرة لتلتقط العينان الحادتان كل مجالات الإبصار الممكنة.

ينسدل فوق جسده جلباب أسود ذو تطريز يدوي بلون أسود، بدا في وضح النهار ملفتًا للأنظار، يحمل بين ذراعيه قطة سوداء بعين واحدة، تموء بغير انقطاع، أما الأخرى فمُصفاة بالكامل! يتحسس ذيلها ويلفه بين أصابعه، كانت القطة تمامًا كسيدها، مثيرة في غموضها، مُنفرة في نظراتها.

أشار برأسه نحو الداخل، ثم سبقهم، تقدمت «حواء» بفضول وراء الشيخ «إنسان»، تبعهم «يونس» بتردد كبير، لم يحب كل ما يحدث، لم يحبه على الإطلاق. باب البيت يفضي إلى مندرة واسعة مُعدة لاستقبال الزوار، جلس خادم التماسيح في صدرها فوق وسادة أرضية، استكانت القطة بين يديه، ثم أشار لهم برأسه للجلوس.

لم تكن القطة وحدها رفيقة صباحاته، من التشققات الصغيرة في أسفل الجدار خرجت النمال تمرح بحرية وكأنها صاحبة البيت لا الرجل الجالس قبالتهم، توقف بعضها بالقرب من أقدامهم بغير وجل، يسترقون السمع إلى حديث لم يبدأ بعد، ومن كوة مفتوحة في الجدار تعبر الطيور إلى داخل البيت، تحمل ما شاء لها من زاد، ثم تغادره وهي تشيع صاحبه بأصواتٍ صاخبة.. رصد «يونس» فأرًا كبيرًا عبر من غرفة لأخرى، فأخفى عن «حواء» أمر الرفيق الخامس الذي يشاركهم البيت في هذه اللحظة.

من الكلمات القليلة التي تبادلها الشيخ «إنسان» مع «هَدَل» عرفا أنه قصَّ عليه في جلسة سابقة كل ما حدث معهما من البداية، وحتى انتهى بهما الحال في مندرة بيته. تحدث خادم التماسيح للمرة الأولى فخرج صوته أجش غليظًا يحمل بحة مميزة لا تستسيغها الآذان، قال:

- أريد أن أرى الشعر الأبيض أولًا.

قدَّم «يونس» رأسه إلى نظرات الرجل الجائعة، سمح له أن يعبث بها بأصابع نحيلة وطويلة تبدو كالأشباح، نظيفة ومقلمة بدقة وهوس، جلدها المجعد يحفظ تاريخ سنوات عمره التي تجاوزت المائة بعامين! تركه حتى شبعت عيناه، لكن مع «حواء» كان «يونس» حازمًا، لم يسمح للرجل بالعبث في شعرها، أو حتى رؤيته.

وعندما عاد «يونس» إلى موضع جلوسه وسبحت عيناه في وجه «هَدَل» أفزعه تبدل الرجل بالكامل، كانت عيناه تشعان ببريق الشغف، وكأن رؤيته للشعر الأبيض في رأس «يونس» فجَّرت في الرجل كل طاقته، بدت حركاته أكثر سرعة وحِدة.. كالمجاذيب!

نهض خادم التماسيح وقتل الضوء المتسلل من الكوة، سمح المستطيل الزجاجي الشفاف أعلى الباب بنفاذ حفنة من الضوء؛ فطافت المندرة في عتمة مجروحة، أغلق الكوة قبل أن تتمكن إحدى الحمامات من اللحاق برفقائها؛ فأخذت تطوف فوق الرؤوس تستنجد بهديل طويل.. عاد إلى مجلسه، اختلط في الظلام بؤبؤ عينه الضيق بتضاريس حبة البندق فلا تكاد تبين، أتى على ذِكر حكاية «زهرة الورد» و«أنس الوجود»، فاضت جعبته بروايات عن جد أجداده الذي عرف بقية الحكاية، فقصها عليهم خادم التماسيح بصوت مبحوح، وكأنه يخرج من أحشاء مذياع قديم، قال:

- الحكاية انتهت في القصة المعروفة بزواج الحبيبين، وما عرفه جد أجدادي أن هذه لم تكن النهاية، فبعدما اجتمع شمل المحبين تكاثرت عليهما الخلافات، حتى ظننا ألا مهرب منها إلا إليها، كادت العواصف تطيح بقلبيهما كلٌ في وجهة بعيدة عن الآخر، حتى ضاقت «زهرة الورد» بحياتها، وطلبت من أحد السحرة المهرة أن يجد حلًا لإعادة وصل الحب بينهما. أخبرها الساحر أن الحل الوحيد هو صنع صندوق لحبس الشتاءات، لأن الشتاء يفسد الحب، ويُعجل بهلاكه، ثم أمر أمهر النجارين بصنع صندوق تحبس فيه «زهرة الورد» الشتاء الذي يهدد سعادتها مع «أنس الوجود»، وألقى عليه الساحر بتعويذته ثم غمره في مياه النيل، وبقى حتى يومنا هذا في باطن النيل يحرسه تمساح كبير، يتولى نسله المهمة من بعده، وفي كل عام يستدعي الصندوق المسحور زوجين تعصف بحياتهما الشتاءات، ويسمح لهما بأن يحبسا شتاءهما بداخله؛ فيتخلصا للأبد من البرق والرعد والعواصف الهوجاء، وتستحيل حياتهما إلى خريف يمهد لمجيء صيف أبدي لا ينتهي أبدًا بفراق، وعلامة ذلك هو الشعر الأبيض الذي يضرب في رؤوس الشباب!

تبع ذلك بعبارة طويلة بلغته النوبية، وكأنها جزء من أغنية، بصوت شبَّهه «يونس» بعواء الذئب الذي سمعه في ليلته الأخيرة بالصحراء.. لم يكلف الشيخ «إنسان» نفسه عناء ترجمتها إلى العربية، ثم انقطع هدير صوته كتوقف شاحنة كسيحة في منتصف الطريق، وعندها توقفت القطة عن موائها، وكفَّت الحمامة عن هديلها، الجميع يتحدث عن شتاءات الحب وخريفه وصيفه وربيعه، هل جميع من في جزيرة هيسا يعيشون في زمن غير الزمن، وعالم غير العالم، ويتحدثون بكلمات لا يؤمن بها سواهم؟!

«يونس» رجل لا يفكر إلا بمنطق، ولا يقرر إلا بمنطق، ولا يتحرك إلا بمنطق؛ فمن المستحيل أن يغرق في بحور الأساطير والخرافات، كاستحالة غرق الأسماك

في بحيرة «البُرُلس». صنع الإنسان الأول طوفًا استطاع أن يغزو به عالم البحار والأنهار، أعَجِز «يونس» أن يكون مثل الإنسان البدائي فيصنع طوفًا يؤهله لغزو عالم الأساطير والحكايات؛ فيصطاد من بين أشباح الخيال الحقيقة الوحيدة الضائعة؟

لكن أي حقيقة تلك التي تسكن عالم الخيال؟ الحقائق تعيش هنا في العالم الواقعي، الحقيقة قابلة لأن يلمسها ويشمها ويتذوق طعمها، وحكاية صندوق الشتاءات المسحور الذي يحرسه تمساح في قاع النيل مثل الماء الجاري، بلا لون وطعم ورائحة.

كذَّب «يونس» كل ما سمع وقد كان بالفعل يبيت نية التكذيب، أما «حواء» فتجولت الحيرة بوضوح فوق تضاريس وجهها، ثم أخذت من كهوف عينيها مستقرًا ومقامًا. أمسك «يونس» بيدها وجرها خلفه إلى الخارج دون أن يقول للشيخ وصاحبه كل ما يجول في رأسه بشأنهما، فقط همس لـ «حواء»:

- كل هذا جنون، سنذهب من هنا.

وفي هذه اللحظة حدث ما لم يتوقعه أحد، هتف خادم التماسيح بكلمات من خلفهما، جعلت قدمي «يونس» تستقران في الأرض وكأنهما هناك منذ الأزل، كلمات لا يعرفها سواه و «حواء»، كلمات لم يذكرها لأحد غيرها، كُتِبت فوق جدران بيته بلون دام.. أم تُراها أخبرت بها الشيخ «إنسان»، وأخبر الشيخ بدوره هذا الـ «هَدَل»؟! كلاً، لو فعلت ذلك لأخبرته.

- بر إي لق.

استدارت إليه «حواء» بجسدها كاملًا، وكل خلية فيها تهفو لمعرفة معنى هذه الكلمات التي لم تذكرها لأحد قط، ودون أن تسأل أسبغ عليها «هَدَل» بكرمه، ومنحها ما تريد:

- «الحد الفاصل».. هذا معناها في النصوص القديمة.

لم يشكل لهما «الحد الفاصل» أي معنى قريب أو بعيد، سطحي أو عميق، «الحد الفاصل»! ما معنى ذلك؟!

وكأن هذا الـ«هَدَل» يقرأ ما لا يُكتب، ويسمع ما لا يُقال، لديه عينا صقر تستطيعان اقتناص فرائس الأفكار من مأواها داخل العقول؛ لذا فقد قال بصوت ازدادت بحته:

- «الحد الفاصل» هو الاسم القديم للجزيرة النوبية «فيلة».. لكنها سُميت في تراثنا الشعبي بجزيرة «أنس الوجود»، «فيلة» هي الجزيرة النوبية التي يدور حولها صندوق الشتاءات المسحور.

دنا منه «يونس» مبهوتًا، أضاف خادم التماسيح باستمتاع كبير لمرأى أمارات الذهول فوق الوجوه:

- إذا ظهرت لكما هذه الكلمات بشكل أو بآخر، إذن فظني صحيح، أنتما المختاران من الصندوق المسحور، لتحبسا بداخله مشاكلكما للأبد.. لكن لا يمكن أن يتم ذلك إلا إذا اجتمعت رغبتكما، وعندما يحدث ذلك تعرفان مكاني.

قالها ثم دار على عقبيه، وأغلق البوابة من خلفه بقوة اهتزت لها رؤوس التماسيح المحنطة وكأنها تشاركه الرأي، تمكنت الحمامة أخيرًا من الانطلاق نحو سماء الحرية، أما «يونس» و«حواء» فقد تقيدا من جديد بقيود لا تُرى، ولا يملكان لمغاليقها مفتاحًا.

«بر إي لق».. تعني الحد الفاصل باللغة القديمة.. وهي ترمز إلى جزيرة «فيلة».. الجزيرة التي حبس فيها الوزير ابنته «زهرة الورد».. وأطلق الساحر تعويذته ليدور حولها الصندوق المسحور في قاع النيل.

قالت «حواء» وهي تسير برفقة «يونس» بمحاذاة المياه الرقراقة:

- أعلم أن القصة كلها غريبة، لكن كيف علم هذا الرجل بأمر الكلمات التي كُتبت فوق جدران البيت.. أنا لم أخبر أحدًا بذلك، كذلك لم تفعل أنت.. كيف علم إذن؟

فرَّت كل الإجابات من جعبة «يونس» وتركت له علامة استفهام كبيرة فشل في تبديدها، استطردت «حواء»:

- القصة غريبة ويصعب تصديقها، لكن لا أستطيع أن أنكر أن جزءًا مني يميل إلى هذه الحكاية.

توقف «يونس» عن السير، وأخذ ينظر لها معاتبًا وهو يقول:

- تصدقين هذه الخرافات إذن!

توقفت «حواء» بدورها وقالت وهي توليه جل اهتمامها:

- السحر ليس خرافة، بل مذكور في القرآن، أي أن وجوده حقيقي، فلماذا لا تكون هذه الحكاية قابلة للتصديق؟ لماذا لا يكون هناك بالفعل صندوق مسحور يختار كل عام زوجين متشاحنين ليقدم لهما فرصة التخلص من كل مشاكلهما، للأبد؟!

- هذه نقرة، وتلك نقرة أخرى.. قصص «ألف ليلة وليلة» أساسًا حكاية خرافية.

- بل حكاية شعبية.

- وهل هناك فارق؟

- «يونس»، الجوانب الصامتة من التاريخ تسجلها الحكايات الشعبية، التاريخ انتقائي، يختار فقط ما يناسب أهواء الحُكام والسلاطين، وما دون ذلك يسجله الناس كنصوص شعبية.. و «ألف ليلة وليلة» هي نصوص شعبية بلا مؤلف، تم جمعها في كتاب.

هتف «يونس» مستنكرًا:

- إذن تقولين أن حكاية «أنس الوجود» حقيقية؟

- افهمني بدون عصبية.. الحكايات الشعبية قبل جمعها في الكُتب كانت تُنقل شفاهيًا، أي تتعرض لعناصر الذاكرة، والأهواء، والرؤية الحياتية، والذائقة الشخصية.. التي قد تضيف لها أو تحذف منها قبل أن تُدون كتابيًا..

حتى إن «أنطون جالان» عندما ترجم الكتاب لأول مرة إلى الفرنسية أضاف نصوصًا لم تكن موجودة في الكتاب الأصلي.

أخذته كلماتها إلى أماكن لم يتجول فيها من قبل، ورغم ذلك هز «يونس» رأسه نفيًا بحزم:

- هذا لا يبدو لي منطقيًا.

لم تود أن تصر عليه ليصدق بقدر ما أرادت لحديثهما أن يمتد لفترة أطول، قالت:

- الكثير من حولنا لا يخضع للمنطق يا «يونس»، افهم ذلك، المنطق لا يصلح لتفسير كل شيء، المنطق يعاني أحيانًا قصورًا في فهم طبيعة الإنسان، ورغباته، وأهوائه، وشطط أفكاره، لا يمكنك تفسير كل شيء بالمنطق.

وللمفارقة، بدا كلامها منطقيًا، إلى الحد الذي أسكته للحظات، قبل أن يقول:

- هل تصدقين حقًا أن بإمكاننا التخلص من مشاكلنا للأبد، إن حبسنا شتاءنا في صندوق شتاءات مسحور بقاع النيل؟

لاحت ابتسامة جزلة فوق شفتيها وهي تقول:

- بل أصدق أن الحقيقة تكون أحيانًا أغرب من الخيال.

- لذلك يسهل عليكِ دائمًا أن تنساقي وراء الأوهام الغبية.

ندم فور أن نطق بها، لكن السهم فارق القوس ولا سبيل لعودته مرة أخرى، همَّت بالمغادرة، بعد أن منحته نظرة عتاب مستنكرة، أوقفها بسرعة يقول:

- آسف، لم أقصد قول ذلك بهذه الطريقة المنفرة.

- تظن أنك ذكي لأنك رجل، وأنا غبية لأنني امرأة.. دعني أخبرك إذن أننا متساويان في كل شيء، لا فرق بيننا على الإطلاق.

توقف عن السير والتفت صوبها يقول بهدوء لا يثير التحدي في نفسها، بل الإنصات فحسب:

- لا أظنك غبية، بل امرأة ذكية، وذكية جدًا، لدرجة أنني أتعجب كيف لا تنتبهين لمواضع الخلل فيما تعتقدين.

- ماذا تقصد؟

أراد هو الآخر لعُمر حديثهما أن يطول، قال:

- بعض الباحثين كانوا يظنون أن الأطفال إن نشأوا في بيئة تربوية متماثلة لا تفرق بينهم كذكر وأنثى سينشأ جيل لا يهتم بهذه الفروقات.. أتاح اليهود هذه الفرصة للباحثين، من خلال تجميع المهاجرين الجدد في مزارع باسم «الكيبوتس».. حاولوا فيها خلق «يوتوبيا بالمفاهيم الذكورية» أساسها القوة والتحدي والتفوق المادي.. اعتمدوا على مبدأ المساواة في كل شيء، البنت والولد يرتديان نفس الثياب والألوان، يقصان شعرهما بالطريقة نفسها، يتعلمان نفس المواد، يتلقيان نفس الاحتياجات.. يعتمد الطفل على المؤسسة لا على الأب أو الأم حتى لا يُزرع في رؤوسهم الفروق بينهم وبين الجنس

الآخر.. توقع المسؤولون أن بعد مرور عدة أجيال ستتلاشى الفروق بين الجنسين.. لكن صدمة عنيفة كانت في انتظارهم، ذهبت أحلامهم أدراج الرياح، فما زال الأطفال يكبرون وهم حريصون على ممارسة دورهم الفطري كذكور وإناث.. فثبت بالدليل القاطع أن عقول الجنسين مختلفة بالفطرة، وليس بالتنشئة فحسب.

صمت للحظات ثم أردف:

- أي أن هناك فروقًا بالفعل مهما بذلتِ من الوقت والجهد والعناد في إنكار ذلك.. لكن الفرق لا يعني تدني أحد الجنسين وتفوق الآخر.

لدهشتها بددت كلماته غضبتها السريعة، ارتحلت مع كلماته إلى مناطق مهجورة في نفسها.. أردف:

- لذلك أعتذر إن فهمتِ من كلماتي أنني أنظر لكِ بدونية.. لأنني لا أفعل.

بكلمات صريحة وواضحة أطفأ شرارة النار قبل أن تلتهم الأخضر واليابس، وتركت خلفها خيطًا من الدخان سرعان ما اختفى كما لو أنه لم يُولد قط.. فطن إلى أن أسلم الطرق لوأد الصراعات في مهدها هي أن يقف الطرفان على أرضية مشتركة ثابتة، بمعالم واضحة، دون إساءة في الفهم أو الظن.

كان بإمكانه أن يتركها وظنها، بأنه يحقِّر من شأنها، لكن حينها كانت الشرارة ستتحول إلى وحش ناري أهوج ينهش كلاهما معًا.. النار تبدأ من المكان الذي نبتت منه الشرارة الأولى، لكن الرياح تستطيع أن تحملها إلى أماكن بعيدة.. بعيدة جدًا.

طافت أنظاره حول قارب يعكف صاحبه على ربطه حول جذع شجرة صفصاف كبيرة راكعة بجذعها صوب النيل، إنه «تَمَّام»، الشاب الذي أوصلهما من ضفة النيل إلى الجزيرة في يومهما الأول، لم يكن قد تنبه من قبل إلى عبارة كُتبت بخط أنيق على أحد جانبي المركب

«نووبة أرجي جوويني.. تاليج مالوو أجوويرني»

قرأها وهو في طريقه إليه، أشار لـ «حواء» كي تتبعه، تبادل مع «تّمَّام» كلمات ودودات تتخللها ضحكة وبسمة، أفضت إلى أن سمح لهما بالإبحار فيه لساعة كما طلب «يونس»، خاصة وقد علم أنه يحل ضيفًا على بيت الشيخ «إنسان»، ومن ذا الذي لا يكرم ضيوف الشيخ «إنسان».

بعدما ابتعدا بالقارب عن المرسى بمسافة قليلة، فطن «يونس» بحدسه إلى شخص يرشق عينيه في ظهره، التفت ليجد من يتلصص عليهما مستترًا بشجرة الصفصاف الكبيرة، لم يتبين من هذا البُعد وجهًا، لكن الرداء الأسود المنسدل فوق جسد طويل نحيف أنبأه بهوية ذاك المتلصص الخبيث!

للمرة الثانية تخوض «حواء» مغامرة ركوب النيل، خلعا مشاكلهما على الشاطئ، ونزعا عن كاهلهما الألغاز والغرائبيات، طاف «يونس» بالقارب في النيل الرحيم كطفل عاد إلى رحم أمه يستكين، يسلم نفسه إلى أمواج الحياة بداخلها، تحركه كيفما شاءت، استيقظ الصيَّاد من رقاده الطويل، وتمرَّد على وضعه الأسير، رفع وجهًا صبغته شمس أسوان إلى السماء، يناشد ربها أن تتنزل عليه أمطار الرحمات، رنت إليه «حواء» باهتمام، ترقب كيف أنعشت النزهة النيلية روحه مثل أرض جدباء تاقت طويلًا إلى سقياها.

في الليلة الماضية سمع أحدهم في مسجد الجزيرة يقول إن النيل يقتفي أثر كل نوبي فقده أثناء التهجير، يناديه، ويدعوه للعودة إليه، ولا يسمع حديث النيل سوى أبناء هذه الأرض، صدَّقه «يونس»، وأمَّن على دعاء النيل، لم يتهمه بالجنون، لأنه ظلَّ لسنوات طوال يسمع تسابيح بحيرة «البُرُلُّس».

كانا في تلك اللحظات محاطين بالطبيعة فحسب، لا صوت لآلات صماء، ولا رائحة لعطور مصطنعة، لا هواتف نقالة، ولا مواقع افتراضية، فقط حياة بصورتها

البدائية، بدستورها البكر.. شعرا أن الزمان في مدينتهما كان كمن اتفق مع الكون سرًا بأن يسير بسرعة قصوى، لا تترك لهما فسحة للشعور أو التفكير بروية.. أما في هذا المكان فلا شيء يعلو فوق صوت العقل والقلب.. لا شيء يشوش الرؤية ويصيب الروح بالتخمة.. الزمان هنا يسير ببطء.. يترك الفرصة للعواطف كي تنضج، وللأفكار كي تترقى، وللكلمات كي تتقاطر كشلال عذب.. صدق أينشتاين إذن عندما وضع للزمن قانون النسبية.. يتمدد ويتقلص من مكان لآخر.

تبدَّل مزاج «يونس» بالكامل، شاكسها، ضاحكها، لاعبها، ووسط رذاذ المياه وضجيج الكلمات كان للصمت دور الغواية، سمعت منه ما لم ينطق به من قبل، عن بحيرة وأسماك وحوت ابتلعه بداخله لثماني سنوات! عن أمه وأبيه، عن صحبه وجده الذي يأويه، قرب النهاية نبوح بكل شيء واريناه، ونتذكر كل شيء نسيناه، كان يتحدث مثل مودع يملي وصيته الأخيرة.. وكانت هي جوعى لصنوف حكاياته؛ فأشبعها من ألوان الكلمات ما لم تذقه من قبل.. كلمات ولدت في ماضي «يونس»، تنكَّر من أبوتها، ولم يعترف بها لأحد حتى اليوم.

- كان يومًا ماطرًا، ورغم ذلك قررنا الخروج للصيد، كنت قد بلغت للتو عامي الثامن عشر، أحضر لي أبي قاربًا كهدية يوم مولدي، أبحر به وحدي، وأصير خليفة لشيخ الصيادين «صابر»..

كان الجو غائمًا، وملبدًا بالشؤم، دومًا كنا نتشارك أنا وأبي كل شيء، كنت سعيدًا بالقارب لأنها المرة الأولى التي أمتلك فيها شيئًا يخصني وحدي.

كان الجو خانقًا، ومنذرًا بالخطر، لكنني لم أهتم، وأصررت على أبي للخروج في رحلة صيد بالقارب الجديد.

مرت ساعتان أو يزيد، يتدلى جذعانا خارج القارب، تتعاون سواعدنا في جر الشباك وهي محملة بالصيد الوفير.. وفجأة انشقت البحيرة عن تمساح ضخم لم أر في حياتي مثله، انقض على رأس أبي المتدلي على جانب القارب وجذبه نحوه

في حركة خاطفة، ثم غاص التمساح الملعون بجسد أبي إلى قاع البحيرة، صرخت حتى شرخ الصراخ صوتي، لم أملك ما أفعل سوى انتظار أن أصحو فينتهي هذا الكابوس اللعين.

الانتظار نفسه كان عذابًا فوق عذاب؛ فتمسكت بحافة القارب وأشغلت عقلي بالعد، من واحد وحتى عشرة آلاف وستمائة وسبعين، عند كل رقم كنت أنتظر بزوغ رأس أبي فوق السطح، ينظر لي ويبتسم بسمته الرائقة، لم يفعل، تعبت من العد، وأهلكني البكاء، وسقطت في القارب فاقدًا للوعي.. لا أعلم كم مر من الوقت حتى وجدني بعض الصيادين وأعادوني إلى البر.

كانت الحادثة الأولى من نوعها في بحيرتنا، فالبحيرة بلا تماسيح، «لكن في نفس التوقيت عثر الناس في عدة محافظات على تماسيح في مياه الصرف والترع، وفي النيل.. وبعدها اشتعلت الأخبار ترصد سوقًا بالقاهرة يبيعون فيه التماسيح الصغيرة بمبالغ زهيدة، يشتريها الناس جهلًا، تكبر، تحتاج مكانًا أوسع وطعامًا أكثر، يحتارون فيما يفعلون بها، فيلقون بها في أول مكان يصادفهم[1]».

منذ تلك الحادثة تملكني شعور عميق بالذنب، ولا يزال، لو لم أجبن وقتها، لو امتلكت الشجاعة وقفزت في الماء، ربما كنت قد تمكنت من انتشاله من بين فكي التمساح، لم أسامح نفسي قط؛ وعاقبتها بحرمانها من الشيء الوحيد الذي تحبه..

منذ ذلك الوقت لم أقرب البحيرة.

تلاقت العيون، باحت بكل ما يُعجِز اللسان، وكشفت عما يرسله القلب دون تورية.

أطلَّ الأسى من عيني «حواء»، وكتمت بيديها شهقة ألم كادت تتفلَّت منها، استجمعت من صوتها ما بقي صالحًا للاستخدام، ثم قالت:

- لماذا لم تُشاركني في ذلك.. لماذا أبقيت عليه محبوسًا بداخلك؟

(١) حقيقة.

لاحت فوق ثغره بسمة بطعم الحنظل، قال:

- لأنكِ لم تكوني موجودة معي قبل اليوم.

تحت ظروف أخرى، ووفق شروط أخرى كانت لتصيبها حمى الغضب من كلماته، وترد عليها بمثلها، وتزيد.. لكن أيًا من هذا لم يحدث، كانت فقط بحاجة لأن تعرف ما هو «الوجود» الذي يقصده.. سألته مباشرة دون مناورة، فأجاب بعد لحظات، وقد أوقف موتور القارب، وسكب كل اهتمامه على المرأة التي أمامه:

- أنتِ تحاولين دومًا تغييري، وأنا أكره ذلك.

ثم أردف:

- اليوم أنتِ مختلفة، تستمعين لي دون أحكام، دون محاولة لفرض وصايتك، دون سيطرة.. اليوم أتحدث إلى صديق يسمع مني، ولا يلقي بكلماتي في وجهي، أو يستخدمها كسلاح ضدي.

إلى حد كبير كان محقًا، هكذا فكرت «حواء»، إلا أنه يخلط كثيرًا بين الاهتمام والسيطرة، أو لعلها هي من تفعل! هي لم تحاول السيطرة على حياته، بل كانت تمنحه الاهتمام فحسب، الاهتمام دليل حب كما أخبرتها أبلة «عفت».. هكذا كانت تفعل معها، تحاصرها بأوامرها، لا تترك لها مساحة تخصها، تجثم فوق أنفاس حياتها، وعندما يعجزها الاختناق حتى عن الصراخ كانت أبلة «عفت» تخبرها أن الاهتمام دليل حب.. لم تجادله، كان الجو رائقًا ولم ترغب في تعكيره.

لكنها بادرته قائلة:

- ليس ذنبك يا «يونس»، ليس ذنب أحد، جاءه أجله، وما كان بإمكان أحد أن يستقدمه ساعة أو يستأخره.

لمع القهر في عينيه، قال بصوت خنقه الندم:

- ربما لو كنت حاولتُ.. لكان بإمكاني إنقاذه.

- لا تحمل نفسك ما لا تطيق، أنت لست خارقًا يا «يونس»، لا يمكنك أن تكون بطلًا للجميع.

مرت بعينه غيمة رمادية، لم يجرؤ على سؤالها «ولا حتى بطلك أنتِ؟».

يُخيَّل إليه أنه وقف أخيرًا على خطأه الذي تسبب في أن تبتلعه أفواه الظلمات، منذ أن التهم التمساح أباه أمام عينيه فقد الإيمان بالدنيا بأسرها، مات قلبه هناك في قاربه الجديد وسط البحيرة، يؤدي أيامه بروتينية، يعد الساعات، ولا يعيشها.. خلق الله الإنسان ليكون خليفته في الأرض فيعمرها، لا ليضيع عمره هباءً منثورًا تذروه الرياح.. تعطَّلت دوافعه، وفقد شغفه بالحياة، لعله حاول إحياء هذا الشغف بتسمية إحدى سمكاته بـ«شغف»، وكلما ماتت أتى بواحدة جديدة ومنحها الاسم نفسه، دومًا كان عمر «شغف» قصيرًا، وكذلك عمر «شجاعة».

حظى نبي الله «يونس» بالشجاعة ليلقي بنفسه من السفينة إلى البحر، ويبتلعه الحوت، لكن شجاعته لم تتوقف عند هذا الحد، كان شجاعًا كفاية ليواجه الظلمات الثلاث دون أن يفقد إيمانه، أدرك أن أيامه في بطن الحوت لم تكن عقابًا، بل درس تعليمي، تعلم خلالها نبي الله كلمات ذهبيات، تبددت الظُلمات أمام عظمتها.. فارَق قومه يائسًا منهم، فعلَّمه الله في بطن الحوت ألا ييأس!

وكذلك كان ينبغي على «يونس» أن ينظر إلى ظلمات الحياة التي حُبس بداخلها كدرس تعليمي، لا يظلم الله أحدًا، لكنه يربينا ويعلمنا بطرق قد لا تدرك عقولنا حكمتها..

يدرك الآن أنه اتخذ من علاقته بـ«حواء» مهربًا من ظلماته، دخل هذه العلاقة يائسًا يبحث عن ضوء النهار، وظن أنه سيجده بين ذراعي امرأة، لكنه فوجئ أن «حواء» لا تشبه الصورة النورانية التي رسمها لأمه من خلال أحاديث أبيه عنها، كانت مثله تمامًا، تعيش في ظلماتها الخاصة، تحمل مثله بعض العُقد والنواقص التي لا يخلو منها إنسان، شعر بآدميتها.. فنفر منها.

والمرأة تدرك بحدسها متى يُقبل عليها رجل، ومتى ينفر منها.. كان معها جسدًا لا روحًا، وهذا وحده كان كافيًا لتبني بينها وبينه ألف جدار عازل.. وما إن أدرك سذاجة تفكيره، وأن محاولته تشكيلها بنفس مقاييس أمه محاولة ظالمة جائرة، حتى كان الأوان قد فات، النبع الذي كان يحوي بضع قطرات من ماء انقطع عنه المدد؛ فصار جافًا قاسيًا.

فسَّرت هذه الحادثة لـ «حواء» سبب تغير «يونس» وحِدَّته معها في آخر ليلة جمعتهما بالمنجم، عندما أخبرته عن رأس التمساح المطبوع فوق البطاقة.. لا بد أنها ذكَّرته بما يبذل جهده طوال الوقت كي ينساه، الآن تفهم، وجدت لتصرفه «المعنى» الذي كانت تبحث عنه.

سألت نفسها في الكهف عندما كشفت الشمس عن شعرها الأبيض «هل يمكن سرقة الزمن؟».. توقف الزمن بـ«يونس» عند موت أبيه، وتوقف بها عند طلاق أمها، وما تلاه من عمريهما ما هو إلا تبعات لهذه اللحظة الفارقة.. نعم، يمكن سرقة الزمن.. لكن السارق هو نحن! نحن نختار أن نوقف عجلة الزمن أو نسيِّرها.

انتبهت لـ «يونس» وهو يمسك بيدها ويضعها فوق دفة القيادة، اضطربت وكأنه يمسها للمرة الأولى.. علمها كيف تُديره بثبات، كانت سعيدة بجهودهما المشتركة التي تدفع بالقارب يُمنة ويُسرة، وباتت بوصلتها تتحرك بسعادة في كل الاتجاهات، ضحكت كطفلة لم تعرف الحزن يومًا، راقبها بسعادة غامرة وهي تطوف معه فوق النيل.. ثم سألها بعد حين:

- هل ترغبين في أن نحاول من جديد؟

كان سؤاله مباغتًا، أدركت أنه لا يقصد قيادة القارب في النيل، بل قيادة سفينة أكبر تحمل قدرها ومصيرها.. أربكتها نظراته المترقبة، الهواء يندفع ليرتطم بجسديهما، ورغم ذلك تشعر بالدفء.. طافت نظراتها في سماء عينيه فلم تجد برقًا ولا رعدًا، لا عاصفة أو صاعقة.. بل رأت الأحداث الأليمة اصفر

لونها.. وضعف بنيانها؛ فتساقطت عند أقدامهما مثل أوراق الخريف! فرفعت له وجهًا مرتبكًا، يتزاحم فوقه الخوف والرجاء.

الحب كضوء النهار لا يمكن حبسه، لكننا نخطئ حين نظن أنه من الضروري أن يأتي مُبهرجًا، ومُحملًا بأطنان من الشغف! الحب كثيرًا ما يأتي كنسمة رقيقة تورث في القلب السَكينة والرضا.. لذلك يغفل الكثيرون عن رؤيته.

في عُرف السعادة تتحول الساعات إلى دقائق والدقائق إلى ثوانٍ.. وصلا للشاطئ في الوقت المعلوم؛ فسكتت كلمات كانت تستمد حياتها من النيل، وما إن فارقته حتى سقطت ميتة عند ضفته..

التفتت «حواء» صوب «يونس»، تتلكأ عيناها فوق تضاريس وجهه، رأت فوق حاجبه الأيمن جبلًا من الحنين، وفوق الأيسر تلًا من الهموم، بينهما طيف كبير من الغيوم، ومن فوقهم وسط الجبين ينبت قرص كبير بلون الأرق، يحكي عن ليالٍ كثيرة من الوحدة، والحيرة، والقلق، والندم، والغضب.. يشق شفتيه نهر غزير من الشغف، لكنه يتبخر سريعًا تحت قيظ واقع لا يرحم.

نظرت إليه ملايين المرات قبل هذه المرة، وقرأت أمارات وجهه غير مرة، حتى ظنت أنها حفظت خريطته، وكشفت سريرته، لكن هذه المرة ليست ككل مرة، إنها الأولى التي تجيد فيها حقًا قراءة المكتوب فوق صفحة وجهه.

قبل أن تلوح للنيل مودعة انحنت تحفر اسمها واسم «يونس» بعبثية فوق المياه الجارية، ورغم كل قوانين الطبيعة الصارمة التي علمتها إياها أبلة «عفت»، آمنت أن مياه النيل ستحتفظ فوقها باسميهما إلى الأبد.

واقفًا على الأعراف مضطربًا، خطوة تسومه نارًا حامية، وأخرى تُسكنه جنة قطوفها دانية، لكن عليه أن يدرك أن الأرض لا تحوي جنات خالصة؛ فأُناسها خُلقوا في كَبَد!

شيء ما يجذبه نحوها، عليه أن يعترف لنفسه بذلك، رغم كل القسوة، رغم كل الألم، لا يزال يشعر أن خسارتها حفرت في حياته ثقبًا أسود، فراغًا جائعًا لا يعرف كيف يشبعه.

طاف بنظراته فوق وجهها الذي كسته شمس أسوان بسمرة محببة، وبسمة رائقة، أشد جمالًا من مياه النيل وقت الشفق، ومن بحيرة «البُرُلُّس» وقت الغسق.. لم ير قسماتها بهذه السَكينة من قبل، وكأنها طرحت عن ظهرها أحمالًا كانت قد أحنت شبابها، وأثقلت أنوثتها بما لا تطيق..

عندما نقترب من شخص كثيرًا، ونألف وجوده في حياتنا تتشوش الرؤية، ويصعب الحكم على مشاعرنا نحوه، فالأسماك التي تعيش في مسافات عميقة جدًا.. عمياء! الآن الرابطة بينهما صارت أقرب إلى السطح، فتساءل في نفسه: هل لهذا السبب يراها بوضوح أكثر مما كان يفعل أيام زواجهما التي أبلاها الاعتياد؟!

تسير بجواره في طريقهما إلى بيت الشيخ «إنسان» بخفة فراشة، وكذلك يفعل هو.. الجسد الرقيق للفراشة لا يجسر على مقاومة الرياح القوية، لذلك دفعت الرياح بكفه نحو كفها، وكانت من القوة لكي تشبك أصابعهما معًا، فيصير الكفان كيانًا واحدًا، مثل النوبي وأرضه.

ألقت «حواء» كل اللوم على الرياح وحدها، رياح خبيثة ربطت بين الكفين بخيوط غير مرئية، رياح مجرمة مدانة بخطيئة الشوق. رنا إليها؛ فأيقن أن حصن عينيها لم يعد منيعًا كما كان، تزلزلت شرفاته، ودُكَّت أسواره، اختفى الغضب الذي عسكر فيه، وتفتت الضباب الذي يأويه.. فرأى نفسه كبقعة نور بداخل عينيها..

مر بخاطره قول قديم لحكيم «إذا رأيت في عيني امرأة نورًا؛ فاعلم أن في قلبها نارًا».. نار مأواها القلب تُدفئ ولا تَحرق.

حكى لها الشيخ «إنسان» أن الصيف هو آخر فصول الحب وأروعها، الفصل الذي ينتظرها إذا نجحت في تجاوز صواعق الشتاء، وتقلبات الخريف؛ فتساءلت وقلبها يخفق في وَجَل، هل لهذا السبب تشعر بأنها في طريقها إلى الذوبان؟!

فصل الصيف

{١}

كان مضطرًا لأن يقبل، وماذا كان سيفعل إن لم يقبل؟!

لو جاء إليه أحدهم قبل عدة ساعات وأخبره أنه اطلع على الغيب، ورآه يَقبل العمل في بيت خادم التماسيح لمدة ثلاثة أيام، يرعى خلالهم قاتل أبيه؛ لرماه بالجنون، ولضحك منه ملء السمع.

كان بحاجة إلى المال، لم يأت رسول جده حتى الآن، لا يمكن أن يتأخر عنه الجد إلا لأسباب قسرية.. تملكت الهواجس عقله، تُرى هل تحفَّظت الشرطة على الجد لحين ظهوره و«حواء».. أم أن أصحاب الشركة المنافسة قد أذوه.. وهل يصدق منطقه الذي يدين الشركة المنافسة، أم حكاية غريبة تطير فوق بساط الأساطير؟!

عششت الحيرة في عقله ولم يبق فيه شبر واحد ينعم بالراحة.. لم يعد بوسعه البقاء حملًا فوق كاهل الشيخ، وخادم التماسيح بحاجة إلى شاب أمين يرعى تماسيحه حتى يعود إلى الجزيرة مرة أخرى بعد زيارته القصيرة إلى قرية «غرب سهيل».

المنطق يقول أنه يجب عليه أن يقبل، وقد فعل بعد تفكير عاش لدقائق معدودات، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة عندما لوَّح «هَدَل» بالمال أمام وجهه.

للتماسيح حجرتان واسعتان في بيت خادم التماسيح، حجرة تحوي الأحجام الصغيرة، تروح وتغدو في أحواض زجاجية محكمة الغلق من الأعلى بشبكة حديدية ذات عيون ضيقة. والأخرى مأوى لتمساحين كبيرين يسكنان حفرة في وسط الغرفة، تعلوها شبكة حديدية ذات عيون أوسع، فيكون مجموع التماسيح عشرة، كعدد سمكات النار في حوضه الزجاجي ببيته في «كفر الشيخ»، والتي لا بد أنها في عداد الأموات الآن.. ناشده قلبه أن يقف سريعًا على الأسباب المجهولة التي أبعدته عن سمكاته، وقرَّبته من قاتل أبيه.

دنا من مأوى التمساحين الكبيرين.. يتحركان ببطء شديد، كما لو أنهما لا يكترثان بمكان أو زمان.. استند إلى الشبكة العلوية بكفيه، توجه إليه أحد التمساحين بعينيه، فبادله «يونس» النظر، وطفق يقول وكأنه يهذي بالكلمات:

- لماذا أبي؟ ألم تجدوا غيره؟

أخذ وسواس العد ينخر برأسه، يأمره أن يهبط إلى حفرة التماسيح ويفتح فكها بيديه، ليعُد أسنانها واحدًا تلو الآخر.. أغمض عينيه بقوة، ذكَّر نفسه بأن الإنسان لا يختار ابتلاءه، لا يختار الحوت الذي يبلعه.. استعاذ بالله من الشيطان ووساوسه، ثم أمر قلبه أن يلهج بتسبيحات صاحب الحوت.

***

ساق إليه الليل نسمات منعشات، وبضع نجمات باسمات، و «حواء» تحمل في يديها طعام العشاء، ترتدي الجرجار، زي طويل مميز للمرأة النوبية، أهدتها إياه السيدة «ملوك»، رداء خفيف أرجواني اللون تحته بطانة تغطي سائر الجسد من اللون ذاته، وفوق رأسها وشاح حريري يخفي الشعر والنَحر.

أخذ عنها الصينية، وضعها فوق «الطبلية»، سألها:

- هل تناولتِ عشاءك؟

أجابته بإيماءة من رأسها، فقال بعد لحظة تردد:

- لا أحب أن آكل وحدي.

كان معتادًا على أن ترد طلبه، وأن تصر على عدم مشاركته طعامًا لا تشتهيه، لكنها هذه المرة أجابت رجاءه، وشاركته الجلوس حول «طبلية» صغيرة في مندرة «خادم التماسيح»، رصَّت فوقها «الدوكة»، أخبرتها السيدة «ملوك» أنه خُبز يُصنع على صاج من الصلب، وطبق من عسل البلح، وعصيدة تسيل من فوقها الشطة الحمراء مخلوطة بالسمن البلدي.

سألته وهي تطلق بصرها بحُرية في أرجاء المكان:

- هل ستبيت ليلتك هنا؟

- نعم، ثلاث ليالٍ متتابعات، هكذا اتفقت مع ذاك الـ«هَدَل».

مطت شفتيها، ثم قالت بقلق:

- ليتك ما قبلت عرضه.

- نحن بحاجة إلى المال.

كانت تعرف أنه محق؛ فلم تجادله. وضعت كسرة من «الدوكة» المغموسة بعسل البلح في فمها، ثم رفعت عيناها تتأمله في غفلة منه، هذا الرجل لا يتهرب من مسؤولياته، قوي العزيمة، إذا أحب شيئًا أخلص له بكل جوارحه، وأفسح له بداخله مكانًا باتساع العالم كله، بغير أسوار، تمامًا كالبحر.. يبدو أنها كانت تنظر إليه بطريقة لم يعتدها، فثبَّت أنظاره عليها، قرأت في عينيه قليلًا من الدهشة، وكثيرًا من اللهفة.. أم أنه خُيِّل إليها؟

استوقفها الخاتم الفضي فوق المقعد، فلا يزال أمره غامضًا.. لم يفهما حتى

الآن المغزى من وضعه في أصبع «يونس».. لكن مجرد التفكير في امرأة أخرى قد تهديه خاتمًا مماثلًا في مستقبل قريب، قضى على شهيتها للطعام؛ فتوقفت يدها في منتصف الطريق إلى فمها لتعود مرة أخرى بحملها تسقطه في الصحن..

تتبع «يونس» نظراتها إلى الخاتم.. مزاج المرأة كحالة الطقس لا يتنبأ به إلا خبير، و«يونس» استشعر غيرتها؛ فأشرقت شمسه بعد ليل حالِك طويل..

حب بلا غيرة كسماء بلا غيمة.. والغيوم بوابات المطر!

قال بلؤم وهو يدير بالخاتم بين أصابعه:

- لا يزال أمر هذا الخاتم عصيًا على الفهم.. بما أن الشعر الأبيض لم يكن بسبب تقدم في العمر، وأننا لم نقفز فوق فترة نسيناها فمعنى ذلك أنني لم أتزوج.. وفي الوقت نفسه لا تذكر الأسطورة أي خواتم.. أم تُراه قد سقط من حكاية أخرى غير حكاية «أنس الوجود»؟

اندفعت تقول بحدة:

- ها.. سقط من حكاية أخرى.. سندريلا القرن الحادي والعشرين.. بدلًا من أن تبحث عن فتاة يناسب قدمها مقاس الحذاء.. ابحث عمن يناسب أصبعها مقاس الخاتم!

أومأ برأسه وهو يشير بسبابته قائلًا:

- فكرة جيدة.

قالها ثم دسَّ الخاتم في جيب جلبابه الأبيض الذي أهداه إياه الشيخ «إنسان».. هتفت «حواء» في نفسها مغاضبة «لماذا يحتفظ بالخاتم اللعين؟».. فتحرك قلبها ليجيب سؤالها بسؤال «هل تشعرين بالغيرة؟».. كانت لتعاند قلبها صائحة أنها ليست كذلك.. لكنها استعذبت ضعفًا لذيذًا مسَّ كيانها، لم تكرهه هذه المرة، لم تخجل منه، لم توارِه، حاولت استدعاء قوانين أبلة «عفت» عن النساء الضعيفات، وعن ذل وهوان ينتظرهن في قارعة الطريق، على أيدي رجال جبارين، إذا عثروا فيهن على ضعف مهين، لكن القوانين صارت بخارًا وتسربت من النوافذ والأبواب.

حلَّ مكانها كلمات عذبات أسمعتها إياها السيدة «ملوك»، عن قوة تكمن في قلب الرقة، وحنان يستكين بين حنايا الكبرياء. عن امرأة ليست مضطرة لأن تدفن أنوثتها وتتسلح بصفات جافة وقاسية لتسير مع الرجل على قدم المساواة، امرأة تكمن قوتها بداخلها، بطبيعتها المتفردة.

لاح بعقلها كلمات السيدة «ملوك» عندما أخبرتها ذات مساء عن نشاطها في الجمعية:

- القوة لا تعني مناطحة الرجال.. أو المساواة بهم.. عن أي مساواة تتحدثين؟ المساواة جائرة، تتعدى على حقوق الغير.. لا يمكن أن تتساوى طبيعتان مختلفتان.. بل يُعطى كل منهما من الأحمال والمشقات ما يناسب تكوينهما.. أخبريني يا ابنتي.. لو كان بحوزتكِ ست تفاحات بألوان مختلفة.. وكان أمامك ستة أطفال متساويين في العمر..فقمتِ بعمل مسابقة، تمنحين تفاحة واحدة هدية إلى كل طفل يكتب لونها بشكل صحيح.. ثم أخطأ طفل واحد فلم يحصل على شيء.. تكون هذه إذن هي المساواة، أليس كذلك؟ قوانين موحدة، وعلى الخاسر أن يتحمل تبعات خسارته. دعيني أخبركِ أنها لذلك ظلم جائر.. فالطفل الخاسر كان ضريرًا! أما العدل هو أن أُخضع الطفل الضرير للمسابقة من خلال حواس أخرى غير مُعطلة، كالشم أو التذوق. في المساواة تُعمَّم القوانين نفسها على فئات مختلفة.. أما في العدل تُراعى الفروق الفردية. دعيني أقول لكِ بمنتهى الوضوح، حتى إن كانت كلماتي ستنزل على عقلك كإعصار يبعثر قناعاتك السابقة.. المساواة ليست عدلًا! فما أسخف من يمدحون قوة المرأة، وإخلاصها، وشهامتها، وشجاعتها فيقولون أنها امرأة بمائة رجل! الأنثى الكاملة لا تُقارن بالرجل كوحدة قياس.. الأنثى الكاملة لا تحتاج إلى شارِب مستعار ليضبط رمانة الميزان!

لماذا تبدو جميلة في عينيه هذه الليلة؟

هل بسبب الجرجار الذي جعلها كأميرة هاربة من حكايات ألف ليلة وليلة، أم الأثمد الذي اكتحلت به عينها فأصبحت نظراتها أكثر قدرة على النفاذ بداخله، أم لهدوئها غير المعهود، وقسمات بدت أكثر رقة، وأقل حدة، أم لغيرتها الجلية كنجمة مميزة أفسحت لها السماء مكانًا بين حاشيتها.. حتى صوتها اختلفت نبرته الصارخة وأضحت لينة، طيعة، كسحاب يسهل على الرياح تشكيله كيفما شاءت.

- فكَّرتُ في أن أعمل معك هنا، وبذلك يصبح الأجر مضاعفًا.

ليست سحابة عاجزة إذن، بإمكانها أن تكون عصا يتوكأ عليها عندما تأتي الرياح بما لا يشتهي الربَّان.. للسفينة ربَّان واحد، لكن لا غنى له عن البحَّارة.. عن المسافرين وحمولة السفينة.. جهده بدونهم هو عين العَبَث!

- لا داعي لذلك.

- بل هناك داعي، نحن بحاجة إلى المال.

اقتبست كلماته نفسها؛ فقال:

- هذا الـ«هَدَل» كان يريد عاملان للعناية بتماسيحه وتنظيف بيته، لكنني أخبرته أنني سأقوم بكل العمل بنفسي مقابل أن يعطيني أجر عاملين.

كان بإمكانه أن يقتسم العمل معها، مقابل الأجر الذي يحتاجان إليه، مثلما حدث عندما نقَّبا معًا عن الذهب فى الصحراء، لكنه لم يفعل، وكأنها عادت لتكون مسؤولة منه.

قالت:

- سأعاونك إذن.

بادرها قائلًا:

- لا أحتاج إلى مساعدتك.

كسا الوجوم وجهها، جمعت صحون الطعام فوق الصينية، ولملمت معه كبرياءً جريحًا، ثم تجهَّزت لمغادرة البيت، أوقفها عند الباب، قائلًا بضيق:

- لم أقصد.

قالت ببرود مقتضب:

- فهمت.

لم يسمح لها بالإفلات من قبضته، أصرَّ قائلًا:

- كلا لم تفهمي، كل ما قصدته أنني قادر على إنجاز العمل كله.

- وكل ما قصدته أن أساعدك ما دمت أستطيع.

- «حواء».. أنا موجود.. هل فهمتِ؟ أنا هنا.. ألم تريني بعد؟

تكسَّرت نظراتها، واضطربت أنفاسها، هل تصدق حقًا أنه «موجود»، وسيبقى حاضرًا بجانبها، ومن أجلها؟

هل تسمح لنفسها بأن تشارك مخاوفها، وخيباتها، وظنونها، وأوهامها مع هذا الرجل الواقف قبالتها، والذي يؤكد لها أنه «موجود»؟ هل تسمح له أن يكون الفارس الذي يكتشف كنوزها ويفجر بداخلها القدرة على العطاء؟

إن سمحت له بذلك هل سيتركها يومًا ويدير لها ظهره كما فعل أبوها من قبل؟ هل سيسكب نارًا كاوية فوق جروحها الغائرة؟ لقد أقدم على ذلك بالفعل حين لفظها من عصمته، لكن ألم تكن تلك هي رغبتها؟

ألم يفهما في المصعد أن حياتهما معًا باتت مستحيلة؟

أجبرها عقلها على استرجاع الشريط السينمائي الخاص بيوم طلاقها.

عندما احتواهما المصعد، تلك الليلة كانا يحتفلان بذكرى زواجهما الأولى، حاولا طوال السهرة نبذ الخلافات، والتشبث بفُتات ودٍ قد تكون قبلة حياة لزواجهما المحتضر، حاولا إذابة جبال الثلج التي تكونت بينهما يومًا بعد يوم.. بالتظاهر بأن كل شيء على ما يرام، فلربما تحدث المعجزة وتتحول الأمنيات إلى حقائق تلك الليلة.

لكن عندما توقف المصعد عند الطابق السادس، وانفتح الباب، وقعت أنظارهما في نهاية الرواق على زوجين انتقلا حديثًا إلى البناية، يقفان على مقربة من بعضهما، يربت الرجل فوق بطن زوجته المتكوِّر، وقد ظنا أنهما بمعزل عن الجميع.. وقتها شعرت ببرودة أصابع «يونس» حول كفها، كل شيء بدا زائفًا جدًا، رديئًا جدًا، بائسًا جدًا، محاولاتهما المستمرة للتظاهر بأنهما يحظيان بزواج ناجح لم تعد تجدي نفعًا.

نظرة الشغف التي احتوى بها الرجل وجه حبيبته، وطفله في أحشائها.. كانت كافية لتجعها تطلق تنهيدة حارة عرَّت ما بقلبها من حسرات، وقذفت عيناها بالعبرات، فكرت أن الشيء الوحيد الصحيح هو أن يتحول طلاقهما النفسي إلى طلاق حقيقي على الورق، لم يعد هناك جدوى من استمرار التمثيل في هذا الفيلم البائس، كانت كالغريق الذي يحتاج إلى إشارة واحدة ترشده إلى اتجاه بر الأمان، وكانت تلك هي إشارتها.

رأى هو في وجهها آلاف الخيبات، وهي تتطلع بحزن دفين إلى الزوجين، لم تعد تملك من الحياء ما يكفي لتخفي عنه عدم رغبتها فيه، وكان هو أيضًا قد اكتفى من التظاهر أمام الجد بغير ما يُبطن، كان قد اكتفى من علاقة أجهدته، لم يجنِ منها سوى استنزاف روحه.

رآها تنظر إلى الرجل كما لو كانت تتمنى لو كانت زوجته هو، أصاب ذلك كبرياءه في مقتل، لم يغفر لها هذه النظرة، لم ينجح في أن يكون فارسها، ولن ينجح يومًا.

لكنها لم تكتفِ بتلك النظرة فحسب، قالت دون أن يرف لها جفن:

- لا داعي لذهابنا إلى موعد الطبيبة في الغد، الحمل لا يحدث لأنني أمنعه بالدواء.

وكانت تلك هي الإشارة التي دفعته للضغط على زر الخلاص، وصل المصعد إلى الطابق العاشر، عرفا بغير اتفاق مسبق أن ساعة الصفر قد حانت، وأنهما استنفدا كل الدقائق والساعات.

أرادت التحرر من قيد زواج زائف؛ فحررها، وحرر نفسه كذلك.

توحَّش الندم عليها، وخز قلبها بأشواك دقيقة، غزيرة، قاسية، ومؤلمة، لا قِبل لها على محاربتها، لماذا الندم الآن وقد كانت تبغض هذا الرجل قبل أن تستيقظ في الكهف، ما الذي غيرته هذه الأيام القلائل، وجعلت الحنين يباغت قلبها ويرميها بسهامه الطائشة؟

لم يكن الجواب بحوزتها، بل في جعبته هو، فتَّش عنه وهو يمضي ليلته وحيدًا في حجرة التماسيح الصغيرة، لقد تغير في هذه الرحلة العجيبة بقدر ما تغيرت هي، بات قادرًا على مزج منطق أفكاره بعشوائية مشاعرها، لم يعد يرى في تقلباتها مسًا من جنون، بل فطرة جُبلت عليها، فالطبيعة ذاتها متقلبة غير مستقرة، تجمع بين منطق وعشوائية، بين يقين وشك، بين ماء وتراب، بين رجل وامرأة.. وهنا يكمن سر روعتها.

الحب الحقيقي لا يطفو على السطح، بل الزبَد يفعل! إذا أراد الحب فعليه الغوص في الأعماق، عليه أن يستعين بمهارة الأسماك العمياء ليعرف الاتجاهات، أن يتقن فن الإنصات، يلاحظ التفاصيل، يمنحها عطاء رجل لامرأة، لا عطاء رجل لرجل! فالإنسان يخطئ حين يمنح نوع الحب الذي يحتاجه هو، لا ما يحتاجه الطرف الآخر.

إما أن يكون رجلًا يسهم في تحقيق ذات أنثاه، أو يساعد في تشويهها.

وعندما يشتاق إلى الشمس فبإمكانه الاقتراب من السطح، أما هي فعليها أن تحترم عزلته من حين لآخر.

وإذا أرادت الحب عليها أن تمنحه ألقاب الفرسان، وأوسمة الشجعان، تلوذ بأكنافه، وتلجأ إلى أحضانه وقت الخطر، تشعره بنبضها الأنثوي، ولا تتحول إلى آلة نصح.

إما أن تكون امرأة تسهم في تحقيق رجولة رجل، أو تساعد في الانتقاص منها.

الحب ليس قيدًا يربط العاشقين به طوال الوقت، الحب حرية، يحرر المحبين من قوانين الحياة وقسوتها وغلظتها في الوقت الذي يكونان فيه معًا.

في الحب عليه أن يترك لها فسحة التنفيس عن دواخلها، يشاركها الجنون، أن يفهم تقلبها بين مد وجزر كما البحر.. في الحب عليها أن تترك له حرية الاقتراب من الشمس متى اشتاق إليها، وألا تعيق دورته الطبيعية في الاقتراب والابتعاد.

عندها فقط يبدأ فصل الصيف، كما أخبرهما الشيخ «إنسان».

{٢}

قررنا حبس الشتاء في الصندوق المسحور، وجئنا لنطلب منك المساعدة.

لم يكن رداء خادم التماسيح وحده ذا لون أسود، بل رائحته كذلك، رائحة قاتمة كأبخرة تتصاعد من فوهة مدفأة عتيقة، في ليلة شتوية تعوي فيها ثلاثة ذئاب في وجه القمر.

وقف الشيخ «إنسان» عند المرسى يودعهما بحركة بطيئة من يده، يبحر بالقارب الشاب النوبي «تَمَّام» وهو يتوجس خيفة، بينما يتأمل «هَدَل» الذي يحتل مقدمة قاربه، يعرفه كرجل تحوم حوله الأساطير، سمع من البعض أنه يمارس سحرًا أسود يجلب به التماسيح إلى بيته، وإلا من أين يعثر في النيل على تماسيح بعد بناء السد العالي!

يقول آخرون إن التماسيح نفسها إنما هي عفاريت من الجان في هيئة متنكرة، وأما قليل من سكان الجزيرة يمصمصون شفاههم في حسرة ويقولون إنه رجل بعقله لوثه أصابته منذ أن ابتلع النيل كل أبنائه أمام ناظريه عندما غرق قاربه قبل خمسة وأربعين عامًا.. لا يعرف «تَمَّام» أيًا من هذه الحكايات أقرب إلى الحقيقة، لذا يبقي نفسه بعيدًا عن بيت الرجل الذي يعلوه جماجم تماسيح بشعة المنظر.

حتى أوقفه اليوم عند الممر المؤدي إلى المرسى، وطلب منه اصطحابه مع زوجين شابين يحلان ضيوفًا على بيت الشيخ «إنسان» إلى الموقع القديم لـ «جزيرة فيلة»،

كان طلبًا غريبًا، لكنه اعتاد على أن يصاحبه في مثل هذه الرحلات العجيبة، والتي عدها «تَمَّام» أشد غرابة مما يطلبه منه السياح عادة عند زيارتهم للجزيرة.. كان عليهم الوصول إلى الضفة ثم الانتقال إلى بحيرة ناصر والإبحار بمركب آخر، يرافقهم «تمَّام» من بداية الرحلة إلى نهايتها بإصرار من «هَدَل».. فـ «تَمَّام» من أولئك الذين يعرفون الموضع القديم لجزيرة فيلة.

في ميمنة القارب جلس «يونس» برفقة «حواء» وعيناه لا تفارقان موضع الشيخ «إنسان» عند المرسى أسفل شجرة الصفصاف الراكعة صوب النيل، تقلَّص حجمه شيئًا فشيئًا، ثم اختفى فجأة مثل فقاعة في فنجان.

مالت «حواء» نحو «يونس»، ثم قالت متعجبة:

- لم أظن قط أنك ستصدق حكاية صندوق الشتاءات، فاجأتني.

راودتها الدهشة في الصباح الباكر، عندما أصر عليها «يونس» لخوض غمار تلك التجربة المثيرة، والسير وراء مزاعم خادم التماسيح وأسطورته المنسية.. لم تفهم أسبابه لأنه لم يفصح عنها صراحة، لكن التجربة كانت مثيرة إلى الحد الذي لم يدع لها مجالاً للرفض.

- لماذا؟ ألم تقولي أنكِ تميلين إلى تصديقها؟

راقبت للحظات سربًا من اليمام مر فوقها، ثم التفتت إليه تقول:

- أميل إلى التصديق لأن كل الشواهد لو جمعناها معًا ستؤدي بنا إلى صندوق الشتاءات.. انتقالنا الآني إلى كهف في «وادي العَلَّاقي»، الشعر الأبيض، بطاقة الرجل المبتز، العبارة التي ظهرت فوق جدار البيت، كيف عرف خادم التماسيح كل ذلك إن لم يكن على حق؟ ببساطة لقد جمعتُ الخيوط معًا فتكون هذا الاستنتاج.

كان يثق أنها على خطأ، فمنطقها مغلوط، تفكر في الأحداث بشكل عكسي، هذا ما توصل إليه بالأمس قبل عودة «خادم التماسيح» إلى بيته بعد ثلاثة أيام أمضاها

خارج الجزيرة، قضى فيها «يونس» أغلب أوقاته وحيدًا في البيت، لم يكن له رفيق سوى الصمت، وفَّر له الصمت كل السبل الممكنة ليعمل عقله بطاقاته القصوى، ويعيد التفكير في كل ما مر به من أحداث.

وأخيرًا توصل إلى سبب معرفة خادم التماسيح بالكلمات، والأهم سبب احتواء غرفة الشيخ بالمنجم على ثلاثة أسرة بدلًا من واحد، وعلاقته بغريب الصحراء!

كان كل شيء واضحًا منذ البداية، لكن الملهيات التي برزت في طريقه أدت واجبها على النحو الأكمل؛ فحاد عن الحقيقة، حتى عثر عليها أخيرًا عندما اعتصم في كهفه الذهني دون عوامل تشتيت.

- ربما تكونين على حق.

هكذا قال لها ولم يضف شيئًا آخر، يعرفها جيدًا، ستدافع عن منطقها المغلوط حتى آخر أنفاسها، لا سبيل لإقناعها سوى أن يجعلها ترى بنفسها ما سيحدث خلال الدقائق القادمة، عندها ستصدقه، وستثق به.

أطال «يونس» النظر صوب لون أزرق يغلف عالمه من جهاته الست، بنيل وسماء.. وعينين واسعتين زجاجيتين تقولان الكثير!

***

«فيلة» جزيرة صغيرة تتوسط مجرى النيل، لا تبعد كثيرًا عن جزيرة «هيسا»، عُرفت في النصوص القديمة باسم «بر إي لق»، بمعنى «الحد الفاصل»، إشارة إلى أنها تقع كحد فاصل بين شمال وجنوب وادي النيل.

أصبح اسمها في القبطية «بيلاك»، وسماها اليونانيون «فيلة» أو «فيلاي» بمعنى «الحبيبة» أو «الحبيبات»، أما في الأدب العربي عُرفت بجزيرة «أنس الوجود».

تتابعت المعلومات على لسان الشاب النوبي «تَمَّام» وكأنه يعمل بالفطرة مرشدًا لزوار قاربه دون أن يسألوه أن يكون.

بعد بناء السد العالي أصبحت جزيرة «فيلة» واقعة في المنتصف بين السد الجديد، والسد القديم، مما سيعرضها لخطر الغرق والاختفاء للأبد؛

فتعاونت منظمة اليونسكو مع «مصر» وأطلقت حملة إنقاذ دولية لحماية آثار النوبة المهددة بالغرق، وكان آخر الآثار على لائحة الإنقاذ هي معابد فيلة، بنى المهندسون سدًا عازلًا حول الموقع للسيطرة على مياه النيل.. السد لم يكن كبيرًا بما يكفي لتطويق كل المعالم الأثرية فوق جزيرة فيلة، فغرقت البوابات الرومانية المؤدية إلى الجزيرة تحت بحيرة ناصر وطمرها الطمي، لكن تمت عملية إنقاذها من تحت الماء.. وتم نقل معابد فيلة إلى جزيرة أخرى تُدعى «إجيليكا».. أما جزيرة فيلة فقد بلعتها مياه النيل مع قرى النوبة القديمة كأن لم تكن![١]

هنا توقف «تَمَّام» عن الاسترسال في المعلومات، إذ إن هذا مبلغه من العِلم، أما «هَدَل» فقد دنا من «يونس» و«حواء» ليسكب في أسماعهما ما خفي عنهما.

قال وفي عينيه بريق الشغف:

- في هذا الوقت وصل إلى مسامع أبي ما حدث، فعلم أن الصندوق بات في خطر، فالعلماء النهمون لبقايا القدماء سينقضون على الصندوق المسحور الذي يدور حول الجزيرة تحت الماء، كما ينقض التمساح الجائع على فرائسه.. كان عليه أن يدبر حملة إنقاذ لصندوق توارثه منذ قديم الأزمان.. وامتاز عن أجداده بأنه كان أول من يمس الصندوق بيديه، ويحتفظ به في عقر داره.

سعل كثيرًا حتى شعرت «حواء» أن روحه ذاتها ستندفع من جسده، تحشرجت أنفاسه، استطرد قائلًا:

---

(١) حقيقة.

- كان دور كل واحد من أجدادي هو أن يقود الزوجين المختارين إلى موقع الصندوق، فيغادر الصندوق مداره حول الموقع القديم لجزيرة «فيلة» ويطفو نحو السطح، وما إن يبرز لهما حتى يفتحانه ويحبسان بداخله شتاءهما، ثم يلقيان به مرة أخرى في النيل.. إن صدَقت رغبتهما فسيبلع النيل الصندوق كمحارة تغوص بدررها، ثم يدور مرة أخرى في مداره حول الجزيرة..

وإن لم تصدق رغبتهما فسيظل طافيًا عند السطح كسمكة ميتة عفنة لفظتها المياه.

سأله «يونس» ساخرًا:

- وكيف يعرف الزوجان المختاران أنهما مختاران، وأن عليهما القدوم إلى هنا؟ أم أنك تمارس السحر لجلبهما إلى بيتك؟

أجاب «هَدَل» ببساطة:

- إذا توصلا إلى أن «بر إي لق» عبارة نوبية الأصل وأنها تشير إلى جزيرة فيلة، فإن كل شيء يمر تباعًا.. وشعر أبيض يغزو رؤوس الشباب هو العلامة والدليل.

سأله «يونس» معاندًا:

- وإن لم يفهما؟

هز «هَدَل» كتفيه بعدم اكتراث ثم قال:

- تضيع فرصتهما إذن.

جاراه «يونس»، وفي نفسه منه شيء، قال:

- وطوال هذه السنوات لماذا احتفظت بالصندوق، لماذا لم تحذُ حذو أجدادك ويأتيك زوجان يحبسان فيه شتاءهما ثم يلقيان به في النيل؟

- فعلت، لسنوات طويلة منحت عشرات.. بل مئات الأزواج هذه الفرصة الثمينة.

سألته «حواء» بدهشة:

- ولماذا لا يزال الصندوق معك؟

نظر في عمق عينيها قائلًا بغضب:

- لم يصدُق زوجان قط!

أخافتها عينه، بأكثر مما فعلت يوم التقته في بيته، لا تزال زرقاء لكنها تشع نارًا تكاد تحرق كل شيء.

شعر «يونس» بخوفها، فطوَّق بكفه ذراعها، وابتعد بها عن مرمى نيران الرجل، همس في أذنها:

- كل هذا كذب، وسأثبت لكِ بعد قليل.

الصندوق خشبي، صغير الحجم، بشع الشكل، طالته عدة محاولات للترميم، لا يوجد ما يميزه سوى نقوش دقيقة على جانبيه، بحروف لغة قديمة، ومن أعلاه نحت بارز لتمساح يلتف حول نفسه، يفتح فمًا كبيرًا يكاد يلتهم به ذيله!

خابت خيالات «حواء»، هل هذا هو الصندوق المسحور!

نبتت ابتسامة ساخرة فوق شفتي «يونس» وهو يتأمل الصندوق الذي يطوقه «هَدَل» بكفيه بقوة، ككنز ثمين.. فكَّر «يونس»، أمَا استطاع هذا الـ «هَدَل» أن يأتي

بصندوق أكثر إقناعًا؟! الصندوق الذي عكف على صناعته بيديه من ركام مركب قديم وجده عند أطراف بحيرة «البرُلُّس» كان أكثر قيمة من صندوق خشبي عتيق لا يميزه أي شيء سوى أسطورة خرافية نُسجت حوله.

جاءت اللحظة الحاسمة تخطر، وتمنح «يونس» الفرصة كاملة لفضح المستور أمام «حواء».. منحهما «هَدَل» الصندوق وعيناه تحومان حوله، تتأهب فرائصه للانقضاض على أي من تسول له نفسه أن يلحق بصندوقه الثمين أدنى أذى، كما يحمي ذكور الكواسر صغارهم.

فتح «يونس» الصندوق، ليجد بداخل أحشائه الهواء فحسب، دنت منه «حواء» تكتنفها الرهبة، تلمست الصندوق بأناملها، كان خشنًا أكثر مما يبدو، لكن لملمسه وقعًا محببًا، تمنت لو كان بإمكانها الاحتفاظ به كذكرى عن تلك التجربة المثيرة.

لم تدر «حواء» ما عليها أن تفعل، كيف تحبس و«يونس» الشتاء في الداخل، هل تهمس بداخل الصندوق برغبتها، أم يهمسان معًا؟ هل تكتب ما يجيش به صدرها في ورقة ثم تطويها بداخل الصندوق، أم يكتبانها معًا؟ هل يكفي أن تغمض عينيها وتتمنى بقلبها، أم يتمنيان معًا؟ وهل من الأساس ترغب في أن تجمعها بـ «يونس» حياة هادئة بغير عواصف هوجاء، أم تفعل ذلك فحسب من أجل تجربة جديدة ومثيرة؟

لم يقدم لها «هَدَل» الجواب الشافي الذي تنتظر، إذ إنه هو نفسه يجهل بالجواب، كانت هذه هي أكثر لحظات حياته إثارة، الآن سيعرف سر الصندوق، الآن سيعرف كيف كان أجداده يحبسون الشتاء بالداخل، هذا هو السر الذي لا يبوح به الأب لابنه، والجد لحفيده، عليه أن يكتشف بنفسه كيف حبست «زهرة الورد» الشتاء بالداخل.. عاش عمره كله حبيس هذه اللحظة، والآن بات قاب قوسين منها أو أدنى، يثق أن هذين هما الزوجان المثاليان لإحياء الأسطورة من جديد.

ارتأت «حواء» أن يفعلا كل ذلك معًا، الهمس، والكتابة، ونية محلها القلب.. استجاب لها «يونس» فقط لأنه كان واثقًا من النتيجة.. انتهيا؛ فانقض «هَدَل» على الصندوق يحمله بعناية فائقة، ثم يقترب من حافة القارب، يغمض عينيه كأنه يستدعي كل أرواح أجداده ليكونوا شواهد على تلك اللحظة المقدسة، ثم ألقى به في النيل.. تتعلَّق به أربعة أزواج من العيون.

***

لا شيء كبير برز في وجوه ثلاثتهم.. ورابعهم «تَمَّام» الذي شهد على عشرات من هذه الرحلات الفاشلة من قبل، كل رحلة تعض أمل «هَدَل» بأنيابها، وتخلف وراءها أثرًا كريهًا في نفس الرجل الذي لا يرتدي إلا الأسود.. علت السخرية وجه «تَمَّام» هامسًا بالنوبية وهو يرمق «هَدَل»بنظراته:

- ألي ألي ليلنا[1].

صاح «يونس» متشفيًا:

- أفلح إن صدق! ولأنك لم تكن صادقًا قط لم تفلح.

التفت إليه الرجل الذي تسكن النار في مقلتيه، يرميه من شررها، لكن «يونس» تلقفها بالبَرَد، وأخمدها في مهدها، قال:

- كل شيء من البداية كان مجرد خطة دنيئة لإبقائنا بعيدًا عن «كفر الشيخ»، أليس كذلك؟

رنت إليه «حواء» بدهشة تقول:

- ماذا تقصد يا «يونس»؟

لكن «يونس» ثبت أنظاره على «هَدَل» وهو يقول بغضب متصاعد:

---

(١) مثل نوبي ترجمته الحرفية «علي هو علي»، ومعناه أن هذا الشخص لن يتغير أبدًا.

- هذه الرحلة من البداية كان مخططًا لها بدقة، استيقاظنا فجأة في وسط الكهف، سيرنا في الصحراء، الغريب وخيمته، إرغامنا على العمل عنده في التنقيب عن الذهب.. حتى نستنجد بأول شخص يعترض طريقنا.. الشيخ «إنسان».. الذي يعمل لصالح الشركة المنافسة لمصنع جدي، ولعله هو نفسه صاحب الشركة، والذي على استعداد ليفعل أي شيء مقابل الحصول على هذه الصفقة بعدما فشلت محاولته في ابتزاز «حواء»، أليس كذلك؟

اندفعت «حواء» تقول ذاهلة:

- «يونس» أنت مخطئ بالتأكيد!

لكن «يونس» أكمل من حيث توقف:

- ثم يستخرج لنا تصاريح مزورة لنخرج من «وادي العَلَّاقي» ونأتي إلى الجزيرة، فنلتقي بشخص مريض مثلك، ينسج حولنا الأساطير والخرافات، وما لا يصدقه عقل إنسان، فتعرقل عودتنا إلى «كفر الشيخ»، وتصرف عقولنا عن الحقيقة الوحيدة المنطقية وسط كل هذا الجنون.

ثم استطرد يقول:

- شيء واحد لا أفهمه.. لماذا كل هذه التفاصيل المجهدة؟ كان بإمكان صاحب الشركة المنافسة أن يختطفنا في مكان مغلق حتى يحصل على صفقته، ثم يطلق سراحنا.. لماذا أجهد نفسه في إحاكة هذه الخطة المعقدة؟ بالتأكيد هناك سبب، وأنت تعرف هذا السبب لأنك أحد أطراف هذه الخطة، هيا أخبرني، لماذا يا «هَدَل»؟

عاد القارب بحمله إلى مرسى «هيسا»، تحلق فوقه ذوات الأجنحة، تصول وتجول، تصطاد وتحوم، يتقدمهم طير النيل المعروف بـ «أبي خنجر»، يرقب حمولة المركب بعين السخط؛ يخشى أن تعكر المشاحنات مياه النيل الرقراقة.. لم تتوقف

المحادثة الرباعية المجهدة لحظة واحدة، «يونس» يلقي بالكلمات، فيجيبه وجوم قسمات «هَدَل»، وحيرة «تَمَّام»، وصدمة تطل من عيني «حواء».

نشر ضباب الفجر رداءه فوق النيل؛ تجلَّى منظر بديع يأخذ بمجامع القلوب، بدا لتماوج الضباب فوق المياه زرقة حريرية، وكأنها قطعة من السماء يتخللها السحاب، سماء فوق الرؤوس، وسماء تحت الأقدام، وبينهما كون عظيم عقدت معه «حواء» معاهدة سلام.

لكن هذه المعاهدة نُقضت عندما دنا «يونس» منها، رآها واقفة قُرب النيل، تبوح له بمكنوناتها، تتدلل عليه بالاقتراب تارة وبالابتعاد تارات، يغازلها بمس قدميها العاريتين برقة، فتسري بجسدها دفقات منعشة تجدد طاقاتها.

- يجب أن نتحدث.

قالها «يونس» فانتفض جسدها مأخوذًا بمفاجأة ظهوره، كانت تظن أن الكون في هذه اللحظات يسعها وحدها.. شعرت أنها مثل آثار النوبة القديمة، واقفة تنتظر الطوفان بغير حول منها ولا قوة..

عندما يفقد الأخطبوط إحدى أذرعه فإنه يعوضها بذراع بديلة، «حواء» تعد علاقاتها بالآخرين كأذرع مثبتة بجسدها، لكنها عندما تفقد إحداها لا تعوضها بأخرى مثل الأخطبوط، بل تقطع كل الأذرع المتبقية، وتقف عاجزة عن الحركة، وعن الحياة!

لذلك يعلم «يونس» مدى صعوبة تصديقها أن الرابط الذي نشأ بينها وبين الشيخ وزوجته خلال الأيام الماضية كان هشًا، نسيجه الكذب والغش والخداع، تمامًا كصعوبة قطع ذراعها بنفسها، هذا ما دفعه ليكون أكثر حلمًا في الحديث معها.

التفتت صوبه تقول بضيق:

- «يونس» إن كنت ستعيد نفس حديثك عن خطة الشيخ «إنسان» وتحالفه مع الشركة المنافسة فلا داعي لذلك لأنني لا أصدق كلمة واحدة مما تقول.

تطلع إلى وجهها الذي أودعت فوقه شمس الجنوب قبلاتها، ثم قال بصبر صياد يلقي بسنارته ويجعل خيطها مرتخيًا، حتى يتحين الفرصة المناسبة ليشده بقوة:

- أعلم أنه يصعب عليكِ هدم الصورة الجميلة التي رسمتها للشيخ «إنسان»، لكن يجب أن تصدقيني لأننا في خطر حقيقي.

حركت الرياح الجرجار بقوة كسارية علم، أمسكته بيديها مخافة أن تسرقه منها ولا تعيده إليها ثانية، قالت:

- لا أستطيع أن أصدق يا «يونس»، ألا ترى كيف كان الشيخ كريمًا معنا، فتح لنا غرفته بالمنجم وأطعمنا من طعامه، وسقانا من شرابه، وفتح لنا بيته هنا في الجزيرة، انظر كيف تعاملنا زوجته كما لو كان بيننا رابطة دم.. كيف أصدق أنهما شريكان في جريمة اختطافنا؟

- أنتِ تتحدثين بالعاطفة، لكنني أتحدث بالمنطق.

- أي منطق؟

- التفكير بشكل معكوس يدعنا نتساءل كيف علم «هَدَل» بالكلمات المكتوبة فوق الجدار في بيتنا بكفر الشيخ.. وهذا ما دعاكِ إلى تصديقه.. لكن التفكير بشكل سليم يقول أنه لا يمكن لأحد أن يعرف الكلمات المكتوبة فوق جدار البيت سوى كاتبها نفسه، أو أحد شركائه.. وهذا يوصلنا للشيخ «إنسان».

لماذا يملك الشيخ في غرفته بالمنجم ثلاثة أسرة.. وثلاثة صحون وثلاث ملاعق، بل وثلاثة أكواب كذلك؟ كما لو أن ثلاثة أشخاص يقيمون في الغرفة وليس شخصًا واحدًا.. لأن الغرفة كانت مُعدة مُسبقًا لاستقبالنا.. لماذا كان الشيخ قادمًا باتجاه خيمة الغريب رغم بُعدها عن قرية «وادي العَلَّاقي»؟ لأنه كان يعرف أننا هناك، كان الغريب مجرد محطة على الطريق، رفض إخبارنا بالتاريخ ليصيبنا بالتشتت، ثم عمل الشيخ على تزوير التصاريح مخافة أن يتم القبض علينا بدونها، فنصبح بذلك أسرى لتعليمات الشيخ طيلة الوقت، يقول امكثوا في الصحراء فنمكث، يقول اذهبوا إلى الجزيرة فنذهب.

أوقفته «حواء» عن الاسترسال في شرحه وهي تقول:

- نسيت شيئًا مهمًا لا يتوافق مع تلك القصة، الجد «سُلطان» أخبرك بالفعل على الهاتف أن الشرطة تبحث عنا.

ظنت «حواء» أنها قذفته بحجة لا سبيل لردعها، تقدم منها خطوة وقال بجدية بالغة:

- «حواء».. أتعتقدين أن من يدبر مثل هذه الخطة المعقدة لا يستطيع أن يرسل إلى جدي عدة أشخاص يدعون أنهم أفراد من الشرطة، ويوهمونه بنفس ما أوهمنا به لنبقى بعيدًا عن «كفر الشيخ»؟

صاحت وهي تشيح بيديها:

- لكن لماذا.. لماذا يفعل كل ذلك.. فالجد «سُلطان» يملك بنفسه سلطة التوقيع على العقود.

كان هذا الأمر قد طرق ذهن «يونس» من قبل لذلك أعد له الجواب المناسب، قال:

- نعم جدي يستطيع أن يوقع العقود، لكنه لا يستطيع أن يسير العمل بدوني، لا يستطيع جدي أن يوقع العقود إلا إذا أخبرته أن يفعل، تعرفين جدي جيدًا يا «حواء»، تعرفين كيف أنه لا يثق بالآخرين بسهولة فيما يخص العمل، خاصة بعد الخسارة الكبيرة التي لحقت به هو وشريكه، تعرفين أنه لا يأخذ خطوة واحدة تخص العمل إن لم أؤكد له أنها خطوة جيدة، تعرفين ذلك.

كان محقًا، فهي أكثر من يعرف أن الجد لا يخطو خطوة واحدة بدون «يونس»، وغياب «يونس» معناه توقف العمل كله، ولا تتعجب إن عادت إلى «كفر الشيخ» لتجد الجد قد أغلق مصنعه حتى عودة «يونس» إليه.

ورغم ذلك لا تستطيع التصديق أن الشيخ وزوجته ضلعٌ في هذه المؤامرة، رفض قلبها أن يفعل، قالت له بعناد:

- لا أصدق ما تقول.

- «حواء» لا يمكن أن تكون الأسطورة حقيقية لسبب بسيط.. الأسطورة لا تفسر كيف انتقلنا إلى الكهف فجأة..

فشل «هَدَل» نفسه في أن يفسر لنا معنى انتقالنا المفاجئ.. الشيء الوحيد الذي يفسره هو تدخل بشري.. خطة محكمة.

قاطعته فجأة بقولها:

- أو سحر.

تجعد جبينه قائلًا:

- ماذا تقصدين؟

- فكر معي.. لماذا نتصور أن حدثًا واحدًا وقع لنا.. إما الأسطورة أو اشتراك الشيخ «إنسان» مع الشركة المنافسة لاختطافنا وإلهائنا، لماذا لا نكون ضحية حدثين مختلفين اجتمعا في الوقت نفسه؟!

أعجبه منطقها، فسألها:

- هل تظنين أن هناك سحرًا يمارس علينا جعلنا ننتقل فجأة إلى الكهف؟

أومأت برأسها تقول بحماس:

- وفي الوقت نفسه تعارض معه حادث آخر وهو الأسطورة التي استدعتنا لنحظى بفرصة حبس الشتاء للأبد.. أي أن الشيخ «إنسان» بريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب.

دار «يونس» حول نفسه مفكرًا لدقائق.. لا يسمع فيها سوى صوت أفكاره، ثم بادرها بقوله:

- قد تكونين على حق، لكنه حتى الآن مجرد احتمال وأنا لن أترك حياتنا تحت رحمة الاحتمالات.. علينا أن نهرب من هنا قبل أن يحدث ما هو أسوأ، معي القليل من المال وفرته من العمل في بيت ذاك الـ«هَدَل».. واتفقتُ مع «تَمَّام» صاحب القارب أن أؤجر قاربه أسبوعًا للصيد، وما سأجنيه من المال مع ما أدخره سيكون كافيًا من أجل تذكرتي قطار إلى «القاهرة» ومنها إلى «كفر الشيخ».

هزت رأسها نفيًا بقوة وهي تقول بعناد:

- كلا، لن نهرب، هذا هو عين الخطر، إن كان ما في رأسك مجرد أوهام فسنجد الشرطة في انتظارنا للقبض علينا ما إن نصل إلى «كفر الشيخ».

أجابها حازمًا:

- لن يحدث ذلك، لا تخافي.. أرجوكِ ثقي بي.

هزت رأسها نفيًا مرة أخرى، فظنها ترفض الثقة به فصاح مغاضبًا:

- مهما فعلتُ لن أحوز ثقتكِ أبدًا، أليس كذلك؟

- كلا، أنت لا تفهم.. أنا....

انطلق غضبه محررًا من عقاله، هتف:

- بل أفهم.. أفهم كل شيء يا «حواء».. أفهم أنكِ تعاقبينني على ذنب لم أرتكبه، أفهم أنكِ ترين كل الرجال أباكِ الذي طلق أمك ثم هجركِ.. عقلكِ لا يستطيع أن يفرق بين صورته وصورتي، تؤمنين أنني نسخة ثانية عنه دون أدلة أو براهين.

احتشدت العبرات في عينيها، تجمدت أنفاسها، ثم حررتها لتقول بصوت أجش:

- اصمت.

لكن غضبه صار جامحًا لا سلطان عليه، أردف قائلًا:

- عندما تزوجنا ظننتُ أننا سنعيش أنا وأنتِ بدون أشباح الماضي.. كذبتِ عليّ يوم قلتِ أن علاقتنا هي تجربتكِ الأولى.

اتسعت مقلتاها، وارتعش صوتها وهي تقول:

- إنها الأولى.

- ليست الأولى.. نعم أثق أنك لم تعرفي رجلًا قبلي، لكنكِ عشت ألف تجربة من خلال تجارب الآخرين من حولك.. أبوكِ الذي تجرد من كل معاني الأبوة.. وغيره من عشرات التجارب السوداء التي سمعتِ بها من صديقاتك وزميلاتك، من خيانة إلى ضرب إلى طلاق إلى علاقات غير سوية.. كل تجربة سمعتِ بها تركت بقلبك نكتة سوداء، كأنكِ بطلتها التي عاشتها بكل جوارحها، تراكمت بداخلك يومًا بعد يوم وعامًا بعد عام حتى صار قلبكِ أعمى لا يفرق بين النور والظلام..

تجمعت كل هذه التجارب في عقلكِ وقررتِ أن تعاقبيني عليها قبل حتى أن أذنب في حقكِ، عاملتني كما لو أنني كل من سمعتِ بهم من الرجال، كما لو أنني الخائن، والزاني، والنذل، والديوث، والمتخاذل، والكاذب، والسافل.

كانت تعلم أنه محق في كل كلمة نطق بها، لكنه مخطئ في شيء واحد، لم تفعل ذلك لتعاقبه على ذنب اقترفه غيره، بل لأنها خافت أن يذنب مثل غيره، أن يطعمها مر الخذلان، خافت من أن تنكسر فلا تستقيم الحياة بعدها أبدًا، ليست بقوة أمها، إذا انكسرت مرة فلن تستطيع لملمة أشلائها من جديد.

بحيرة «البُرلُّس» لم تكن مقدسة، عقل «يونس» هو ما أضفى عليها هذا التقديس، مثلما فعل قدماء المصريين مع النيل وأسموه «الإله نون رب المياه».. وكذلك كل الأفكار والآراء التي نعظمها، لا لشيء إلا لأنها توافق أهواءنا، أو لعلو منزلة قائلها في نفوسنا، فنصنع منها صنمًا نتعبد له، وندين له بالولاء والبراء، هذا ما فعلته مع آراء أمها عن الرجال خاصة، والحياة عامة، آراء استخلصتها من تجربة مريرة مرت بها، حاولت أن تسقيها لابنتها قسرًا.. علمتها أن العفة هي وأد لأنوثتها.

أدركت أنها عظَّمت من آراء زميلاتها بجمعية نسائية تبني مفاهيمها على تعميم التجارب الفاشلة لعضواتها..

أفسَد فطرتها السوية مجتمع جاهلي يخلط بين الضعف والأنوثة!

تفجَّرت الدموع من عينيها كشلال لا تقوى على التصدي لقوته، شلال تحرر من صخور تراكمت عند المصب، كان تمنعه من السريان.. لم يسمح لها بالهرب، طوَّق ذراعيها بكفيه، اعتادت منذ بداية الرحلة على تعامله معها بعناد متى أرادت الهرب، في الماضي كان يتركها تغادر المكان بصخب، لكنه الآن لا يسمح لها بأن تفعل، بل يبقيها بجانبه حتى تهدأ العاصفة.. ناشدها بحنان:

- أرجوكِ لا تختبئي مني.

لم تود الاختباء، بل ودَّت لو تكشف عن نفسها أكثر، أردف:

- أريد أن أسمع منكِ كل الأحاديث التي حجبتها عني.. أريد أن أعرف أدق فكرة تطرق عقلك، وأصغر إحساس يمر بقلبك.. أريد أن أعرف إجابات كيف ومتى وماذا ولماذا.. أريد أن أفهمكِ أكثر.. ثقي بي.. أستطيع أن أعتني بكِ، وأن أحميكِ.. قوتي تكفي لكلينا.. سأقولها لكِ مرة أخرى.. أنا موجود.. هلا ترينني؟

نيران الحُب التي تشعلها عيني امرأة، لا تكفي الدموع لإطفائها.. أرجعت بصرها كرتين إلى وجهه، وثبتته بعينيه في الثالثة، قرأ في قسماتها شكًا ينازع سكرات الموت الأخيرة؛ فأخرج بوصة سنارته، وأغمدها في قلب الشك بطعنه نافذة، ثم همس برفق:

- بيننا شيء ناقص أريد أن أُكمله، ألا تريدين ذلك؟ الصباح الذي يزفر أنفاسه في وجهها، فتح في عروقها أخاديد جديدة، وكلماته التي تمسح على قلبها جعلت من هذه الأخاديد مسارات جديدة للدماء، سار فيها الدم حتى وصل لأماكن لم يبلغها قط.

تسرب إلى وجهها بعض الحُمرة، تشي بما يعتمل أسفلها من فوران الدم الثائر، توردت كزهرة في بستان، فاح عبيرها حتى التقطته حواس البستاني، قرَّبها منه حتى سقط بينهما قانون المسافات، هذه المرة لم يحاول أن ينزعها من أرضها، ولم يتعجَّل إنضاجها، بل أحاطها بكفوف الحنان مخافة أن يفقد عبيرها ثانية.

في زماننا ما أسهل أن تشتعل شرارات الحب، توافق الأبراج، مزحة مكررة، كلمات مستهلكة.. أو حتى تطابق ماركة حذاء! لكنه حب هش لا يدوم.. أشلاء حب مجهولة النسب.. أما ما يشعران به الآن وُلِد من رحم حقيقي؛ فالحب الصادق يحتاج وقتًا لينمو، وفهمًا لينضج.

{٣}

إذا كان فضول القط قتله وحده، فإن فضول المرأة قادر على أن يقتل نصف سكان الأرض دفعة واحدة!

إيمان «هَدَل» بذلك دفعه لأن يتربص بـ «حواء» الدوائر، انتظرها عند مطلع الطريق بعيدًا عن أعين المتلصصين، وحاول أن يقنعها بالعودة مع «يونس» إلى المكان القديم لجزيرة «فيلة»، ليحاولا إلقاء الصندوق من جديد. بدا يائسًا وهو يستجديها أن تقبل عرضه بفرصة جديدة لم يمنحها لأي زوجين من قبل، فكل زوجين استنفدا فرصتهما لم يسمح لهما بأن يعيدا الكرة مهما أصرا على ذلك، وعندما سألته عن سر رغبته في أن يمنحهما الفرصة ثانية، أجابها:

- جاءني أبي في المنام قبل قدومكما إلى بيتي مع الشيخ «إنسان»، جلس برفقتي طويلًا وكأنه لم يكن حلمًا، وكأنه جرني عنده في قبره وعقد معي جلسة حِكمة، يسكب في مسامعي درر أقواله كما كان يفعل في صغري، ثم قال لي أنكما المختاران لإحياء أسطورة صندوق الشتاءات مرة أخرى، كانت إشارة، وأنا دومًا أتتبع الإشارات، وأثق بها.

كان الرجل مهيبًا، منذ أن وقعت أنظارها عليه للمرة الأولى قذف بهيبته في قلبها، لكنه الآن بدا بائسًا كطفل ضل الطريق إلى بيته، وينشد المساعدة من

الغرباء، حتى ظنت أنه سيدخل إبهامه بين شفتيه ويمصه كما الرضع، انتفض قلبها في وجل عندما افترش الأرض تحت قدميها وأخذ يبكي بأنين طويل متصل كعواء حيوان جريح، تركته في موضعه وولت هاربة، ولم تنظر خلفها ثانية.

عندما التقاها «يونس» عند المنحدر المؤدي إلى بيت الشيخ «إنسان» شعر بفزعها، فاقترب منها يهدئ من روعها، ويسألها عما أصابها. خافت أن تخبره باعتراض «هَدَل» لطريقها فتفقد بذلك كل فرصها في أن يقبل «يونس» أن يعود برفقتها ثانية إلى مكان الأسطورة.

رغم كل شيء ما زال جزء من عقلها يصدق كلمات الرجل ذي الرأس البندقي، إذا كانت قد وافقت على خطة «يونس» للهرب وهي التي لا تؤمن بقناعاته عن الشيخ «إنسان» واشتراكه في جريمة اختطافهما، أليست أيضًا مدينة لنفسها بأن تسير في الطريق الذي تؤمن به حتى نهايته؟

ماذا لو لم تكن مجرد أسطورة خرافية، ماذا لو كان الصندوق المسحور قادرًا بالفعل على أن يحبس شتاء علاقتهما بداخله، عندها لن تسود الخلافات حياتهما أبدًا، وسينعمان بعمر مديد من الحب.. ألا يستحق الحب أن تسير في هذا الطريق إلى نهايته؟ ليس عليها شيء سوى أن تؤمن أن هذا الصندوق قادر على حبس الشتاء بداخله، وأن تحاول ثانية أن تحبسه، هي التي لا ينقص الإيمان بذلك من قلبها، لماذا لا تحاول ثانية.. ماذا ستخسر إن حاولت؟ في الحقيقة لا شيء، لن تخسر شيئًا إن حاولت، لكنها ستخسر إن لم تحاول.. وسيبقى عقلها معلقًا بذلك الصندوق إلى الأبد، ويحاصرها فضولها في اليوم الواحد ألف مرة، يسألها، ماذا إن كانت أسطورة الصندوق المسحور حقيقية؟!

لم تكن مهمتها في إقناع «يونس» سهلة، لذلك لم تحاول الحديث عن صحة الأسطورة، بل قفزت مباشرة إلى قلب الهدف، إذ إن هذا هو الأسلوب المفضل للرجال دومًا:

- موافقة، سأرحل معك من الجزيرة هربًا في الوقت الذي تحدده، لكن في المقابل سنخوض ثانية الرحلة إلى الموقع القديم لجزيرة «فيلة».

خاب أملها، لم تكن مساومة «يونس» سهلة كذلك، كان أكثر ما يخشاه هو الرجل الذي لا يرتدي سوى الأسود، يدعي قدرة لا يملكها، مستغلًا عينين زرقاوين ميتتين تثيران القشعريرة في النفوس. لم يحب طريقتها في مساومته على شيء مقابل شيء، ليس هكذا يحب أن تسير الأمور بينهما، قال بحزم لا يخلو من الضيق:

- «حواء» انسي ذلك.

كانت تلك هي الشرارة الأولى التي أعلنت بدء خلاف جديد، أدركت «حواء» ذلك، فانقضت على تلك الشرارة تسحقها في يدها، لن تمنحها فرصة إشعال حريق جديد بينهما، قالت بصوت بدا هادئًا لا يشي بما يعتمل داخلها من إصرار:

- لماذا؟ أعطني سببًا واحدًا.

- لأن كل ذلك هراء.. تقول الأسطورة أن الصندوق سيغطس في القاع إذا صدق الزوجان، وأحسنا حبس الشتاء بداخله، كيف يمكن لصندوق خشبي صغير أن يغطس في الماء؟ هذا يناقض قانون الطفو.. ويعارض المنطق بشكل صارخ.

- ما دمت تثق بذلك؛ فلماذا أنت خائف من المحاولة؟

- لست خائفًا، بل لا أرى جدوى من وراء ذلك.

- لكنني أحب أن أفعل، أرجوك، أريد ذلك حقًا.

- لا يا «حواء» انتهى النقاش.

لم تعد تقوى على حبس الشرارة في كفها، حرَّرتها، وضاعفت من حجمها بقولها:

- عدم الذهاب ليس أمرًا تقرره وحدك.

- والذهاب ليس أمرًا تقررينه وحدكِ.

أصبحت الشرارة كرة نار توشك على حرق أحدهما، أو كليهما معًا. صاحت «حواء»:

- انظر ماذا يحدث لنا، إننا نتشاجر من جديد، لا يمضي يوم واحد دون أن نفعل، هل تريد أن نستمر في حياتنا معًا على هذا النحو؟

على غير المتوقع نبت فوق ثغره ابتسامة واسعة، ثم سألها:

- وهل تريدين أن نمضي حياتنا معًا؟

استدعت بوصلتها توجهها إلى أصدق جواب، قالت أخيرًا:

- أريد أن أعيش معك حياة خالية من الخلافات، أريد أيامًا خالية من الشتاءات، أريد ربيعًا، وخريفًا، وصيفًا فحسب.

ترقرق الدمع في عينها، أردفت:

- لا أريد حياة بائسة كالتي عاشها أبي وأمي.. لا أريد أن أنجب أطفالًا يتعذبون مثلي من جراء علاقة فاشلة تجمع أبويهما.. لا أريد أن أكره نفسي.. لا أريد أن أكره الحياة يا «يونس».. أريد أن أحبها.

رغم صدق رغبتها في ذلك فإنها أدركت في هذه اللحظة أنها كانت مُسيَّرة منذ أول لحظة في علاقتها لأن تعيش نفس الحياة التي كرهتها، دون إرادة منها كانت تسير على نفس خطى والديها، وكانت تدفع بـ«يونس» إلى كل الطرق المسدودة، وكأن جنًا مارقًا تلبَّسها وجعلها تأتي بعكس ما ترغب، الآن أمامها فرصة حقيقية

للتخلص من ذلك الشتاء الجاثم بثقله فوق أنفاس علاقتهما، لا تريد أن تضيع هذه الفرصة التي لن تتكرر ثانية. فاض من عينها الألم، أردفت:

- قلت لي يوم أن ذهبنا في النزهة النيلية أنك استعدت شعورك بالخفة الذي فقدته طويلاً، أنا لم أشعر يومًا بالخفة، بل بحمل ثقيل يسحق صدري.

فرَّت دمعة أخرى، تشد من خلفها ثلاث دمعات، شدها «يونس» إليه وتركها تسكب فوق صدره الدموع والآهات والأوجاع، لم تعد «حواء» ترى ضعفها عورة يجب سترها عن عينيه، كان قلقًا من أن يأتي بكلمة تبدد سكنها إليه؛ فلم ينطق بشيء، لم يطالبها بأن تكف عن البكاء، يعرف منذ أن تعلم أن يديم النظر إلى السماء أنها لا تتوقف عن المطر إلا عندما يجف قلب السحاب.. فترك لصدره مهمة تجفيفه.

نظر للأيام الماضية منذ أن استيقظ في بطن الكهف كرحلة شفاء، وأن هذا المطلب لـ «حواء» بمثابة خطوة على طريق الشفاء، ولعلها الخطوة الأخيرة التي ستستقيم حياتهما من بعدها. لبى طلبها، ولدهشتها لم تصدق أن يتخلى بهذه السرعة عن عناده ويوافق على اصطحابها مرة ثانية إلى الموقع القديم لجزيرة «فيلة»، كانت الرحلة الثانية لا تختلف كثيرًا عن الأولى، إلا أن «هَدَل» عندما حاول تجاذب أطراف الحديث مع «يونس» وجد منه صدًا ونفورًا، فجلس في موضعه من القارب صامتًا لا يفارقه، مخافة أن يثير حفيظة «يونس»؛ فيقرر إلغاء الرحلة.

تابع «تمَّام» مهمته كدليل لم يستأجره أحد، قال:

- والذي لا يعرفه الكثيرون أن أول من فكَّر في إقامة السد العالي هو العالِم العربي الفذ «الحسن بن الهيثم»، استندت فكرته إلى تقديرات وانطباعات نبتت في ذهنه العبقري واسع الخيال.. لكن زمنه خلى من الإمكانيات اللازمة ليتجسد خياله العبقري إلى واقع.. لكن الأوفر حظًا كان «أدريان

دانينوس» مصري الجنسية، يوناني الأصل.. عاش في زمن توفرت فيه الإمكانيات.. عندما طرح فكرة بناء السد في الأربعينيات قوبلت بالتجاهل في بادئ الأمر، ولم يتم النظر فيها حتى عام ألف وتسعمائة واثنين وخمسين.

بلغ القارب موضع الصندوق.. فشلت المحاولة الثانية، والثالثة، والرابعة.. وبعد عشر محاولات فاشلة عاد القارب بحمله إلى الجزيرة «هيسا» يجر خلفه أذيال الخيبة، قال لها «يونس»:

- لا تحزني.

كان في الماضي يظهر لها أمارات الشماتة ويقول جملته الخالدة «أخبرتكِ من قبل، لم تستمعي لكلامي»، لكنه هذه المرة لم يفعل، بل أظهر تقديره لخيبتها، وامتنت له «حواء» في نفسها.

نكَّس «هَدَل» رأسه، وتهدَّل كتفاه وكأن مائة عام أضيفت إلى عمره، التزم صمتًا لم يحاول «يونس» تبديده.

في الصباح السابق لليوم الذي قررا فيه الهرب، أعادت عليه «حواء» طلبها، لكن هذه المرة بغير جدال، فقط قالت بصوت مضطرب:

- هل توافق على أن نحاول مرة أخيرة؟

بدت أمامه ضائعة، عقلها مشتت، وقلبها لا يعرف بر الأمان، لم يطل تفكيره، قال:

- هل تعدينني أن تنسي الأمر برمته بعد هذه المرة، وأن تخرجي «هَدَل» والأسطورة والصندوق المسحور من عقلك تمامًا؟

قالت بحماس طفولي:

- نعم، أعدك.

هذه المرة شعرت أنها ستكون مختلفة، يجب أن يحدث شيء هذه المرة، فكرت طوال الطريق الذي تستغرقه الرحلة في طريقة جديدة لحبس الشتاء، فارتأت أن يقطع «يونس» جزءًا من قميصه، وتفعل هي بالمثل مع ملابسها القديمة، لم تكن تحب أن تؤذي الجرجار الذي أهدته لها السيدة «ملوك»، فعل «يونس» بغير اقتناع، ألقيا الصندوق في النيل، وكالعادة بدا المشهد التالي مكررًا، يسحب «هَدَل» صندوقه العتيق، يبكي وهو يتحسسه كأنه رضيع فاقد الأنفاس يحمله بين يديه.. ويتذلل لهما حتى يحاولا مرة أخرى بطريقة أخرى. جذب «يونس» الصندوق من يده بعنف، ورفع إصبعه محذرًا يقول:

- اصمت، لا أريد أن أسمع صوتك، انتهى الأمر، لن نلعب لعبتك السخيفة مرة أخرى، وإن اعترضت طريقنا ثانية فلن ألقي بالصندوق في النيل هذه المرة، بل سألقي بك أنت.

انزوى «هَدَل» في ركن القارب يدفن رأسه بين ساقيه.. أصاب «حواء» الوهن، التفتت صوب «يونس» تقول بحرج:

- لعلك على حق يا «يونس»، انجرفتُ وراء الأوهام.

لاحت ابتسامة بسيطة فوق ثغرها وهي تردف:

- كان حلمًا طفوليًا سخيفًا، عندما كنت أرى أبويّ يتشاجران ويتصايحان كما يحدث في مصارعة الديوك، كنت أجلس في أحد الأركان، أرتجف وأدعو الله أن يحبس الشيطان في النار فلا يعد يثير الخلافات بين أبي وأمي، وعندما لم يُستجب لدعائي، تمنيتُ لو كان عندي صندوق كبير أحبس نفسي بداخله عند بدء شجارهما فلا أعود أراهما ولا أسمعهما حتى ينتهيا، ثم تطرَّفت الأماني مع عنف شجاراتهما حتى تمنيت أن أحبس أبي وأمي بداخل الصندوق ولا أفتحه أبدًا.

توقف «يونس» عند كلماتها طويلًا، فسَّرت له الكثير من تصرفاتها معه، بات يفهمها الآن أكثر مما فعل في أي يوم مضى، أصبح قادرًا على الغوص في الأعماق بنفس مهارة الأسماك العمياء.. ابتسم «يونس» وهو يحتضن كفيها بين يديه قائلًا:

- وهل تظنين أن العلاقات السوية خالية من الخلافات؟ لم تري ولم تسمعي بعلاقات سوية لذلك ظننتِ أنها بنعومة الأحلام.. قلتِ لي أنك ترغبين في علاقة لا شتاء فيها، فهل فكرتِ كيف سيصير الربيع ربيعًا بدون شتاء يروي البذور.. كيف سيصير الخريف خريفًا بدون شتاء تنبت فيه الأوراق التي تأخذ دورتها في الاخضرار ثم تتساقط يابسة لتنبت مكانها أوراق جديدة.. كيف سنشعر بدفء الصيف بدون شتاء يعلمنا ما بينهما من متناقضات؟ لا أظن أن ما ينجح العلاقات هو خلوها من الشتاء، بل قدرتها على احتوائه حين يحل، حتى يمر إلى الفصل التالي بسلام. ألم يقل لكِ الشيخ «إنسان» أن للحب فصولًا أربعة، فلماذا افترضتِ أنها تحل بالحب مرة واحدة، ربيع واحد، شتاء واحد، خريف وحد، وصيف واحد.. لا أظن أن هذا ما أراد إخبارك به، أظنه أرادك أن تعرفي أن الفصول تتابع على الحب ما دام حيًا، كحياة الإنسان، يمر فيها بعشرات الربيع، والشتاء، والخريف، والصيف.

أخذ نفسًا عميقًا زفره ببطء ثم أردف:

- لو كان الحب بغير شتاء فهو حب منقوص، غير ناضج، حب زائف غير حقيقي، وأنا أريد لنا حبًا قويًا يجمعنا، نعمل على حمايته والمرور به من ضربات البرق والعواصف الهوجاء.. لأننا نستحق ذلك.

مر بخاطره دُرر الحكمة التي ألقاها الشيخ «إنسان» على مسامعه ذات مساء:

- هل تعرف يا بُني لماذا تكثر حالات الطلاق عند الشباب، وتندر جدًا بين كبار السن؟ من أهم أسباب ذلك أن العُمر كلما تقدم؛ قلَّت الفروقات بين الرجل والمرأة، تأفل الهرمونات، وتتبدد الاختلافات.. ويقترب سلوكهما

من بعضهما البعض، حتى لكأنهما يتحدثان بلغة شديدة الخصوصية لا يفهمها سواهما.. أما في الشباب تكون الفروقات بارزة، تؤهل كل منهما لأن يلعب دورًا متمايزًا فوق مسرح الحياة.

كان لكلمات «يونس» على قلبها مفعول السحر، للحبيب يد خفية تمسك بتلابيب القلب وتقوده حيث تشاء، وأصبح لـ«يونس» على قلبها هذا السلطان.. أطلَّت السَكينة من شرفات عينيه وهو يقول:

- الحب مثلنا يتنفس.. نحن نحتاج إلى الأكسجين لكي نعيش، لكن في الوقت نفسه لولا ما نزفره من ثاني أكسيد الكربون لظلت دماؤنا محملة بالسموم.. وكذلك الحب، يحتاج الأكسجين لكي يعيش، الود، والرحمة، والمشاركة، والتسامح، والتضحية، والتماس الأعذار.. لكنه أيضًا يحتاج لأن يخرج الهواء السام، والشوائب الميتة.. يحتاج إلى الصدام، والمصارحة، والمكاشفة، والعتاب.. وإلا اختنق ومات.

كان الصندوق الخشبي بين يديه يقلبه بغير اهتمام، أخذته منه وابتسامتها تشع كشمس النوبة، وبحركة مفاجئة ألقت به في النيل، ثم تطلعت إليه تمضي بعينيها عهدًا بأن تشاركه قاربه لعُمر بأكمله.

وعندئذ غطس الصندوق!

❦❦❦

استعاد جسد «هَدَل» الحياة التي فقدها، بدا بقوة شاب فتي وهو يتقافز هنا وهناك، ويطلق صيحة النصر، حتى ارتج القارب يمنة ويسرة، انكمش «تمَّام» على نفسه مخافة أن يتسبب الرجل الهائج في أن ينقلب بهم القارب في وسط المياه.

كانت نظرات «يونس» و«حواء» الذاهلة مثبتة على مكان الصندوق الذي اختفى للتو!

لم يعارض الصندوق قوانين الطفو، بل احترمها كما تحترم الأقدام قوانين الجاذبية فتسير على الأرض لا على السماء، قال «يونس» بحيرة:

- كيف حدث ذلك؟ هل مصادفة؟

ضحكت «حواء» ملء القلب وهي تقول بحيرة مماثلة:

- لا أعرف، حقًا لا أعرف.

أعاد عقلها الشريط السينمائي لثوانٍ إلى الوراء.. عندما اقتنعت بكلمات «يونس» وارتأت أن لا فائدة من حبس الشتاء بداخله، ألقت الصندوق في النيل بغير اكتراث، فاخترق المياه تمساح ضخم لم تقع أنظارها على مثله، وثب فوق الصندوق واختطفه بلمح البصر، ثم غطس به نحو القاع.

كانت قد تساءلت عن دور التمساح الحارس في الأسطورة، ها هي قد عرفت الجواب!

وأخيرًا فطن «هَدَل» إلى السر الذي عرفته «زهرة الورد» في الأسطورة الحقيقية، صندوق الشتاءات لم يأمر بصنعه ساحر لئيم، بل ناصح حكيم.. صندوق الشتاءات لا يحبس الشتاء بداخله، بل يُعلِّم حامله كيف يتقبَّل فصول الحب كما هي!

{٤}

كان الوقت ليلًا، القمر يتجلَّى من شرفته ليوزع هدايا بلون الفضة على الجميع، اختفت النجوم هذه الليلة حرجًا؛ فنجوم الأرض كانت أشد منها بهاءً. فتيات يرتدين «الجِرجار» بألوان البهجة السبعة، يزينه ما يتدلى من أعناقهن، «قرص جابر» أو قلادة أصغر حجمًا.. بينما ترتدي أم العريس شاوشاو من الذهب البندقي، أنقى أنواع الذهب.. يحتار الرائي هل هذا البريق مبعثه الحلي، أم انعكاس الفرحة في عيون سوداء مكحلة.

دقوا على الدفوف يا أهل القبيلة

نظموا الصفوف وادعوا كل عيلة

الليلة الحنة، وبكرة الدخلة

زغرطوا يا بنات.. يا بنات الحنة

صدحت الجدران تشاركهم أغانيهم المتوارثة جيلًا بعد جيل، يحيون الليلة الأولى من ثلاث ليالٍ من الفرحة قبل يوم الزفاف، يسمونها ليالي الحناء. حضر الكبير والصغير، الغني والفقير، يقدمون التهاني والهدايا، يغنون مع ألحان فولكلورية، ويرقصون «الأراجيد» رقصة أجدادهم المميزة، ثم يتبعونها بالرقص مع الكرباج. كان في تجمعهم تحت الأضواء المعلقة شكل القمر المضيء في سمائه.

صقفة على الكفوف دي الفرحة كبيرة

قابلوا الضيوف وباركوا للأميرة

الليلة الحنة، وبكرة الدخلة

زغرطوا يا بنات.. يا بنات الحنة

ومن إحدى الشرفات أطلَّت أميرة الحفل، ترد بالبسمات كلما التقت عيونها بعيون تدعو لها بحياة طويلة مفعمة بالحب والبركة. ترتدي «جِرجار» أصفر تحته بطانة باللون ذاته، يُطوق عنقها الأسمر الساحر الأصفر، ومعصميها وأصابع كفيها، كانت زاهية كما يليق بالليالي القمراء.

مبروك يا عريس اخترت الأصيلة

دي أجمل ونيس في الرحلة الطويلة

الليلة الحنة، وبكرة الدخلة

زغرطوا يا بنات.. يا بنات الحنة

لم يكن زفافًا عاديًا، فالعروس من قبيلة «الجعافرة»، والعريس «عبدون» من قبيلة «العبابدة».. اختار جد العروس جزيرة «هيسا» مسرحًا للزفاف تأدية لنذر قديم.. فأهل الجزيرة فتحوا له أبواب بيوتهم يوم أن هُجِّر من قريته الصغيرة قرب النيل.. وأقسم أن يعود إلى الجزيرة ثانية ليقيم فيها زفافًا لم يشهد النوبيون مثله، ويطعم جميع أهل الجزيرة من وليمة عظيمة، تزوج أبناؤه في ظروف لم تُهيئ له الفرصة ليؤدي نذره، إما في بلاد الشمال أو في الغربة، لكن مع زفاف أول حفيدة له قرر أن أوان الوفاء بالنذر قد حان.

كانت الليلة الأخيرة لـ «يونس» و «حواء» في الجزيرة قبل الهرب، لذلك قررا الذهاب بالساعات المتبقية إلى أقصى طاقات الاستمتاع. عندما أخبرهما الشيخ «إنسان» عن الزفاف المقام على أرض الجزيرة في المساء تحمسا للحضور.. لا يزال

«يونس» حتى هذه اللحظة لا يعرف لماذا لم يخبر «هَدَل» الشيخ «إنسان» بشكوكه بشأنه يوم أن صرَّح بها في القارب.. عرف ذلك لأن الشيخ ظلَّ يحفظ له الود، ولم تتغير معاملته قط.. فتأكد أن «هَدَل» لم يبح له بشيء.. فكَّر «يونس» مرات عديدة أن يتحدث إلى الشيخ فيلقي بالتهم في وجهه صراحة، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة.. حتى إن كان الشيخ متعاونًا مع الشركة المنافسة في اختطافهما فلن يعترف بذلك بالتأكيد.. ورغم ذلك لم يستطع أن يبغض الشيخ، التمس له العذر بأن ظن أن الشيخ نفسه قد يكون ضحية خدعة مارسها صاحب الشركة المنافسة عليه.. المشكلة فحسب، أنه لا يستطيع التأكد أي من هذه الاحتمالات هو الصواب. عضَّ الخوف قلبه عندما حاول الاتصال مرات عدة بالجد «سُلطان» دون جدوى.. فهاتفه مغلق على الدوام، وهاتف أبلة «عفت» كذلك.. فإما أن الاثنين قررا تغيير أرقامهما مخافة أن تتبع الشرطة محادثاتهما مع «يونس» و «حواء».. وإما أن مكروهًا قد أصاب كليهما.. خاصة أن رسول جده لم يصل إلى الجزيرة حتى الآن.. لكنه استبعد الاحتمال الثاني، لو أراد الخاطف بهما سوءًا لفعل منذ البداية ولما كلَّف نفسه مشقات هذه الرحلة.. وقد تكون «حواء» محقة في ظنونها من تلاقي حدثين في الوقت نفسه.. السحر والأسطورة.

قبيل حفل الزفاف بنصف ساعة، انتهت «حواء» من ارتداء الجرجار بعد أن غسلته، وخرجت تنضم إلى «يونس» عند بداية المنحدر، فوجئت به يدنو نحوها مبتسمًا على استحياء، يقدم لها شيئًا ملفوفًا بغلاف فضي بغير إتقان، ويهمس لها:

- وددتُ لو قدمتُ لكِ الأفضل.

فضَّت الغلاف فانكشف ما ستره، حذاء بغير كعب يطابق مقاس قدميها، ويوافق لون الجرجار.. رفعت صوبه عينين تبتسمان، لم تكن المرة الأولى التي تتلقى فيها الهدايا، لكنها شعرت هذه المرة أن «يونس» مدفوع برغبة حقيقية في إسعادها؛ فأحسن انتقاء ما يوافق ذوقها واحتياجاتها، لم تفرح بالهدية لكونها هدية، بل لأنه انتقى لها الشيء الذي ينقصها، اهتم بالتفاصيل ونظر إلى حذائها الذي أبلته

رمال الصحراء وقساوة الطرقات، وعرف أنها تحتاج إلى آخر جديد دون أن تشير عليه بذلك.

لم تكن هديتها الأثمن، لكنها ستظل الأقرب إلى قلبها رغم بساطتها.

غمرتها بهجة العُرس كما لو كانت ابنة الجزيرة، لا يفرق بينها وبينهم سوى لون بشرتها، لكن القلوب حملت اللون ذاته؛ فتآلفت، احتفوا بها وبـ «يونس»، تذوقت طيب طعامهم، وشاركتهم الضحكات والسَمر.

لم يكن «يونس» أقل منها بهجة، خاصة وهو يستقبل «عبدون» مرحبًا بقوله:

- إر تمامايري؟.. (أنت تمام؟)

أجابه «عبدون» باسمًا:

- أي تماما..... (أنا تمام)..... سمعت أنك تعلمت النوبية هنا.

- كلمات قليلة فحسب.

رغم قصر عمر معرفتهما فإن رابطة صداقة قوية لاحت في الأفق، استمسك بها كلاهما، سأله «يونس» ممازحًا:

- ألا يجب أن يتزوج الرجل من قبيلته، والمرأة من قبيلتها؟

ضحك «عبدون» قائلًا:

- لا نشترط ذلك، المهم أنها نوبية وليست «جُرْبَتِّية».

- ليست ماذا؟

- «جُرْبَتِّية».. غير نوبية.. البعض لا يزال يتشبث بذلك.

أومأ «يونس» برأسه متفهمًا، فأضاف «عبدون» وهو يرمق الجمع بابتهاج، وعندما سأله «يونس» عن أصول قبيلته أجاب:

- «العَبابدة» يفخرون بأن جدهم هو «الزبير بن العوام» الصحابي الجليل.. «والجعافرة» من نسل «جعفر الصادق» رضي الله عنهما وأرضاهما.

هجم أصدقاء «عبدون» عليه يطوقونه ويجذبونه ليشاركهم رقصة الأراجيد، كتفًا بكتف، وقدمًا بقدم، كالبنيان يشُدُّ بعضه بعضًا.. انشغل الجميع بالرقص، وابتعدت عنهما العيون المتفحصة، شعرت بيده تنسل مستترة بستر بالزحام لتطوق كفها في يقين لا يشوبه شك، اتسعت ابتسامتها وإن لم تنظر إليه، ثم مالت نحوه لتقول:

- يُفترض أننا لسنا زوجين، ماذا سيقول الناس الآن؟

- ومن قال أننا لسنا كذلك؟

استحالت البسمة إلى حيرة، ثم دهشة، سألته:

- ماذا تقصد؟!

مال صوبها يقول:

- أتذكرين متى أمسكتُ بيديك للمرة الأولى فوق الجزيرة؟

تذكر جيدًا كيف كانت الرياح يومها جامحة، لا لم تكن الريح وحدها.. قالت:

- نعم، يوم عدنا من النزهة النيلية.

حملت لها نسمات الرياح كلماته:

- في تلك اللحظة.. رددتُك إلى عصمتي.

انبعث قلبها من رقاده، يشدو فرحًا وابتهاجًا، أمسكت بلجام صوتها المضطرب وهي تقول في عتاب مصطنع:

- دون أن تسألني رأيي؟

جاوبها سؤالًا بسؤال سابحًا بباصريه بين حنايا وجهها:

- وهل تمانعين؟

كانت ناقمة على شرع منحها من عمر الكون ثلاثة أشهر للعِدَّة، تمضيهم جنبًا إلى جنب مع رجل لا تريده ولا يريدها، والآن زارتها الحكمة، العِدَّة فرصة ذهبية منحها الله لزوجين متشاحنين ليتآلف قلباهما من جديد..

انتفضت لأصوات الكرابيج على الأرض، اجتمع الشباب يطوقون «عبدون» في شكل دائرة ويتمايلون في حركات ممنهجة، بدا لها النيل في هذه اللحظة يتمطَّع ليشاركهم رقصاتهم.

دنت منها الحنَّانة تود أن تنقش على يدها إحدى الرسمات، كما فعلت مع كل النساء في العُرس، فسألتها المرأة قائلة وهي تنظر بفضول نحو «يونس»:

- بنت أم متزوجة؟

هزت «حواء» كتفيها تقول:

- وما الفارق؟

- المتزوجة ترسم اليدين معًا، وغير المتزوجة ترسم يدًا واحدة.

لم تكن الحنانة وحدها تنتظر الجواب، يتلهف لجوابها قلب الرجل الجالس بجوارها، أدركت أنها كانت تحمل في قلبها دومًا صحراء لا قطرة فيها ولا كلأ.. نجح «يونس» في أن يزرع فيها أول نبتة، تمكَّن أخيرًا من أن يُشعرها بأنها امرأة مرغوبة، أنثى كاملة يتقبلها كما هي، بمحاسنها ومثالبها، بفضائلها ونواقصها، بعقلها وجنونها؛ ففجَّر بداخلها ينابيع العطاء، في هذا الزمان الإنسان الشجاع هو الذي يقدر على الحُب، و«يونس» أثبت أنه يتحلى بأخلاق الفرسان.. جمعت أطراف حيائها، ونثرت دلالها تقول بغنج وهي تمد يديها:

- ارسمي الاثنتين.

قفز قلب «يونس» طربًا، ومنحها نظرة حُب أضاءت ما بين السماء والأرض، أدرك أنه لا يكفي أن يكون صيادًا حتى يعثر على اللؤلؤة، بل عليه أن يكون بحارًا جسورًا يغوص في الأعماق ليفوز بها.

ترمومتر حرارة الحب يستقر في قلب المرأة، وتضيء بقراءته عيناها.. لم ينقطع حديث أعينهما إلا عندما انتهت الحنانة من رسمها، تأملت «حواء» نقوش الحنة المتعرجة فوق كفيها، زهور صغيرة تبدأ من الرسغ وتنتهي بفراشة تستريح فوق العقلة الأخيرة من إبهامها. فراشة تفرد جناحيها بحُرية.. قرَّبت كفها من وجهها ففاحت رائحة زيت عطري أخبرتها الحنانة أن اسمه «المَحْلبية»، يأتيها خصيصًا من السودان، دغدغت رائحته حواسها، رائحة جديدة غير مألوفة، ككل شيء يحيط بها في هذه اللحظة، ورغم ذلك لا تشعر أبدًا بالغربة.

لم يكن افتراقها عن الشيخ وزوجته أمرًا سهلًا، خاصة بهذه الطريقة التي لا تمهد لها طريقًا للوداع.

احتشدت مشاعرها المتضاربة فوق قسماتها، فالتقطتها عين «يونس» المتيقظة لردود أفعالها، أحاط كتفيها بذراعه، ضمها إليه، قالت بغير انفعال:

- أنت مخطئ بشأنهما، ستعرف ذلك ما إن نعود إلى «كفر الشيخ».

تنهد بحرارة قائلًا:

- أتمنى ذلك صدقيني، لكن للأسف لا تفسير منطقي آخر سوى ذلك.

كانت تثق بقلبها، بينما هو يضع ثقته كاملة في عقله.. فهل يمكن أن يتحد العقل والقلب؛ ليكون كلاهما على حق؟!

رأت «حواء» أن ذلك ليس صعبًا، بينما عدَّ «يونس» ذلك من المستحيلات.. ورغم ذلك سارا معًا في طريقهما يدًا بيد، ينثران النور في عين الحقيقة المستترة بالظلام.

ارتأى «يونس» أن القطار ليس آمنًا، فإن اكتشف المختطفون هروبهما فلا بد أن يعدون من ينتظرهما عند محطة القطار، لذلك اختار الطريق الأصعب، تطوَّع «تمَّام» لمساعدتهما بعدما حكى له «يونس» بشكل مختصر ما يواجههما من خطر، وأرشدهما إلى طريق غير مباشر لا يتخذه المسافرون عادة، وساعدهما على استئجار سيارة بسائقها حتى القاهرة.. وفي لحظة الوداع تعانقا طويلًا وكأنهما يعرفان بعضهما بعضًا منذ الأزل، وصَّى «يونس» قائلًا:

- عندما تعودون إلى الشمال أخبروا سكانها أننا لسنا بوابين و «سُفراجية» كما يحلو لهم أن يصورونا في الأفلام، كلموهم عن أدبائنا، «محمد خليل قاسم»، «حجاج أدول»، «إدريس علي».. أخبروهم عن تاريخنا وأننا كنا حُكامًا عظامًا لبلاد النوبة، وأننا أمهر من رمى السهام عبر التاريخ.. قولوا لهم ارحموا عزيز قوم هانت عليه نفسه من أجل مصلحة بلاده.. أخبروا أهل الشمال أن السد العالي الذي انتفع به الجميع دفع ثمنه النوبيون.. وكان ثمنًا باهظًا، وإنا لا نريد منكم جزاءً أو شكورًا.. إنما بعض من التقدير فحسب.

شدَّ «يونس» على يديه قائلًا بودٍ كبير:

- أفْيُولوجو.

- هِيرلُوجو.

بعد أن ابتعد «يونس» عدة خطوات، عاد إليه يقول:

- أخبرني يا «تَمَّام»، ما معنى الكلمات المكتوبة على جانبي قاربك؟

ابتسم «تَمَّام» قائلًا:

- النوبة تُنادي علينا.. ودائمًا تُعاتبنا.

كانت آخر القرى النوبية جنوبًا هي قرية «أدندان» قبل التهجير، مروا من أقصى الجنوب صوب الشمال.. كلما ابتعدا عن همسات النيل ضاق صدر «يونس» أكثر، وتساءل قلبه متألمًا، كيف يطيق النوبيون الحياة في هذه الصحراء القاسية بعد أن كانوا يجاورون النيل في سكناهم، يتسامرون معه، ويحكي إليهم مغامراته مع المراكب والبواخر والسابحين في مائه يطفئون بها حرارة الشمس ولسعاتها.

أي تضحية تلك التي دفعتهم ليقدموا مصلحة وطنهم على أهوائهم ورغباتهم، على رفات الأجداد، وحكايات الأمجاد، على البيت والزرع والتراب.. عاد بذاكرته يوم قرأ مثل غيره عن افتتاح مشروع «تُوشكى» في الصحراء، لاستثمار الفائض المائي الذي وفره السد العالي، لا بد أن الأهالي المُهجَّرين انتظروا من بلادهم رد الجميل، تشوقوا لأن يحمل كل منهم فأسه، ويطرح فوق ظهره حماس التعمير، فيعود من يرغب منهم في العودة إلى أرضهم التي انحسرت عنها المياه، لكن الأراضي تجاهلت النوبيين الأحق بها، وذهبت إلى كبار المستثمرين وأمراء العرب! وقتها ثار الغضب في دمائهم مثل فيضان النيل قبل بناء السد، أيصل نكران الجميل إلى هذا الحد!

ولا بد أن القهر الرابض في الصدور قد أنزل على المشروع اللعنات، فكشف التسرع في تنفيذ مشروع «تُوشكى» بغير دراسات كافية أنه لم يكن سوى خطيئة تاريخية!

مسَّت «حواء» كتفه فقطعت حبل أفكاره، قالت:

- أنت شارد.

أومأ برأسه مصدقًا، فأردفت:

- أتخشى ما قد نواجهه في «كفر الشيخ»؟

- ثقي بي.

لكن الجو المشحون بالقلق نقل التوتر إليه، ماذا إن كان على خطأ، كيف يراهن بثقتها على مجرد استنتاجات توصل إليها عقله، شعر بالقلق، أولى وجهه شطر السماء، وترك الرياح المتسربة من نافذة السيارة تداعب وجهه.

تأمل الطريق الذي يتبدَّل كما لو أن الأرض ذاتها تتحول من طور إلى آخر، كان الطريق طويلًا.. طويلًا جدًا، بدا كأنه سيستمر للأبد.

سبحت «حواء» في اللون الأصفر من حولها، يتنامى إلى مسامعها صوت ضيفة برنامج من مذياع السيارة.. كانت الحلقة عن السيَر الشعبية.. ذكرت الضيفة أن السيرة الشعبية الوحيدة عن امرأة هي سيرة «ذات الهمة».. امرأة فلسطينية تعرضت للظلم، وأرادت أن تهب نفسها للإسلام والدفاع عنه ضد المعتدين على الأرض والعرض، فأقسمت أن تقضي على عدو غاشم يهدد حدود الدولة الإسلامية، ذات الهمة فارسة قوية ذكية شجاعة أعدَّها أهل قبيلتها قائدة لهم، تقود جيوش المسلمين إلى الثغور ضد الروم، وكانت تتنكر أحيانًا في زي الرجال؛ فتُقدم القتال بشجاعة نادرة.. لم تكن تشغلها الحروب الخارجية فحسب، بل المؤامرات الداخلية فتفضح المتآمرين الفاسدين أمام الخليفة، نجحت بذكائها وقوتها في أن تقف في وجه المؤامرات داخل وخارج حدود الدولة حتى توجت كإمبراطورة.

أنجبت من ابن عمها ولدًا أسمته «عبد الوهاب».. وهبته للجهاد وللدفاع عن دينه وأرضه..

ملحمة «ذات الهمة» أطول سيرة في التاريخ، ستة وعشرون ألف صفحة، والنسخة الوحيدة منها محفوظة في مكتبة «برلين».

امتلأ قلب «حواء» بالحماسة والفخر عندما سردت الضيفة تفاصيل المعارك التي خاضتها «ذات الهمة».. كانت بطلة كالرجال، وأنجبت رجلًا كالأبطال!

دفع ذلك بـ «حواء» إلى أن تفكر في الأمر من زاوية أخرى.. لا تنكر «حواء» أن «ذات الهمة» هي السيرة الأكثر قوة وإلهامًا.. لكن ماذا إن كانت مجرد امرأة

ضعيفة البنية، جاهلة بالقتال، عاقر لا تنجب؟ عندها لما تذكرها أحد، ولماتت سيرتها قبل أن تُولد.

سبحت عيناها مرة أخرى في اللون الأصفر وفي السماء الزرقاء.. تتذكر امرأة نوبية بسيطة تركت بيتها وأرضها وزرعها ونيلها.. وسكنت جبلًا وسط صحراء جرداء.. قامت هذه المرأة التي لا حول لها ولا قوة بدور دولة كاملة! حافظت على اللغة والعادات والتقاليد.. أبقت على تراث الأجداد، ولم تتوقف عن سرد حكايات الماضي.. أمسكت بالفأس والمجرفة تحرث وتضع البذرة في الصحراء.. تسعى حتى أطراف القرية لتملأ وعاءها بالماء.. وعندما أكل النمل الأبيض بيتها الجديد هدمته وأقامته من جديد! زيَّنته بالرسم والألوان، استعاضت عن ضيق مساحته بغرفات قلبها الأربع.

تركها الجميع ورحلوا إلى الشمال.. هربًا من قيظ الصحراء، وفقر الخدمات، وسعيًا للرزق، وتحسين الحال.. لكنها بقيت في هذه الأرض.. تتشبث بها، وتضرب فيها بجذور إرثها اللغوي والثقافي.. تعرف أنها لو هجرتها مثلهم ستثور عواصف الرمال الغادرة لتطمر كل شيء، كما طمرت من قبل جيش قمبيز برجاله وعتاده.

لم يكن لديها الوقت لتنفس عما بداخلها من شكوى أو عتاب، على كتفيها أعباء التعمير.. ولأنها معجونة بطمي النيل تعلمت كيف تحول الكربون السام إلى حُب، تصنع منه بوقًا تنادي به على أبنائها الهاربين إلى أحضان الغُربة، تقول لا تنسوني، أنا ما زلت هنا أمهد لكم دروب العودة، وأعطر الهواء بالرياحين.. كانت المرأة الوحيدة التي تعرف كيف تتنفس الأكسجين وتزفره ثاني أكسيد الحُب..

المرأة النوبية يجب أن تُخلدها السيَر الشعبية، وألا تكون مجرد حكاية منسية.

نعير أبواق السيارات، الزحام وتلاحم الأجسام، الأضواء المتصنعة، والأصوات المتزلفة، روائح القهر، والأحلام المتعفنة.. سعار الشراء، وعبادة «الأشياء»، كل ذلك دفعهما ومنذ اللحظة الأولى لأن يشعرا بالحنين إلى جزيرة «هيسا»، إلى ضحكات السماء، وحديث النيل.

نيل القاهرة كان مختلفًا، صامتًا، باردًا، وكأنه شيخ بلغ أرذل العمر.. لا يكون النيل شابًا إلا في النوبة، لا يكون النيل حكَّاءً إلا في النوبة.

تحرَّكت السيارة في طريقها من القاهرة إلى كفر الشيخ.. قدَّرت أنها اللحظة المناسبة لتمنحه هدية صنعتها بيديها.. قارب صغير استخدمت فيه أوراق شجر الموز وجلود الجمال التي أهداها الشيخ «إنسان» لزوجته، والتي اعتادت على أن تغمرها في الماء فتصير لينة، طيعة، تصنع منها أشكالًا للزينة، تبيعها للسياح القادمين إلى الجزيرة، أو لأحد المحلات في سوق قرية «غرب سهيل».

حوَّل «يونس» اهتمامه إلى القارب الصغير، قلَّبه بين يديه، فهمست له:

- احترت ماذا أصنع من أجلك.. ثم فكَّرت أن أكثر شيء تحبه هو قاربك الصغير، تحمله معك أينما تكون.

أمسك القارب في يدٍ، وبالأخرى احتضن كفيها، ولولا أنه رجل لا يحب عرض مشاعره علنًا في سوق النظرات؛ لانحنى نحو كفيها يطبع فوقهما قُبلة فقُبلات.. أبواب قلبه المفتوحة على مصراعيها، تدعوها إلى الدخول، وأن تتخذ منه سكنًا لها. أصبحت ترى وجهه الخاص الذي يخفيه كل إنسان، بدايات العلاقات قد تكون ساحرة لكنها لا تصل إلى الجوهر أبدًا، الربيع وحده لا يكشف طبيعة الأرض، إنما الفصول الأربعة معًا تفعل.. سألته ليطمئن فؤادها:

- هل ما زلت غاضبًا مني؟

ثم مازحته قائلة:

- هل تخشى أن أقتل سمكاتك مرة أخرى؟

كست الجدية وجهه وقال:

- لم أحزن على موت السمكات فحسب بل أشفقتُ عليكِ من هذا الذنب العظيم.. بَغي دخلت الجنة لأنها سقت كلبًا، وامرأة دخلت النار في هرة حبستها حتى الموت.. كيف فعلتِ هذا يا «حواء»؟

كان عتابه وِدًا لها، ورحمة بها.. هكذا يكون الحب الحقيقي، يخشى عليها من الذنوب والآثام، مثلما تُرهبه نَوائب الأيام. سحقها الذنب تحت صخرته، لا تعرف كيف واتتها الجرأة لتفعل، الغضب شيطان مريد، يغشى العقل، استغفرت لذنبها تأمل من الله العفو والقبول.

علا صوت بعض الركاب في شجار مع السائق.. ازدادا قُربًا من بعض، وكأنهما يتسلَّحان بهذا القُرب في مواجهة طوفان المشاعر السلبية.. من القاهرة إلى كفر الشيخ كان الطريق قصيرًا بعمر الساعات، لكنه طويل بعمر اللهفة للحظة كشف الحقيقة.

أول ما فعل «يونس» عندما ركب السيارة المتوجهة إلى مدينته، أن استأذن أحد الركاب في استخدام هاتفه، ثم اتصل ببواب البناية وطالبه بإحضار رجل لكسر قفل الباب، وتركيب آخر جديد، إذ ادعى أنه أضاع المفتاح.

عندما وصل «يونس» كان البواب جالسًا في مكانه على المصطبة، هبَّ واقفًا لرؤيتهما، خاصة مع ما يبدوان عليه من اسمرار وهزال، وملابس غير معتادين على الظهور بها، لكنه غمغم قائلًا في حبور:

- حمدًا لله على السلامة، غبتما عنا طويلًا، آمل أن تكونا قد أمضيتما إجازة سعيدة في المصيف.

سلَّمه المفتاح الجديد، شكره «يونس» باقتضاب، وكان التعب قد بلغ منه مبلغًا عميقًا، هزَّت «حواء» رأسها وعلى وجهها شبح ابتسامة، كان أقصى ما استطاعت أن تبلغه للرد على حفاوة الرجل.

طافت عينا البواب بهما حتى دلفا إلى المصعد وانغلق الباب، كان «المصيف» هو التفسير الوحيد للون الأسمر الذي لفح بشرتيهما، هرش مؤخرة عنقه وهو يتساءل في فضول، لماذا لا يحملان حقائب سفر؟!

خرجت زوجته من غرفتهما للتو، فدنت منه تسأله وهي تلوي شفتيها:

- ألم يتطلق هاذان، لماذا يصعدان يدًا بيد؟

عاد البواب إلى مصطبته، أراح فوقها ساقًا وأبقى الأخرى فوق الأرض، ثم قال:

- وهل تظنين يا معتوهة أن رجلًا مثل الجد «سُلطان» سيترك زواجهما ينهار دون أن يتدخل؟ هذا العجوز يرى أن العالم كله بحاجة إلى تربية من جديد، ولو انتخبه الناس رئيسًا للدولة لكان أول قرار يصدره أن يتم تنظيم معسكرات مغلقة لتربية الشعب!

ثم أضاف بثقة وهو يأخذ نفسًا عميقًا من نرجيلته التي لا تفارقه ليلًا ونهارًا:

- أقطع ذراعي لو أن هذا العجوز تركهما وشأنهما.

ثم أضاف بثقة أشد بعدما طرح فكرة المصيف أرضًا، مشيرًا إلى المصعد الذي ابتلعهما منذ قليل:

- ولعله هو من أوصلهما إلى هذا الحال!

الحقيقة هي الفضيلة الملعونة، ليس فقط لأنها تجعل المرء يكتشف كم هو أحمق، بل لأنها تنسف ما قام ببنائه فوق أساسات هشة، إنها تخلخل جدران الحياة، وتهدم سقوف الأوهام، وتفجر قبو الأكاذيب، لا يخاف المرء الحقيقة، بل يخاف من نظرته الجديدة إلى الأمور بعدها، نظرة قد تقلب حياته رأسًا على عقب.

عاد «يونس» و«حواء» من هذه الرحلة بكنز ثمين، حمل كل منهما نصفه في قلبه، وأغلق عليه بألف صمام، لم تزلزل الحقيقة عالمهما فحسب، بل أوشكت على كسر صمامات القلب، فارتعبا من فقدان الكنز.

على وجه الجد «سُلطان» كان تثاؤب المنتصر، وفي عين أبلة «عفت» كانت ابتسامة الظافر.. وكلاهما كان لوقعهما على نفس «يونس» و«حواء» كطعنة نافذة في الظهر، طعنة القريب أشد فتكًا من طعنات ألف عدو.

خلال رحلتهما العصيبة كان مقص الرقيب يستبعد كل ما أراد أن يخفيه عنهما، أما في هذه اللحظة أخرج الجد «سُلطان» من جعبته كل القصاصات التي حذفها مقص الرقيب، وعرضها أمام أعينهما في تلذذ سادي.

ما مر بهما من أحداث كان يشبه الميكانو، قطع صغيرة من الأحداث يتم جمعها كل مرة بطريقة جديدة؛ ينتج عنها حتمًا شكل مختلف، لكن الجد هو صانع الميكانو، وهو أكثر من يعرف الشكل النموذجي الذي يجب أن تتجمع فيه القطع.. لأنه احتفظ بقطعة واحدة أخفاها عنهما.

طائرة خاصة تم نقل «يونس» و «حواء» المخدرين عبرها إلى الكهف، تحت رعاية الجد.. لم يبدأ الميكانو إذن بقطعة الكهف، بل بقطعة أخرى سبقته بعدة ساعات.

دفع ذلك «يونس» المصدوم لأن يهتف غير مصدق:

- كيف..أنت.. كيف أمكنك أن تفعل ذلك بنا يا جدي؟!

جلست «حواء» بعدما فشلت قدماها الواهنتان في حملها، قالت وهي تخترق وجه أمها بألف نظرة حادة:

- أمي قولي شيئًا؟ هل ما قاله جدي صحيح؟ هل دبرتما كل ذلك معًا؟ أمي، أجيبيني.

رمقت أبلة «عفت» الجد بنظرة مضطربة، تناشده ألا يبوح بسرها.. لن يكون أمرًا طيبًا إن علمت «حواء» أن أمها تعرضت لعملية نصب وسُرق مالها على يد مشعوذ دجال تعاون مع فرَّاشة المدرسة للإيقاع بضحاياه من السذج وضعاف الإيمان.. لن يكون أمرًا تفخر به «حواء» إن علمت أن أمها ما إن اكتشفت اختفاءها و«يونس» حتى ساورها الشك في الدجَّال فعاودت الذهاب إلى البيت القديم في الحي الشعبي ذاك، ثم الطابق الثاني، ومنه إلى باب «رَد المطلقة»، اقتحمته دون أن تنقد حارسه جنيهًا واحدًا.. وما إن تعالى صياحها في الداخل تطالبه بإعادة ابنتها إلى بيتها حتى كشف الضبع عن نابيه، وفاحت رائحته القذرة.. خدَّرها وأتباعه.. سرقوا مالها ومصاغها ثم ألقوا بها في إحدى الخرابات.. عادت إلى بيتها مهدورة الكرامة، مستباحة للشماتة.. لكن الجد الذي قدم إلى بيتها لم يكن من الشامتين.. كتم سرها وأفصح عن رحلة للتطهير أعدها من أجل الجمع بين «يونس» و«حواء».. دون اللجوء إلى المحرمات.. وختم حديثه بأن ذكَّرها بـ «من أتى عرافًا فسأله عن شيء، لم تُقبل له صلاة أربعين ليلة»[1]، وكذلك حُرمة سؤال الساحر والكاهن.. وكانت أبلة «عفت» خير من تعرف هذه الكلمات، فكم درَّستها إلى أجيال وأجيال من الطالبات!

بنبرة أبلة «عفت» القاطعة، أقرَّت بتعاونها مع الجد في مخططه، قالت ببرود جمَّد الدماء في عروق «حواء»:

- أفعل أي شيء ولا تحصلين على لقب مطلقة.

هتفت «حواء» بجنون:

- أي أُم أنتِ!

---

(١) حديث شريف، رواه مسلم.

طرق الجد بعصاه مرتين فوق الأرض، يكره الجد الصوت العالي، قال بقوة وحزم:

- رأيتُ أنكما بحاجة إلى تربية، وكنت محقًا، انظرا، لقد عدتما إلى هنا يدًا بيد.. وأخباركما التي كانت تصلني لحظة بلحظة أنبأتني بأنني دفعت بكما نحو الطريق الصحيح.

ثم أضاف وهو يشير نحوهما بعصاه:

- لا أنتظر منكما شكرًا، يكفي أن تقدرا ما حصلتما عليه خلال هذه التجربة.

استرجع «يونس» في عقله تفاصيل بسيطة كان من شأنها أن ترشده إلى الحقيقة، لولا أنه اختار أن يتجاهلها، ولم يتوقف عندها، الجد «سُلطان» كان له شريك قبل ثماني سنوات، تعرضا للنصب معًا من محامي المصنع وخسرا كل أموالهما، ثم عاد هذا الشريك إلى بلده.. الشيخ «إنسان» حكى له قصته عندما خسر ماله منذ ثماني سنوات، لكنه لم يملك من صفاء الذهن ما يكفي لأن يربط بين قصته وقصة الجد «سُلطان».. إذن فقد تحالف الجد «سلطان» مع شريكه القديم الشيخ «إنسان» ودبرا هذه الرحلة الشاقة.. رحلة التطهير كما يحلو للجد أن يسميها، فوجئا بالجد يقول:

- لم تكن التصاريح مزورة، وكذلك بطاقات الهوية، كل شيء كان حقيقيًا.. التصاريح مخوَّل لمحمية وادي العلَّاقي أن تتقدم بطلبها، ساعدنا «عبدون» كثيرًا في ذلك.

«عبدون» أيضًا كان أحد أطراف الحكاية! كان لقاؤهما مُدبرًا في القرية، ورغم كل ذلك لا يستطيع «يونس» أن يشعر نحوه بالغضب؛ فتآلف روحيهما كان من مغانم هذه الرحلة.

«هَدَل» أيضًا كان شريكًا في ذلك، لكن ليس كذبًا،

أوضح الجد يقول:

- خَرِف مجنون يعيش في الجزيرة، حدثني «إنسان» عن هوسه بصندوق مسحور يصر أنه ورثه عن أجداده، ويقسم على أنه تكملة لقصة رويت في كتاب «ألف ليلة وليلة».. ساعدتني أوهام الرجل على أن أحكم شباكي حولكما.. واصطدتكما دفعة واحدة.. قل لي يا «يونس» من الصيَّاد الآن؟

أطلق الجد «سُلطان» ضحكة مرحة لم يشاركه فيها أحد.. اغتمت «حواء»، حتى الأسطورة كانت كذبة، لم يكن ظهور التمساح وأخذ الصندوق نحو القاع سوى مصادفة لا أكثر.. أردف الجد:

- كانت الرحلة مقدر لها أن تنتهي خلال أيام قليلة على كل حال، كنت سأحضر إلى الجزيرة مع السيدة «عفت» ونشرح لكما كل شيء، لكن صبر الشباب دائمًا سريع الاشتعال.

أخرج «يونس» الخاتم الفضي من جيبه، ابتسم الجد بخبث قائلًا دون أن ينتظر السؤال:

- هذه مجرد «توابل» لإثارة حفيظة «حواء».

أطبق الوجوم فوق وجه «حواء»، أجهشت في البكاء، تذكرت حرارة الرمال، الجوع والعطش، خوفها، ألمها، وحبل الأمل الذي كاد ينقطع.. دنت منها أمها تربت فوق ظهرها، وتقول بإشفاق لعلها تشعر به نحو ابنتها للمرة الأولى:

- سامحيني يا «حواء».. لكن جدك أكد لي أنكما لن تكونا في خطر، في الصحراء كان يراقبكما دائمًا عدة رجال من طرف خفي، وعلى رأسهم الرجل الذي منحكما خيمته.. لم ألق بكِ في الخطر، بل رأيت ما رآه الجد، في هذه الرحلة منفعة لكليكما.

لم يكن «يونس» بأقل من «حواء» انفعالًا، لعله لن يفهم أبدًا دوافع جده، لعله لن يغفر له ما فعل، لكن لم يكن ذلك ما يشغل تفكيره، بل شيء آخر، كان خائفًا من أن يكون الكنز مجرد بلور زائف، يعكس بريقًا يخطف العيون، ولا يمثل في عُرف النفائس أي قيمة.

أحاط «حواء» الباكية بذراعيه، تركها تفرغ أوجاعها فوق كتفه، يحملها عنها في رضا، لم تكن هي بأقل خوفًا منه، هل ما جمع بينهما خلال رحلتهما كان مجرد سراب؟! كانت التجربة كلها مُدبرة، حرب زائفة، أقحمهما فيها الجد لملاقاة عدو وهمي، لكنهما حاربا فيها بإيمان الفرسان، وبسالة الشجعان، فهل يمكن أن يخرجا من حرب زائفة بمكتسبات حقيقية؟!

أم لعل العدو لم يكن وهميًا، كان حقيقيًا، لم يكن العدو في هذه الرحلة أحدهما، أو الغريب، أو حتى الصحراء والمخبول «هَدَل».. بل نفساهما، كل منهما كان عدوًا لنفسه فحسب، حتى لو كانت التجربة كلها غير حقيقية، فمواجهة كل منهما لنفسه وانتصاره على نقطة ضعفه كان حقيقيًا كما يجب للحقيقة أن تكون. لم يكن الكنز بلورًا قابلًا للكسر، بل ذهب خام لم تدنّسه أيادي المنقبين، ذهب نقي اجتهد كل منهما للتنقيب عنه بنفسه في نفسه، حتى وجده أخيرًا يشع ببريق أصفر يأسر القلوب.

كان هناك تساؤل أخير طرق عقل «يونس» جعله يستوقف الجد الذي فتح باب البيت ليغادره، قال «يونس» وهو يرفع بضع خصلات من شعره في مواجهة عيني الجد:

- والشعر الأبيض.. كيف وصل إلى رأسينا؟

التفت الجد نحوه ببطء، ضاقت عيناه، وابتسم فحسب.

في صبيحة اليوم التالي جرت مكالمة طويلة بين الجد «سُلطان» والشيخ «إنسان»، يطمئن فيها هذا الأخير على أحوال الشابين.. ويخبر الجد بأدق التفاصيل التي عاشاها في رحلتهما.. وقبل أن ينهي الجد المكالمة قال للشيخ «إنسان»:

- أرسل سلامي وشكري للسيدة «ملوك».. ها.. بالمناسبة.. من الجيد أنك تذكرت صبغ شعريهما باللون الأبيض قبل أن يستفيقا في الكهف.. لقد فاتتني هذه النقطة.

لم يأته رد الشيخ «إنسان» في الحال.. بدا كأن عمرًا طويلًا مر قبل أن يقول بصوت شرخته الحيرة:

- لم أصبغ شعريهما يا «سُلطان».. ألم تفعل أنت؟!

تجمدت قسمات الجد، حتى إنه نسي أن يطرق بعصاه مرتين فوق الأرض قبل أن يقول:

- لا لم أفعل!

***

دخلت «حواء» الحمام الصغير الملحق بغرفة نومهما، تركت للماء الجاري مهمة إزالة معجون الصبغة السوداء عن شعرها، بعدما قررت أن تعيده إلى سيرته الأولى، أمسكت بأطرافه، تنظر إليه بعين الرضا، أسود كالليل.. تمامًا كما يحبه «يونس».. جففت شعرها بالمنشفة ولفته بها.. خرجت لملاقاة «يونس» في الردهة المؤدية إلى الحمام الرئيسي، كان هناك واقفًا أمام بابه والصدمة تُعفِّر جبينه.. دنت منه تقول:

- «يونس» ماذا بك؟

نظرت إلى شعره المبتل، تتساقط قطرات الماء فوق ملابسه دون أن يهتم بأن يوقفها.. قالت وهي تنظر إلى شعيراته البيضاء في مقدمة رأسه:

- «يونس» لماذا لم تصبغ شعرك بالأسود كما اتفقنا؟

أزاح عن شعرها المنشفة وأسقطها أرضًا.. ثم دفع بها نحو مرآة الحمام، شهقت فزعة وهي تمرر أصابعها العشرة بين خصلاتها.. لقد غطى اللون الأسود شعرها الأحمر كما أرادت.. تمامًا كما يحبه «يونس».. إلا أن الشعيرات البيضاء ظلَّت محتفظة بلونها الثلجي!

المصعد

ثم أدركنا الصباح فسكتُّ عن الكلام المُباح..

فهناك كلام صريح يُقال.. وكلام عصي مُحال، تعجز أحبار الكون عن كتابته.

كنت أسترجع أحداث الرواية، وكلماتها، وحروفها في عقلي مع كل صفحة يطويها مدير دار النشر من الملف الوردي ذي الصفحات المتكدسة، في البداية تظاهر بالقراءة، فهمتُ ذلك من سرعة التهامه للصفحات، ومستوى عينيه الذي يتجاهل جُملة من الأسطر، لكن عند نقطة ما اشتعل فتيل اهتمامه، اهتمام حقيقي، بدأت شفتاه في الهمهمة، لمعت عيناه بالفضول عدة مرات، وبالتأثر مرتين؛ فرجع بخف حنين إلى الصفحة الأولى يبحث عن باقي الخف الضائع.

تناثر في أرجاء المصعد فوارغ زجاجتين من المياه، وثمانية قطع من البسكويت، جمعتهم بهدوء في حقيبتي، كمسافر توقف للاستراحة في إحدى المحطات على الطريق، وهو الآن يستعد للمغادرة.

السادسة صباحًا إلا عشر دقائق..

يجب أن أنتظر إذن لعشر دقائق أخرى، قبل أن يشهق المصعد عائدًا إلى الحياة مرة أخرى..

في العمر شهقتان، شهقة الموت وتحدث لمرة واحدة، وشهقة الحياة التي قد يعيش المرء عمرًا كاملًا دون أن يختبرها، هذه الشهقة توافق زمانها مع بطلي الرواية في الوقت نفسه، يولد الحب من أرحام عديدة، لكن رحم التجارب المشتركة هو الوحيد القادر على ولادة حب مكتمل التكوين، وكانت تلك بالنسبة لهما هي شهقة الحياة الأولى.

- لماذا لم تكتبي الفصل الأخير؟

أخرجني سؤاله من شرودي، أشارت أنامله إلى الصفحة الأخيرة من الملف، والتي لا تحوي سوى كلمتين فحسب، «الفصل الأخير»، بخط عريض أعلى الصفحة، أما أسفلها فخالٍ من الكلمات، كعمر مديد من الأسطر لم تشهق فيهم الحياة.

كيف أشرح له ما أعجز أنا نفسي عن كتابته؟!

تعجز الكلمات المنطوقة أن تقدم شرحًا أوفى مما تقدمه سيدتها المكتوبة، وضع نهاية لتلك الحكاية قاسٍ جدًا، ومنافٍ لقوانين الطبيعة، هناك حكايات تولد وفي أدبارها نهايات عديدة، يحتار المرء بينها، وهناك حكايات ولدت بغير نهايات، حكايات مستمرة استمرار الأزمان، نهايتها تعني موت الزمن، والزمن لا يموت.

كذبتُ حين كتبتُ في الصفحة الأولى أن النهاية «قيد الكتابة»، فالنهاية قيد الحياة!

- يجب أن يكون للرواية نهاية.

قالها بعقيدة صاحب دار للنشر يهوى صيد الحكايات الجيدة وحبسها بين دفوف الكتب، كيف أقنعه بأن هناك حكايات يعجز صيادو العالم عن إخراجها كاملة من الأعماق، وحبسها في حوض زجاجي، يمنح للآخرين متعة التهامها بعيونهم من البداية إلى النهاية، وهضمها في عقولهم حتى لا يبقى منها شيء..

أليس هذا فِعلًا ساديًا؟!

كيف أشرح له أن هنالك حكايات لها نهايات سعيدة أو حزينة فحسب، أو حتى نهايات معقدة تترك للقارئ حرية تأويلها كيفما شاء.. وهناك حكايات خالدة تبدأ ولا تنتهي؟

شهق المصعد بالحياة في تمام السادسة، تحرك إلى الأسفل ببطء من يخشى أن تُسلب منه الحياة التي استعادها للتو. توقف عند بهو البناية، انفتح الباب، أول ما وقعت عليه أنظارنا كان البواب المضطرب، ما إن خرجتُ من المصعد حتى تنهد قائلًا:

- حمدًا لله على سلامتكما، والله لم يغمض لي جفن طوال الليل مخافة أن يحدث خطأ غير مقصود.

أخرجتُ من حقيبتي المال الذي وعدته به، ثم دسسته في يده، شكرني غير مكترث لنظرات الرجل الغاضب الذي أمطره بالتهديد والوعيد، بل تجرأ على أن يقول له بسماجة:

- يا أستاذ العطل لم يكن مفتعلًا كما تدعي.

- يا سلام، ألم تسمع ندائي عليك مرارًا بعد أن تعطل المصعد؟.

بسماجة أشد، وأسنان لونتها النرجيلة أجابه:

- لم أسمع يا أستاذ، سمعي ضعيف، فالصحة لم يبق منها إلا ما يكفينا بالكاد حتى باب المقبرة.

سعل بقوة مدللًا على اعتلال صحته، ثم غادر إلى حيث مقعده أمام البوابة، والتقم فمه نرجيلته الأثيرة، التفت الرجل نحوي في محاولة أخيرة لأن ينزل عليَّ عقابًا أستحقه:

- وأنتِ.. ألا تخافين أن أخبر مالك البناية بفعلتكِ؟

- ولماذا أخاف؟

ضاقت عيناه، ثم أردف:

- لأنكِ إحدى سكان البناية، تذكرتُ أنكِ جئت إلى مكتبي مرة وحيدة تُطالبين فيها بسبب رفض الرواية، يومها أخبرتني أنكِ تقطنين في البناية نفسها.

قالها ثم سكت، لا أظنه فهم، لم يستطع أن يربط الخيوط بعضها ببعضٍ حتى الآن، قال فجأة وكأنه يتحدث إلى نفسه:

- لماذا لم تكتبي اسمك على الملف؟

سأل غير منتظر للجواب مني، بل من عقله الذي أخذ يعمل بطاقته القصوى، هكذا بدا لي من تقطيبة جبينه، وعينيه السابحتين في عالم آخر.. ثم سأل مرة أخرى لكن هذه المرة كان ينتظر مني الجواب:

- قلتِ أنني أحد شخصيات الرواية، فهل كنتِ تكذبين؟

- لم أكذب.

دقَّت ساعة المغادرة، تركته من خلفي يتوسط البهو مفكرًا كتمثال حجري.

أراه بعين الخيال يحاول جمع خيوط الحكاية مثل الشمس التي حكى عنها الشيخ في الرواية، يأخذ بيمينه خيطًا كان واضحًا له منذ البداية.. «أبو الرجال».. أليس هذا لقب صاحب البناية؟!

يعقده بخيط آخر أهديته إياه بنفسي، مكتبه بالطابق السادس، الشقة نفسها التي ورثها عن والديه، والتي كانت سكنًا لهما منذ أولى أيام زواجهما، ولأكثر من ثماني وثلاثين عامًا! ثم يبحر به التفكير أكثر، ويتساءل.. ألم يتوقف المصعد

في بداية الرواية عند الطابق السادس، وتتوقف أنظار بطلي الرواية عند زوجين حديثي عهد بالزواج، ينتظران طفلًا يضع أولى لبنات أسرتهما الصغيرة.. الطفل الذي كان السبب وهو لا يزال جنينًا في رحم الغيب في أن تبدأ فصول الحكاية!

أغلقتُ باب البيت من خلفي، وضعتُ الحقيبة أرضًا، توجهتُ رأسًا صوب غرفة النوم الكبيرة، احتضنني الفراش الفسيح، لم أكن وحدي، زاحمني فوقه عطر وذكرى، أفسحت لهما مكانًا كبيرًا، وجلستُ أنا على حافة الفراش.

أتيتُ بأوراق صماء وضعتها أمامي، وعلى اليمين كتاب «ألف ليلة وليلة» قديم مهترئة صفحاته، وعلى اليسار هاتفي الخلوي المفتوح على رسالة وصلتني منذ قليل، تحتوي على كلمتين فحسب، «أنتظر النهاية»!

رحلة عجيبة خاضها بطلا الرواية في عام ألفين وستة عشر، كيف أنهيها؟ لا يمكن أن أنهيها في التاريخ نفسه.. إذا أراد مدير الدار نهاية فسأمنحه واحدة لكنها ستبعد ثمانية وثلاثين عامًا منذ أن عاد بطلا الحكاية إلى كفر الشيخ مرة أخرى.

أمسكتُ بالقلم، وحاولتُ منحه ما يريد.

نهاية البداية
و
بداية النهاية

ثمانية وثلاثون عامًا تمُر، لا يحب تذكر مرور الزمن سوى الأشجار فحسب، فالشيخوخة مصدر فخرها، أما الناس فيفضلون أن ينسوا، يعيشون السنين وكأنها لم تأت، ولن تمُر.

رغم أنها تطبع فوق وجوههم آثارها، وبدواخلهم أماراتها، فإنهم ينكرون مرورها بأرضهم كسوأة يجب سترها.. الشيخوخة زائر غير مرغوب فيه، إذا حلَّ تسوَّل الاهتمام بهداياه، لا أحد يحب هدايا الشيخوخة، لكن «حواء» فتحت لها ذراعيها، واستقبلتها بالترحاب، لم تخش منها، لم توارها كبقعة في رداء، أجلستها فوق مقعدها الأثير قرب نافذة تستقبل وجه القمر، قدَّمت لها واجب الضيافة، فكانت حليمة عليها، ودودة إليها.

لا يحسن استقبال الشيخوخة سوى امرئ ذاق الحياة حتى ارتوى، ولا يخشاها سوى بائسين لم تحبهم الحياة ولم يحبوها.. يرغبون في أعمار أطول علَّهم يحصدون ثمرة بذور لم يزرعوها قط!

أفسحت «حواء» للشيخوخة مكانًا في فراش المرض، وتركتها تمس بيد الوهن جبينها فينضح بالعرق، لم تهتم، ولم تغتم؛ فيد أخرى بجوارها كانت تمسح عن جبينها حبات العرق، يد حانية كأفئدة الطير، عذبة كماء النيل، قادرة على خلق فراشات تخفق في سماء صدرها، يد رافقتها منذ ولادتها داخل المصعد، ولثماني وثلاثين عامًا بعدها.

أمسكت بيد «يونس» تشد عليها، يتشارك الناس في الزاد والمتاع، والأفكار، وبعض الذكريات، كانت تلك هي المرة الأولى منذ بدء الكون التي يتشارك فيها شخصان دمعة واحدة! هبطت قطرة من سحابة كانت تظلل رأسيهما، قسمتها الرياح إلى نصفين، كل نصف استكان فوق شفاه واحد منهما، سار كل نصف مرتحلًا في الجسد، دخل مجرى الدماء، سكن الشريان والوريد، تدفأ بغرف القلب من برد الشتاء، واحتمى بتلافيف العقل من تقلبات الخريف، وتسوَّر الرمش والجفن لينعم بألوان الربيع، وعندما جاء الصيف سقط النصف من شرفات العين واختلط بنصفه الآخر فأمست قطرة واحدة، دمعة واحدة تشارك فيها حبيبان.. سقطت فوق كفيهما المتعانقين.

في تلك اللحظة تذكرت «حواء» حلمها القديم، رجل يحتضن كفيها في سكرات الموت، يلقنها الشهادتين، يبكيها بكاء من فقد العالم بأسره، ولا يخجل من كونه رجل يبكي، يتربَّع فوق عرش الذكريات، ويعيد على مسامعها تفاصيل ذكرى لا تُنسى، وضحكة لا تبلى، يشد على يديها وقت الألم، يسرق من شفتيه بسمة أخيرة ويهديها لعينيها.

لم يأت الموت بالضجيج والصخب، مارس مهمته الأزلية بهدوء وكأنه يخطف من الرياح نسمة واحدة، لكن هذه النسمة قلبت موازين «يونس»، هدمت سقف عالمه، وزلزلت الأرض أسفل قدميه، لم يسمح لأحد من أولادهما الثلاثة وأحفادهما

السبعة بنزع جسدها من أحضانه حتى مطلع الفجر، تركوه يبكيها ويشتكي حزنه عليها.. إليها، يحكي لها عن ألم فقدها، وحيرته فيما يفعل من بعدها، فكانت له الداء والدواء في الوقت ذاته.

ماتت هناك في البيت الصغير قرب البحيرة، ودفنها بجوار قبر أبيه وأمه.. وجده.

المؤلفة

سُفرة يونس سلطان أبو الرجال

تركتُ القلم ولم يتركني، أعرفُ أنه هناك عند السطر الأخير يكتب المزيد، ولن يتوقف أبدًا عن الكتابة.

خرجت من الغرفة الكبيرة التي احتضنت آخر أنفاس أمي «حواء»، عام مر ولا تزال الجدران تتذكر لحظاتها الأخيرة وكأنها الأمس، يومها كنتُ أستند إليها وأنا أقف في نهاية الغرفة، أتطلع من بين الرؤوس المنحنية الباكية إلى جسدها الساكن للمرة الأخيرة، سقطتُ عند قدميها لأعانقهما، قبلتُ جبينها، أخذتُ بكفها ومسحت به على وجهي كما فعل أخي الأكبر.. توقف الدمع في مسراه وكأنه لا يعرف وجهته، ترك العين وهطل على القلب يحرقه، ضاق البيت الصغير بأخويّ وزوجتيهما وأولادهما فارتحلا إلى «كفر الشيخ» للمبيت استعدادًا للدفن، قضى أبي الليلة في غرفة أمي يرفض ترك جسدها للرحيل، وكنتُ أنا وحدي في الغرفة المجاورة، والتي كانت لأبي وهو بعدُ طفل صغير.

وجدتُ نفسي أمسك بقلم كان لها، وبأوراق خالية، وأدون فيها الحكاية كما روتها علينا مرارًا وتكرارًا، حكاية تبدأ ولا تنتهي.

لكنني عجزتُ عن كتابة الفصل الأخير، لم أكن أعرف كيف أنهيها. قلبي يصرخ الآن ينشد السلوى، ذهبتُ أبحث عنها في أحضان أبي، حتمًا إنه يجلس الآن قرب البحيرة، فوق صخرة كانت أريكتهما المفضلة لسنين طويلة، كانا يهربان كل حين من أعباء الحياة ويلتجئان إليها، دومًا كانت الصخرة عليهما رحيمة، تستقبلهما كل مرة بالترحاب، وتشدو لهما طيور النورس ألحان الحنين.

لثماني وثلاثين عامًا كانا ينسجان فصول قصتهما، كما قالت لي أمي يومًا، لكل حبيبين أسطورة خاصة، فريدة كبصمات الأصابع، يكتبانها سطرًا بسطر.. بينما البعض يختار التقليد، يعيش على أطلال أساطير غيره، يتلبَّسها قسرًا، فيمضي عمره ولم يذق للحُب الحقيقي طعمًا.

لم تخل حكايتهما من الشتاءات، لكنهما كانا يتسلَّحان في مواجهتها برصيد كبير من فصول الصيف، كانت أمي تقول أن الزواج الناجح لا يبدأ بالحب، بل ينتهي به.

اشتقتُ إلى أبي بعد أسبوع غياب أمضيته في زيارة المكان الذي بدأ عنده كل شيء.. ذهبتُ إلى هناك برفقة أسرتي الصغيرة عشرات المرات، أمضينا فوق جزيرة هيسا وقتًا خارج الزمن، أعاد فيه أبي على مسامعي القصة من جديد، لعشرات المرات أشار إلى شجرة الصفصاف الكبيرة الراكعة صوب النيل ببهجة من لاقى صديقًا عزيزًا بعد غياب.. التقيتُ بصديق أبي العم «عبدون»، يومها أدركتُ أن ليس كل أسمر نوبي! قال لي العم «عبدون» أنني أخذتُ من جدي الكبير جرأته، ومن أبي قوته، ومن أمي عنادها.. أخبرني أن «سُفرة» اسم نوبي، وقد كنت أعرف ذلك من أمي وأبي، لكنه قال أن أصله «زُهرة»، ثم حرفته اللغة النوبية إلى «سُفرة».. أما زوجته «داريا» فدائمًا تُشيِّعني ببشاشة قائلة:

- «إر دولجي».

وعندما سألتها عن معناها قالت:

- «أنتِ الحب».. فالحُب لا ينبت إلا حُبًا.

فأحببتُ وقع كلماتها.

رأيتُ أبي جالسًا هناك فوق الصخرة، لا يتحرك وكأنه يخشى أن يزعج بحيرته المقدسة الناعسة في وقت القيلولة، منذ خطف الموت أمي أطال المكوث أمام البحيرة وفي يديه مصحفه الصغير، لم يعد يذهب إلى كفر الشيخ لمتابعة أعماله، تركها كاملة تحت تصرف أخويّ، كثيرًا ما كنتُ أظن أنه يبحث في البحيرة عن طيف أمي، لعله يمر من أمامه ذات صباح.

اقتربتُ من الصخرة، كان منحنيًا وكأنه يبحث عن شيء مفقود.. اقتربتُ منه أكثر، وأكثر فأكثر.. نظرتُ إلى الرمال أولًا، إلى موضع نظراته، لم أجد شيئًا، رفعت عيني ببطء إلى وجهه، عيناه مفتوحتان لكنهما لا تريان عالمنا هذا، هززته بفزع فمال إلى أحد جانبيه لا حول له ولا قوة، وبسمة رائقة مثبتة فوق ثغره، وكأنه عثر أخيرًا على هذا الشيء المفقود، خرج من حوت الدنيا وظلماتها إلى حياة أبدية غُزِلت بخيوطٍ من نور، شددتُ على كفه، وأطلق قلبي صيحة ألم شديدة.. ركعت عند قدميه هناك عند شاطئ البحيرة، أتذكر كلماته التي سمعته يهمس بها لأمي عندما قالت له أنها تشعر بقُرب النهاية:

- الأجساد تبلى والحُب لا يموت، بل يُوَرَّث من جينات الآباء إلى الأبناء مثل طول القامة ولون الشعر..

الحُب حكاية لا نهاية لها.....

تمت بحمد الله

شكر خاص إلى ابن النوبة

الأستاذ/ أمين سُليمان كَبَّارة

لإمدادي ببعض الكلمات النوبية التي أضفت على الرواية عبقًا خاصًا.